من التراث السياسي الإسلامي

نصيحة الملوك

تأليف
أقضى القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب
الماوردي
المتوفى ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)

تحقيق
الشيخ خضر محمد خضر
العالية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر - ليسانس
العالمية مع إجازة التدريس - ماجستير

مكتبة الفلاح

نصيحة الملوك

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

مكتبة الفلاح هاتف ٥٤٧٧٨٤ ـ ص.ب ٤٨٤٨ ـ الصفاة ـ الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الباب الثاني

الباب الثالث :

الفصل السادس :

الباب السادس

الباب العاشر :

مقـدّمة التحقـيق

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونثني عليه الخير كله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن تبعه من العلماء العاملين والمؤمنين المتقين صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين .

وبعد ، فمنذ أن حققت تفسير القرآن الكريم المسمى « النكت والعيون » وأتبعت ذلك بتحقيق « الإقناع » في الفقه الشافعي وكلاهما لأقضى القضاة أبي الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي — رحمه الله - أقول منذ ذلك عقدت العزم على تحقيق كل ما أستطيع تحقيقه من كتب هذا الإمام الكبير والعالم العظيم .

وها أنا أقدّم اليوم بعون الله وحسن توفيقه الكتاب الثالث وهو « نصيحة الملوك » سائلا المولى عز وجل أن يعيننى على هذه المهمة وأن يلهمني السداد كي أخرج الكتاب على الوجه الأكمل .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

المـــاوَردي

نسبه :

هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي ، ولد في البصرة سنة أربع وستين وثلاثمائة للهجرة الموافقة لسنة أربع وسبعين وتسعمائة للميلاد ، في أسرة عربية عرفت ببيع ماء الورد ، ومنها عرف بالماوردي .

وتوفي يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأول سنة خمسين وأربعمائة للهجرة الموافقة لسنة ثمان وخمسين وألف للميلاد .

ودفن بمقبرة باب حرب في بغداد ، وصلى عليه تلميذه الخطيب البغدادي بجامع المدينة وذلك بعد وفاة القاضي أبي الطيب الطبري بأحد عشر يوماً .

وللماوردي ترجمة في المراجع التالية[1] :

---

(١)

وفيات الأعيان	لابن خلكان	٢/ ٤٤٤
معجم الأدباء	لياقوت الحموي	١٥/ ٥٢
طبقات الشافعية	للتاج السبكي	٣/ ٣٠٥
النجوم الزاهرة	لابن تغري بردي	٥/ ٦٤
شذرات الذهب	لابن العماد	٣/ ٢٨٥
روضات الجنات	للخوانساري	٣/ ٤٨٣
كشف الظنون	لحاجي خليفة	١/ ١٩ وغيرها
هدية العارفين	للبغدادي	١/ ٦٨٩
مرآة الجنان	لليافعي	٣/ ٧٢ =

عصره :

عاش الماوردي في العصر العباسي الذي يعتبر العصر الذهبي للدولة الإسلامية إذ لم يبلغ المسلمون من القوة والسلطان والعمران ما بلغوه في هذا العصر من قبل ولا من بعد .

ومع أن الفترة التي عاش خلالها الماوردي كانت حافلة بالأحداث والتقلبات السياسية إلا أنها كانت كذلك حافلة بالعلم والمعرفة والتقدم والحضارة إذ ترجمت علوم الأولين من الفرس واليونان ، وألفت الكتب في شتى فروع العلم .

ومن معاصري الماوردي أبو العلاء المعري والرئيس ابن سينا .

ويطول بنا المقام إذا تتبعنا جوانب النهضة الإسلامية في هذا العصر ، وقد أسهبت كتب التاريخ والأدب في الحديث عنها فمن أراد الاطلاع أمكنه الرجوع إلى تلك الكتب ففيها شفاء لغلته .

= ميزان الإعتدال	للذهبي	رقم ٥٩٣٦
أدب الدنيا والدين	بتحقيق مصطفى السقا	ـ المقدمة
أدب القاضي	بتحقيق محيي السرحان	ـ المقدمة
تاريخ الأدب العربي الملحق	لكارل بروكلمان	١/ ٣٧٦ و ١/ ٦٦٨
تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي	١٢/ ١٠٢
طبقات الشافعية	لعبد الرحيم الاسنوي	٢/ ٣٧٨
الكامل	لابن الأثير	٨/ ٨٧
تاريخ ابن الوردي	لابن الوردي	١/ ٣٦٥
البداية والنهاية	لابن كثير	١٢/ ٨٠
الأعلام	لخير الدين الزركلي	٥/ ١٤٦
معجم المؤلفين	لعمر كحاله	٧/ ١٨٩
مجلة الثقافة الإسلامية	يوليو	١٩٤٤

أخلاقه :

كان رحمه الله ذا علم غزير وخلق حميد وسيرة كريمة حليماً وقوراً أديباً ، جريئاً في الحق لا يهاب أحداً في حق من حقوق الله ولو كان الخليفة ذاته .

فيروى أن جلال الدولة بن بويه سأل الخليفة أن يزيد في ألقابه لقب « شاهنشاه » ومعناه ملك الملوك ، فاختلف الفقهاء في جواز إطلاق هذا اللقب ، فمنهم من أفتى بالجواز كالقاضي أبي الطيب الطبري ، وأفتى الماوردي بالمنع لأن ملك الملوك هو الله تعالى ، وكان الماوردي مقرباً إلى جلال الدولة ، وكان يختلف إلى دار المملكة كل يوم ، فلما أفتى بهذه الفتوى انقطع ولزم بيته من رمضان إلى عيد الأضحى ، فاستدعاه جلال الدولة فحضر إليه خائفاً فأدخله وقال له : قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالاً وجاهاً وقرباً منا ، وقد خالفتهم فيما خالف هواي ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة منك واتباع الحق ، وقد بان لي موضعك من الدين ومكانك من العلم ، وقد جعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك إليّ وحدك وجعلت إذن الحاضرين إليك ليتحققوا عودي إلى ما تحب ، فشكره ودعا له ، وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف(1) .

قال السبكي في الطبقات : وما ذكره القاضي أبو الطيب هو قياس الفقة إلا أن كلام الماوردي يدل له حديث ابن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : أخنع اسم عند الله تعالى يوم القيامة رجل تسمى ملك الأملاك . رواه الإمام أحمد وقال سألت أبا عمرو الشيباني عن « أخنع » . فقال : أوضع . والحديث في صحيح البخاري .

وفي حديث عوف عن خلاس عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : اشتد غضب

(1) الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٦٠ . طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٣٠٥ . المنتظم لابن الجوزي ٨/ ٦٥ .

الله على من قتل نفسه واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الملوك لا ملك إلا الله تعالى .

ولم تمكث دولة بني بويه بعد هذا اللقب إلا قليلاً ثم زالت كأن لم تكن ، ولم يعش جلال الدولة بعد هذا اللقب إلا أشهراً يسيرة ثم ولى الملك العزيز منهم وبه انقرضت دولتهم . انتهى كلام السبكي .

وكان الماوردي متواضعاً ، يقول في كتابه أدب الدنيا والدين[1] : وقد قال الشعبي : العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله ، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله ، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً .

ومما أنذرك به من حالي أنني صنفت في البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى إذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به ، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعاً بعلمه ، حضرني وأنا في مجلسي اعرابيان فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جواباً ، فأطرقت مفكراً وبحالي وحالهما معتبراً .

فقالا : واها لك وانصرفا ، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألاه فأجابهما مسرعاً بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه .

فبقيت مرتبكاً وبحالهما وحالي معتبراً ، وإلي لعلى ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي ، فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس ، وانخفض لهما جناح العجب توفيقاً منحته ورشداً أوتيته ، وحق على من ترك

(١) كتاب أدب الدنيا والدين ص ٥٧ .

العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن ، فقد نهي الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما .

يقول ابن كثير : وقد كان حليماً وقوراً أديباً ، لم ير أصحابه ذراعه يوماً من الدهر من شدة تحرزه وأدبه[1] .

ويقول ابن الجوزى : وكان وقوراً متأدباً ، وكان ثقة صالحاً[2] .

ويقول تلميذه ابن خيرون كما نقل عنه السبكي كان رجلاً عظيم القدر[3] .

وروى ياقوت عن عبد الملك الهمذاني تلميذ الماوردي : لم أر أوقر منه ولا سمعت عنه مضحكة قط ، ولا رأيت ذراعه منذ صحبته إلى أن فارق الدنيا[4] .

وكان رحمه الله مدارياً للناس ، فمن ذلك ما رواه عن نفسه قال : ومما أطرفك به عني أني كنت يوماً في مجلسي بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابي إذ دخل عليّ رجل مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها ، فقال لي : قد قصدتك بمسألة اخترتك لها . قلت : إسأل عافاك الله ، وظننته يسأل عن حادث نزل به . فقال : أخبرني عن نجم إبليس ونجم آدم ما هو ؟ فإن هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما إلا علماء الدين .

فعجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله ، وبدر إليه القوم منهم بالإنكار والاستخفاف ، فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله إلا بجواب مثله ، فأقبلت عليه وقلت : يا هذا إن المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة مواليدهم ، فإن ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله .

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٨٠

(٢) المنتظم ٨/ ١٩٩ .

(٣) طبقات السبكي ٣/ ٣٠٣ .

(٤) معجم الأدباء ١٥/ ٥٤ .

فحينئذ أقبل عليّ وقال : جزاك الله خيراً ، ثم انصرف مسروراً . فلما كان بعد أيام عاد وقال : ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولد هذين .

فانظر إلى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم[1] .

ويروى أن الماوردي لم يظهر من تصانيفه شيئاً في حياته وانما جمعها كلها في موضع ، فلما دنت وفاته قال لشخص يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي ، وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر ، فإن عانيت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي ، فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها ، فاعمد إلى الكتب والقهافي دجلة ليلاً ، وإن بسطت يدي ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قبلت ، وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة .

قال ذلك الشخص : فلما قارب الموت وضعت يدي في يده فبسطها ولم يقبض على يدي ، فعلمت أنها علامة القبول . فأظهرت كتبه بعده[2] .

منزلته العلمية :

لقد كان الماوردي ذا حظ وافر في علوم عديدة فهو فقيه سياسي قاض محدث مفسر لغوي أديب .

ولقد كان هذا شأن العلماء في ذلك العصر لا يختص الواحد منهم بعلم واحد يقصر نفسه عليه إلا أنه قد يبرز في ناحية يشتهر بها ويبرز ، ومما برز فيه الماوردي الفقة والسياسة .

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٥١ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٤٤٤ .

كتبه :

١ و٢ ـ لقد ترك لنا الماوردي كتابين في الفقه هما الحاوي والإقناع .والحاوي موسوعة ضخمة في الفقه الشافعي يقع في نحو ثلاثين جزءاً وهو ما يزال مخطوطاً .

وأما الإقناع فكتاب مختصر إلا أنه شامل ومفيد جداً وينقل ابن الجوزي عن الماوردي قوله : بسطت الفقة في أربعة آلاف ورقة واختصرته في أربعين ، يريد بالمبسوط كتاب الحاوي ، وبالمختصر كتاب الإقناع[١] .

٣ ـ وقد مر معنا انه ألف كتاباً في البيوع إلا أن هذا الكتاب لم يصل إلينا .

٤ ـ أما في التفسير فقد ألف الماوردي كتاباً سماه . «النكت والعيون» لم يفسر فيه كل الآيات وإنما اقتصر على ما يحتاج إلى تفسير وقد جمع فيه أقوال السلف ، ويعتبر بحق من أمهات كتب التفسير ومع ذلك ظل هذا الكتاب مخطوطاً حتى عهد قريب[٢] .

٥ ـ وله كتاب أعلام النبوة وهو يبحث في أمارات النبوة ، وقد طبع .

وفي السياسة ألف الماوردي أربعة كتب هي :

١ ـ الأحكام السلطانية .

٢ ـ قوانين الوزارة وسياسة الملك .

٣ ـ تسهيل النظر وتعجيل الظفر .

٤ ـ نصيحة الملوك .

أما الأحكام السلطانية فإنه أشهر كتب الماوردي وفيه بيان لما يحتاجه الحاكم والوزير والقاضي والولاة والعمال .

وقد طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة وترجم الى عدد من اللغات

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ٨/ ١٩٩ .
هذا وقد قمت بتحقيق كتاب الإقناع وقامت بنشره دار العروبة بالكويت سنة ١٩٨٢ .

(٢) لقد قمت بتحقيق هذا الكتاب وقامت بطبعه ونشره وزارة الأوقاف الكويتية في أربعة مجلدات وذلك سنة ١٩٨٢ .

وأما كتاب قوانين الوزارة فقد اشتمل على آداب الوزارة وأحكامها وواجبات الوزير وحقوقه.

وقد طبع هذا الكتاب ثم قام بتحقيقه بعدئذ الدكتور فؤاد عبد المنعم .

وأما كتاب تسهيل النظر فقد عالج أمرين هامين أحدهما ـ سياسة الملك وقواعده ، والآخر أصول الأخلاق .

وقد قام بتحقيقه الأستاذ محيي هلال السرحان المدرس بقسم الدين بجامعة بغداد ونشر الكتاب عام ١٩٨١ .

أما نصيحة الملوك فهو هذا الكتاب ، وسأحدثك عنه بعد قليل إن شاء الله .

بقي للماوردي ثلاثة كتب هي :

١ ـ كتاب في النحو .

٢ ـ كتاب الأمثال والحكم .

٣ ـ كتاب أدب الدنيا والدين .

وقد نسبت إليه كتب أخرى مثل : أدب التكلم[١] ، ومعرفة الفضائل[٢] ، والرتبة في طلب الحسبة[٣] ، غير أنه لم تثبت نسبتها إليه .

وكتاب النحو هذا لم يصل إلينا ، وقد قال عنه ياقوت : رأيته في حجم الايضاح . والأيضاح كتاب في النحو لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

---

(١) توجد منه نسخة بمكتبة ليدن وقد ذكر الأستاذ محيي هلال السرحان في مقدمة كتاب أدب القاضي ان الكتاب نسخة مكررة من كتاب أدب الدنيا والدين تحت اسم مغاير .

(٢) توجد منه نسخة في مكتبه الاسكريال بمدريد وقد حصلت على تصوير لهذه النسخة فاتضح لي أنها نفس كتاب أدب الدنيا والدين .

(٣) منه نسخة بمكتبة مسجد فاتح باستانبول ، وقد رجح الأستاذ محيي هلال السرحان أن هذا الكتاب لابن الأخوة القرشي المتوفى سنة ٧٢٩ هـ . وهناك كتاب آخر اسمه الرتبة في الحسبة قال عنه أنه ليس للماوردي على الأرجح .

أما كتاب الأمثال والحكم فتوجد منه نسخة بمكتبة ليدن في هولندا وقد حصلت على مصور له وأقوم الآن بتحقيقه .

ويقول الماوردي في مقدمته :

وجعلت ما تضمنه من السنة ثلاثمائة حديث ، ومن الحكة ثلاثمائة فصل ، ومن الشعر ثلاثمائة بيت ، وقسمت ذلك عشرة فصول ، أودعت كل فصل منها ثلاثين حديثاً وثلاثين فصلاً وثلاثين بيتاً ، فيكون ما يتخلل الفصول من اختلاف أجناسها أبعث على درسها واقتباسها .

والكتاب يدل على علم الماوردي وحفظه للحديث والشعر وحكم الأقدمين . وقد شرعت في تحقيقه وعما قريب سيكون في ايدي القراء إن شاء الله .

وبالنسبة لكتاب أدب الدنيا والدين فهو مشهور وقد طبع طبعات عديدة وهو كما يدل عليه عنوانه يبحث في الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المرء في دينه ودنياه وقد كان مقرراً في المطالعة على طلاب المدارس الثانوية بمصر .

شيوخ الماوردي :

١ ـ منهم أبو القاسم عبد الواحد بن الحسين الصيمري المتوفى بعد سنة ٣٨٦ هـ .

٢ ـ وأبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد الأسفرايني المتوفى سنة ٤٠٦ هـ .

٣ ـ وعبد الله بن محمد البخاري الباقي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ .

٤ ـ والحسن بن علي بن محمد الجبلي(١) .

٥ ـ ومحمد بن عدي بن زجر المنقري .

---

(١) له ترجمة في طبقات السبكى ٥/ ٣٤٨

٦ ـ ومحمد بن المعلى الأزدي

٧ ـ وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادي المعروف بابن المارستاني المتوفى سنة ٣٨٤هـ .

تلاميذه :

١ ـ الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .

٢ ـ أبو الفضل أحمد بن الحسين بن خيرون البغدادي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ .

٣ ـ عبد الملك بن ابراهيم ابو الفضل الهمذاني الفرضي المعروف بالمقدسي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ .

٤ ـ محمد بن أحمد بن عبد الباقي ابو الفضائل الربعي الموصلي المتوفى سنة ٤٩٤هـ .

من رواة الحديث عنه :

١ ـ علي بن سعيد بن عبد الرحمن المعروف بأبي الحسن العبدري المتوفى سنة ٤٩٣ هـ .

٢ ـ أبو عبد الله مهدي بن علي الاسفرايني القاضي .

٣ ـ عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن وهو أبو سعيد ابن أبي القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٩٤ هـ .

٤ ـ عبد الرحمن بن عبد الكريم بن هوازن أبو منصور القشيري المتوفى سنة ٤٨٢ هـ .

٥ ـ عبد الغني بن نازل بن يحي الألواحي المتوفى سنة ٤٨٦ هـ .

٦ ـ أحمد بن علي بن بدران ابو بكر الحلواني المتوفى ٥٠٧ هـ .

٧ ـ محمد بن علي بن ميمون المعروف بابن المقري المتوفى سنة ٥١٠ هـ.

٨ ـ محمد بن عبيد الله بن الحسن قاضي البصرة المتوفى سنة ٤٩٩ هـ .

٩ ـ محمد بن أحمد بن عمر النهاوندي المتوفى سنة ٤٩٧ هـ .

١٠ ـ أحمد بن عبيد الله بن كادش العكبري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ[1]

---

(١) اعتمدنا في ذكر هؤلاء على مقدمة كتاب أدب القاضي للاستاذ محيي هلال السرحان .

حياته إجمالا :

ولد الماوردي في البصرة وبها نشأ وإليها ينسب ، وفيها تلقى العلم في الصغر ثم رحل الى بغداد حيث لقي العلماء وأخذ عنهم ، وبعد أن أتم تحصيله العلمي درّس سنوات عديدة ثم عين قاضياً في بلدان كثيرة وقد تولى رئاسة القضاء في كورة استوا من نواحي نيسابور التي تشتمل على ثلاث وتسعين قرية وقصبتها خبوشان كما ذكر ياقوت في معجم البلدان .

وفي سنة ٤٢٩ هـ لقب بأقضى القضاة وقد استمر له هذا اللقب حتى وفاته واشتهر به في كتب المؤرخين . وقد أصبح الماوردي زعيماً لجماعة الشافعية في عصره نظراً لما امتاز به من العلم وسعة الاطلاع .

وقد اختير سفيراً بين الخليفة والبويهيين ثم بينه وبين السلاجقة ، وظل على صلة وثيقة بالخليفة حتى وفاته .

لقد عاش ستا وثمانين سنة وترك لنا اثني عشر كتاباً تدل على علم غزير وشخصية فريدة . وقد هيأ الله لهذه الكتب في السنوات الأخيرة من قام بتحقيقها واخراجها للناس فقد حقق الاستاذ محيي هلال السرحان كتابي أدب القاضي وتسهيل النظر وتعجيل الظفر كما قمت بعون الله وحسن توفيقه بتحقيق ثلاثة كتب هي « النكت والعيون» في التفسير ، والاقناع في الفقه ونصيحة الملوك وهو هذا الكتاب .

كتاب نصيحة المُلوك

هذا الكتاب هو أحد الكتب السياسية لأبي الحسن الماوردي وهو مقسم الى عشرة أبواب جعل الباب الأول في أهمية النصائح والحث على قبولها .

أما الباب الثاني ففي جلاله شأن الملوك وما يجب عليهم من الأخلاق التي تناسب منازلهم .

والباب الثالث في الأسباب التي تؤدي إلى فساد الممالك .

والباب الرابع في مواعظ تعالج قسوة القلوب وتداوي أمراض النفس وآفات الشهوات .

والباب الخامس في سياسة النفس ورياضتها .

والباب السادس في سياسة الخاصة من الأهل والولد والأقارب والخدم .

والباب السابع في سياسة العامة وتدبير أهل المملكة .

والباب الثامن في الاقتصاد وتدبير المال .

والباب التاسع في مواجهة الأعداء الذين يريدون النيل من الدولة ، وسياسة الحرب والسلام .

والباب العاشر في أمور اختلف فيها العلماء من ناحية التحليل والتحريم

كتولي العمل للحاكم الظالم وحكم لبس الحرير واستعمال أواني الذهب وآلات الطرب والملاهي .

والكتاب رغم أنه ألف في القرن الخامس إلاّ أن ما فيه يصلح للعمل به في عصرنا هذا لأنه ارتكز على قواعد أساسية لا تتغير بتغير الزمان .

ويمكن أن يلمس القارىء ذلك عند اطلاعه على الفهرس التفصيلي الذي عملناه وأود أن أزيل شكا وقع فيه الأخ الفاضل الدكتور فؤاد عبد المنعم في تحقيقه لكتاب التحفة الملوكية إذ قال ان أول من أسند « نصيحة الملوك » إلى الماوردي هو بروكلمان وتابعه آخرون من بعده .

وأقول : الحق أن علماء سبقوا بروكلمان قد ذكروا هذا الكتاب ضمن كتب الماوردي ومنهم حاجي خليفة في كشف الظنون إذ قال عنه : وللماوردي في معيد النعم .

وعندما اطلعت على مصور النسخة الخطية وجدت نصيحة الملوك قد جمع مع كتاب معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١هـ أي قبل ان يولد بروكلمان باكثر من خمسة قرون .

آمل ان أكون قد أزلت الشك ، وأسأله تعالى علما نافعا وقلبا متواضعا .

وَصْفُ النُّسْخَةِ الخَطِّيَّة

هذه النسخة من مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس وهي تحمل الرقم ٢٤٤٧ ومعها كتاب معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي (بنفس المايكروفلم) .

تقع المخطوطة في ست وتسعين ورقة مقاس ٢٢× ١٥ سم وفي الصفحة خمسة وعشرون سطراً ، في السطر نحو اثنتي عشرة كلمة ، كتبت بخط النسخ .

وفي أول الكتاب فهرس بموضوعاته .

وجاء في آخر المخطوطة ما نصه :

وافق الفراغ من نسخ هذه النسخة المباركة يوم الأحد المبارك رابع شهر صفر الخير سنة ١٠٠٧ هـ .

علقه بيده الفانية العبد الفقير الحقير المعترف بالذنب والتقصير اسماعيل بن سليمان بن اسماعيل البيجوري .

وبعد ذلك كتب الناسخ ترجمة موجزة للمؤلف وختم الكتاب بما يفيد انه كتب في مصر .

منهج التحقيق

١) قمت بالحصول على مصور هذا الكتاب عن نسخة وحيدة محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢) وقد بدأت بقراءة الكتاب بامعان ورجح عندي أنه للمؤلف .

٣) ضبطت الآيات القرآنية وذكرت أرقامها في سورها من المصحف .

٤) خرّجْت أكثر الأحاديث الواردة في الكتاب .

٥) ضبطت أبيات الشعر ونسبت كثيراً منها إلى قائليها .

٦) كانت عبارة المؤلف جلية واضحة فلم تحتج الى شرح إلاّ في القليل فقمت بشرح ما غمض معتمدا على كتب اللغة .

٧) كتبت مقدمة مطولة ترجمت فيها للمؤلف وذكرت كتبه وأوضحت منزلته العلمية ومراجع ترجمته .

٨) جعلت للكتاب فهرسا تفصيليا بعناوين فرعية وكتبتها بخط مغاير على جوانب الصفحات وهي ليست في الاصل .

٩) وبالجملة فإني لم آلُ جهداً في سبيل إخراج الكتاب على الوجه الذي استراح له ضميري ، مراعيا الأمانة العلمية ، قاصدا بعملي هذا وجه الله تعالى وخدمة العلم .

نسأل الله أن يوفقنا لخدمة الدين والعلم وأن يلهمنا سبل الرشاد وهو نعم المولى ونعم النصير .

الكويت

في ٢٠ من ذي القعدة ١٤٠٢ هـ

٨/ ٩/ ١٩٨٢ م .

خضر محمد خضر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله نفتتح وعليه نتوكل وبه نستعين على كل مقصود وإياه نسأل
التوفيق والتسديد. ونقول إن مما حملنا على تأليف هذا الكتاب
بعد ما علمنا من حث الله جل ذكره العقلاء من عباده على طلب الأجر وركب
في طبائع الفضلاء من المحبة لبقاء الذكر قول الله جل وعز وإذ أخذ الله
ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقوله إن الذين
يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب
أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ثم ما روينا عن نبينا صلى الله عليه
وسلم أنه قال من كان عنده علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيمة
ثم روينا عنه أنه قال إنما الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله
ولأئمة المسلمين وجماعتهم وروي عن جرير بن عبد الله أنه قال بايعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم فالملوك
أولى الناس بأن تهدى إليهم النصائح وأحقهم بأن يحملوا بالمواعظ إذ كان
في صلاحهم صلاح الرعية وفي فسادهم فسادا للرعية ولذلك ما كان
الملوك الأولون يقولون صلاح الوالي خير من خصب الزمان وقالوا
من غش الإمام فقد غش العامة وإن ظن أنه للعامة ناصح وكانوا يقولون
لم ينصح عملا من غش عامله وقال الجليل من الحكماء يجب من حق الله تبارك
وتعالى على المرء التوحيد والطاعة ومن حق السلطان الود والنصيحة وكان
يقال من كتم السلطان نصيحته والأطباء مرضه والإخوان بثه فقد خان

نفسه

نفسه قالوا وكان كسرى ابرويز يقول من لم يصلح للملك مع تعلق
ضره ونفعه به لم يصلح لنفسه ومن لم يصلح لنفسه فلا خير فيه ففي
نصيحة السلطان نصيحة الكافة وفي نصيحة الكافة هداية الى
مصلحة العالم باسره ونظام امور الكل بجملته وعلى حسب ذلك يجد
باذلها لهم من ثواب العاجل والاجل وجزاء المحيا والممات ولهذا ما
جرت العادة في الانبيا ان يبعثهم الله الى ملوك الامم او الى جماعتهم
دون الواحد بعد الواحد من افرادها باعيانهم لان شخص الملك وحده يفي
بجميع من في ضمن مملكته وتحت سياسته ولان الراعي اذا مال الى مذهب
مالت اليه الرعية والملك اذا زهد في سيره زهدت فيها العامة
وعلى هذا جرى امر اكثر المتنبين الذين رامو افساد الدنيا والدين
فكتبنا كتابنا هذا نصيحة للملوك واظهارا لمحبتهم واشفاقا لهم على
انفسهم ورعاياهم ورجونا ان من وقع اليه كتابنا هذا بما فيه من
صادق النصيحة وبليغ الموعظة واعطاه من عنايته حظه بالنظر فيه
والتدبر له والاصغا اليه علم انا من اعظم اوليايه له نصيحة وابلغ
خدمه واعوانه له معونة لانها نصيحة من قبلها وعمل بها من
الملوك والساسه وصل الله ملكه الاخروي بالابدي في دار القرار
ومحل الابرار في ملك لا يبلى ونعيم لا يفنى ولذة لا يشوبها الم
وسرور لا يكدره غم وفرح لا يخالطه حزن وغنى لا يجيء بعده
فقرا وصحة لا يخالطها سقم اتينا لهم فيه غاية المنى وكنا المشتري
لركعاه كثيرا من الجنود والاعوان والقواد والفرسان ووقاه كثيرا
من معرات الاعدا وهو مكايد اهل البغضا وكثر له من الاوليا واطلق
فيه وله السنة الثنا والدعا المحروض عليه والمرغوب فيه ثم جعل
مملكته عامرة وايامه غضة ناضرة وخواصه راضية ورعاياه
منقادة ساكنة وبلاده هادية وسبلها امنة واموالها دارة واعدا
مقهورة مقموعة وعزه في حياته ناميا وذكره بعده باقيا ثم ازاح

ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفرا والبيضا بين يدي والحلو والحامض
عندي فقال وهل دخل احد من الطمع ما دخلك ان الله تبارك وتعالى
استرعاك المسلمين واموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والاجر
وابوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك منهم فيها
وبعثت عمالك في جباية الاموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح
والكراع وامرت بان لا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان نفر
قد سميتهم ولم تامر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجايع العاري
ولا الضعيف الفقير ولا احد الا وله من هذا المال حق فلما راك هولا
النفر الذين استخلصتهم لنفسك واثرتهم على رعيتك وامرت ان لا
يحجبوا عنك تجبي الاموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله
ورسوله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه فاتمروا على ان لا يصل
اليك من اخبار الناس شي الا ما ارادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم
الا اقصوه عنك ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره فلما انتشر
ذلك عنك وعنهم اعظمهم الناس وهابوهم فكانوا اول من صانعهم عمالك
بالهدايا والاموال ليقووهم على ظلم من دونهم فامتلات بلاد الله بالطمع
بغيا وفسادا وصار هولا شركا في سلطانك وانت غافل فاذا جاء
متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك فاذا اراد رفع قصة اليك
عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا ينظر
في مظالمهم فاذا جا ذلك الرجل فبلغ بطانتك سالوا صاحب المظالم ان لا
يرفع مظلمته اليك فان للمتظلم منه انهم حرمة فاجابهم خوفا منهم
فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويشكوا ويلوذ ويستغيث وهو يدفعه ويعتل
عليه فاذا جهد واخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا
يكون نكالا لغيره وقد كنت يا امير المومنين اسافر الى الصين فقدمتها
مرة وقد اصيب ملكها بسمعه فبكى يوما بكا شديدا فحثه جلساوه
على الصبر فقال اما اني لا ابكي البلية النازلة ولكني ابكي لمظلوم بالباب

يصرخ

يصرخ فلا اسمع صوته ثم قال ان ذهب سمعي فان بصري لم يذهب نادوا في
الناس ان لا يلبس ثوبا احمر الا متظلم ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ينظر
هل يرى مظلوما فهذا يا امير المومنين مشرك بالله غلبت رافته بالمشركين
شح نفسه وانت مومن بالله ثم من اهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم لا يغلب
بالمسلمين شح نفسك فان كنت انما تجمع المال لولدك فقد اراك الله عبرة في
الطفل يسقط من بطن امه وما له في الارض مال وما من مال الا ودونه
يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس
اليه ولست بالذي تعطي بل الله يعطي من يشاء ما يشاء وان قلت انما اجمع
الاموال لتسديد السلطان فقد اراك الله عبرا في بني امية ما اغنى عنهم
ما جمعوا من الذهب والفضة واعدوا من الرجال والسلاح والكراع
حين اراد الله بهم ما اراد وان قلت انما اجمع الاموال لطلب غاية هي
اجسم من الغاية التي انت فيها فوالله ما فوق ما انت فيه الا منزلة لا
تدرك الا بخلاف ما انت عليه يا امير المومنين هل تعاقب من عصاك
باشد من القتل فقال المنصور لا فقال فكيف تصنع بالملك الذي خولك
ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب
الاليم ٥ قد راى ما عقد عليه قلبك وعملته جوارحك ونظر اليه بصرك
واجترحته يداك ومشت اليه رجلاك هل يغني عنك ما شححت عليه من
طلب الدنيا اذا انتزعه من يدك ودعاك الى الحساب على ما خولك فبكا
المنصور وقال يا ليتني لم اخلق ويحك كيف احتال لنفسي فقال يا امير
المومنين ان للناس اعلاما يفزعون اليهم في دينهم فاجعلهم بطانتك
يرشدوك وشاورهم في امرك يسددوك قال قد بعثت اليهم فهربوا
مني قال خافوا ان تحملهم على طريقك ولكن افتح بابك وسهل حجابك
وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب
واقسمه بالحق والعدل على اهله وانا الضامن عنهم ان ياتوك ويساعدوك
على صلاح الامة وجا المودنون فسلموا عليه فصلى وعاد الى مجلسه

وطلب الرجل فلم يوجد. وهذه موعظة جامعة تبين عن كثير من أصول
فساد الممالك والأديان وصلاحها رأينا أن نختم به كتابنا هذا الذي
جمعنا فيه جمل ما أوجب الله على ملوك أهل الملة وأمرائها وأئمتها
وخلفائها وأمنهم لها في أنفسهم فما أسرف فيها وتعدى حدودها
وعدل عن طريقها وقد أشبعت لهم الموعظة وبذلت لهم النصيحة وأديت
إليهم الأمانة دينا ودنيا وآخرة فأولى فلينظر ناظر وليتعظ متعظ
وفقهم الله وإيانا للسداد وهدانا وإياهم سبل الرشاد •

• تم كتاب نصيحة الملوك والحمد لله •
• وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده •
• ووافق الفراغ من نسخ هذه النسخة •
• المباركة يوم الأحد المبارك •
• رابع شهر صفر الخير •
• سنة [illegible] •
• تم •

علقه بيده الفانية العبد الفقير الحقير المعترف بالذنب والتقصير
إسماعيل بن سليمان بن إسماعيل البيسوري خادم نعال السادة الخلوتية غفر الله له

ترجمة مؤلف هذا الكتاب

هو الإمام العلامة أقضى القضاة أبو الحسن علي بن
محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي مصنف
كتاب الحاوي في الفقه في نحو عشرين مجلدا ليس له
نظير في المذهب وله كتاب في الفقه سماه
الإقناع فيه فوائد وغرائب ليست في غيره وله
كتاب سماه أدب الدين والدنيا وله تفسير القرآن
العظيم سماه النكت وكان إماما في الفقه

والاصول والتفسير بصيرا بالعربية ولي قضاء
بلاد كثيرة ثم سكن بغداد وعاش رحمه الله
تعالى ستا وثمانين سنة تفقه على ابي القاسم
الصيمري بالبصرة وعلى الشيخ ابي حامد ببغداد
وحدث عن الحسن الجيلي صاحب ابي خليفة الجمحي
وجماعة اخرين روى عنه ابو العز بن كادش توفي
رحمه الله سنة خمسين واربعمائة من الهجرة
النبوية ومما يحكى عنه انه كان اذا اراد
الاستشهاد ببيت شعر من قصيدة حفظها
وحفظ القصيدة كلها رحمه الله تعالى ورضي عنه

استكتبه هذا الكتاب لنفسه لينتفع به وليعمل
بما فيه العبد الفقير الى الله تعالى راقم الحروف كاتب علوان
ابن عبد النبي بن علوان القرماني الحنفي من كتبة الاحكام
الشريفة بالابواب العالية والتذكرة هي بديوان مصر المحروسة
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات امين

نصيحة الملوك

تأليف

أقضى القضاة أبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب

الماوردي

المتوفى ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)

مقـدمة المؤلف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بحمد الله نفتتح ، وعليه نتوكل ،وبه نستعين على كل مقصود وإياه نسأل التوفيق والتسديد .

ونقول إنّ ما حَمَلَنا على تأليف هذا الكتاب بعدما علمنا مِن حَثّ الله ـ جل ذكره ـ العقلاء من عباده على طلب الأجر ، وركّب في طبائع الفضلاء من المحبة لبقاء الذكر ، قول الله ـ جل وعز ـ : ﴿ **وإذ أخَذَ الله ميثـاقَ الـذين أوتـوا الكتابَ لتُبيِّنُنّه للناسِ ولا تكتُمو نه** ﴾[1] . وقوله ﴿ **إنّ الذين يكْتمون ما أنزلْنا من البيّنات والهُدَى مِن بَعْد مابيَّنّاه للنـاسِ في الكتـابِ أولئـك يَلْعَنُهم اللهُ و يـلعَنُهم اللاعنون** ﴾[2] .

ثم ما روينا عن نبيناﷺ أنه قال : « من كان عنده عِلمٌ فكتمه ألْجمه الله بلجامٍ من نارٍ يوم القيامة »[3] .

ثم روينا عنه أنه قال : « إنما الدينُ النصيحـةُ ، قيل لمن يا رسـول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وجماعتهم »[4] .

---

(١) الآية ١٨٧ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٣) رواه أبو داود والترمذي في العلم ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في المسند .

(٤) رواه البخاري ومسلم في الايمان .

وروى عن جرير بن عبد الله أنه قال : بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم[1] .

فالملوك أولى الناس بأنْ تُهدَى إليهم النصائح ، وأحقُّهم بأن يُخَوَّلوا بالمواعظ إذ كان في صلاحهم صلاح الرعيّة ، وفي فسادهم فساد البَرِيَّة . ولذلك ما كان[2] الملوك الأوّلون يقولون :

صلاح الوالي خيرٌ من خصْبِ الزمان . وقالوا : من غش الإمام فقد غَشَّ العامّة وإن ظَنَّ أنه للعامّة مُناصح . وكانوا يقولون لم ينصَحْ عملاً مَنْ غَشَّ عامِله .

وقال جليل مين الحكماء : يجب مين حق الله ـ تبارك وتعالى ـ على المرء التوحيد والطاعة ، ومِنْ حق السلطان الوُدُّ والنصيحة .

وكان يقال مَنْ كتم السلطان نصيحته ، والأطبّاء مَرَضَه ، والإخوان بَثَّه فقد خان نفسه .

قالوا : وكان كسرى أبرويز يقول : من لم يصلح لملكه مع تعلُّق ضره ونفعه به لم يصلح لنفسه ، ومن لم يصلح لنفسه فلا خير فيه .

ففي نصيحة السلطان نصيحة الكافّة ، وفي نصيحة الكافّة هداية إلى مصلحة العالم بأسره ، ونظام أمور الكل بجملته ، وعلى حسب ذلك يرجو بإذلها لهم من ثواب العاجل والآجل وجزاء المحيا والمات .

ولهذا ما جرت العادة في الانبياء أنْ يبعثهم الله الى ملوك الأمم وإلى

---

(١) رواه البخاري ومسلم في الايمان ، والنسائي في البيعة .

(٢) ما : زائدة ، وكثيراً ما يأتي بها المؤلف كذلك .

جماعتهم[1] دون الواحد بعد الواحد مِنْ أفراد رعاياهم ، لأن شخص الملِك وحْده يفي بجميع مَن في ضِمْن مملكته وتحت سياسته ، ولأنّ الراعي إذا مال إلى مذهب مالت إليه الرعيّة ، والملك إذا زهِد في سيرة زهدت فيها العامة ، وعلى هذا جرى أمر أكثر المتنبئين الذين راموا فساد الدنيا والدين .

فكتبْنا كِتابنا هذا نصيحة للملوك ، وإظهاراً لمحبّتهم ، وإشفاقاً لهم على أنفسهم ورعاياهم ، ورجوْنا أنّ مَنْ وقع إليه كتابنا هذا بما فيه مِن صادق النصيحة وبليغ الموعظة ، وأعطاه مِنْ عنايته حظّه بالنظر فيه والتدبر له والإصغاء إليه ، عَلِم أنّا من أعظم أوليائه له نصيحة ، وأبلغ خَدَمه وأعوانِه له معونة .

لأنها نصيحة مَنْ قبِلها وعمِل بها مِن الملوك والسّاسة وصَل الله مُلكه الأمَديّ بالأبديّ في دار القرار ومحل الأبرار ، في مُلْك لا يبْلى ، ونعيم لا يفْنَى ، ولذة لا يشوبها ألمٌ ، وسرور لا يكدّره غمّ ، وفرح لا يخالطه حزن ، وغِنى لا يخشى بعدَه فقراً ، وصحة لا يخاف معها سقماً .

ينال فيه غاية [المنى] وكُنْه المشتهى ، ثم كفاه كثيراً مِن الجنود والأعوان والقُوّاد والفُرسان ، ووقاه كثيراً من مَغرّات[2] الأعداء ، ومكايد أهْل البغضاء ، وكثر له من الأولياء ، وأطلق فيه وله ألْسِنَة الثناء والدعاء المحرض[3] عليه والمرغوب فيه .

ثم جعل مملكته عامرة ، وأيامه غضّة ناضرة ، وخواصّة راضية ، ورعاياه مُنْقادة ساكِنة ، وبلاده هادئة وسُبُلها آمنة ، وأمواله دارّة ، وأعداءه مقهورة مقموعة ، وعزّه في حياته نامياً ، وذِكرَه بَعْده باقياً .

(١) ومن ذلك أن أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون فلم يقل اذهبا إلى أهل مصر وإنما قال تعالى : « إذهبا إلى فرعون إنه طغى» .

(٢) مغرّات : جمع مغرّة من الغرور بمعنى الخديعة .

(٣) المحرض عليه : المدعو إليه من حرض على الشيء بمعنى حث عليه ودعا إليه .

ثم أزاح عنه فُضول الأشغال ، وطرح عنه فوادح الأثقال .

فإن أخطأه في دنياه حظّ يتمنّاه ، وفاته بعض ما يهواه عوّضه الله عنه ما هو أجلّ قدْراً وأعظم خطراً ، وأوفى وأهنأ وأكثر وأسْنَى ، وعْداً مِن الله حقّاً ، وقوْلاً صِدقاً ، والله لا يخلف الميعاد .

على أنّا لا ننفرد في كتابنا بآرائنا ، ولا نعتمد في شيء نقوله على هوانا دون أن نحتجّ لما نقوله فيه ونذكره بقول الله ـ جل وعزّ ـ المنزل في كتابه ، وأقاويل رسوله ﷺ ـ المرويّة في سُننه وآثاره . ثم سِيَر الملوك الأوّلين والأئِمة الماضين والخلفاء الراشدين ، والحكماء المتقدمين في الأمم الخالية والأيام الماضية .

إذ كان هؤلاء أوْلى بالتقليد فيما قالوا ، والاتّباع فيما نسبوا ، والأقتداء بهم فيما مثلوا .

ورأيْنا أنْ نجمع ما قصَدْنا جمْعه من ذلك في عشرة أبواب .

الباب الأول : في الحث على قبول النصائح .

الباب الثاني : في الابانة عن جلالة شأن المُلْك والملوك وما يجب عليهم أن يأخذوا به أنفسهم من الخلال التي تشاكل منازلهم وتضاهي مراتبهم .

الباب الثالث : في الخلال التي من جهتها يعرض الفساد في الممالك والملك .

الباب الرابع : في فصول من المواعظ التي ينتفع بها ، ويعالج بها قساوة القلوب ، ويُتداوى بها من أمراض الأهواء وأسقام الشهوات .

الباب الخامس : في سياسة النفْس ورياضتها .

الباب السادس : في سياسة الخاصة من الأهل والولد والقرابة والخدم والجند .

الباب السابع : في سياسة العامّة وتدبير أهل المملكة .

الباب الثامن : في تدبير الأموال ، جمعها وتفريقها .

الباب التاسع : في تدبير الأعداء .

الباب العاشر : في تقديم النيات وطلب التأويلات لكثير مما يجري بيانه على أيدي الملوك ، مما يكرهه كثير من العلماء والعقلاء .

الباب الأول

الحث على قبول النصائح

وإذ قد ذكرنا ما يجب على أهل العِلم والعقل والديانة والفضل الذين يوجبون على أنفسهم أوامر الله وفرائضه ، وأحكامه ومواجبه مِن نصيحة الملوك والأئمة ، وبيّنا أنّ ذلك مما يجمع نصيحة الكافّة ، ويستصلح بها الخاصّة والعامّة ، وأوضحنا أنّ الله بَعَث أنبياءه، وأمر بها أولياءه ، وحث عليه علماء بريّته وحكماء خليقته فائتمروا به وانتهوا إليه ، وقدّمنا أنّ أحق من تهدي إليه النصائح ويُخوَّل بالمواعظ الملوك بان به أنهم أحق الناس بقبول النصيحة وسماع الموعظة ، لخلال عدة :

الملوك وقبول النصيحة

أولها ـ أنْ يترفعوا به عن مشاكلة أهْل الغباوة والجهالة وسوء النشوء والعادة ، الذين لا يميزون بين منافعهم ومضارهم ، ولا يفرّقون بين محامدهم ومذامّهم ، وعن مرتبة من تستحْوذ عليه شهواته ويغلب عليه هواه ، حتى يرين[1] على قلبه ويكون من الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . وإن ذلك مما يجب على ذوي الهمم البعيدة والأنفُس الأبيّة أن يترفعوا ويسموا بهممهم عنه .

والثانية ـ أن يرغبوا في نتائج النصائح ، فإن النصيحة هداية إلى سُبُل الرشاد ، وتبلغ إلى نيل السداد ، وذلك مما تحمد عاجلته وآجلته وأولاه وآخرته .

---

(١) يرين على قلبه : يغلب عليه الخبث والفساد .

والثالثة ـ أنهم أكثر الناس أشغالاً ، وأعظمهم أثقالاً ، وأبعدُهم من ممارسة أمورهم بأنفسهم ، ومشاهدة أقاصي أعمالهم بأعيُنهم وليس كل مستعان به يُعين ، ولا كل والٍ يستقلّ بما يلي .

والرابعة ـ أنهم أبْعد الناس من مجالسة العلماء ، وحضور مجالس الزهّاد والواعظين والفقهاء ، الذين بهم تُشْحَذ العقول ، وتبصر العيون ، ويذكّر بالغبْن ، فهم عنه محجوبون ، وعن مفاوضتهم ممنوعون مشغولون .

والخامسة ـ أنهم أبعد الناس من الاتّعاظ بالموعظة ، والانقياد للتذكرة ، والقبول للنصيحة إذا خالف [ذلك] أهواءهم ، لأنهم أو عامتهم يغذوهم العز والثروة والأمن والمقدرة والجرأة والمتعة والسرور واللذة . وهذه كلها خلال تؤدي إلى قساوة القلوب والأَنَفَة مِن تعلُّم العلوم وإن كان فيه نجاحهم، والاستنكاف من الاتّعاظ وإن كان فيه صلاحهم .

والسادسة ـ أنهم أقلّ الناس حظّاً من النصحاء المخلصين ، والأودّاء المشفقين ، لأن أكثر من بجيوشهم من وزرائهم وأعوانهم وندمائهم لا يكلمونهم إلاّ بما يوافق أهواءهم ، ولا يستقبلونهم إلاّ بما يطابق آراءهم ، مخافة على مُهجهم وتحصينا لدمائهم ، واستدراراً لمطامعهم ، وضناً بمراتبهم .

ولأن أكثر من يلزم سُدَدهم ويحضر أبوابهم ، ويتصرف في خدمتهم طلاب الدنيا وبائعو حُطامها ، يميلون معها إذا مالت ، ويزلّون بها إذا زلت .

الهوى عدو النصيحة

وليس من حق النصيحة متابعة الهوى ، ولا من خاصة الحق موافقة الشهوات ، وكيف يكون كذلك والله ـ جلّ وعز ـ يقول : ﴿ **ولو اتَّبع الحقُّ اهواءَهم لَفَسَدَت السمواتُ والأرضُ ومن فيهنّ** ﴾[1] ويقول الرسول

---

(١) الآية ٧١ المؤمنون .

ﷺ : « أخوفُ ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل »[1] .

وكانوا يقولون : آفة الرأي الهوى . وقالوا : إنما سُمّي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه في المهالك .

وقال بعض العلماء المتقدمين : وعلى العاقل أنْ يعلم أنّ الرأي والهوى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويف الرأي وإسعاف الهوى ، فليخالف ذلك ويلتمس الاّ يزال هواه مُسوَّفاً ، ورأيه مُسْعفاً .

ولهذه العلل لا تعدم الملوك مَن ينصحها ويستقصي لها أبواب الدخل والخرج والتفريق والجبايات والنفقات ، ومَن يدلها على عاجل مرافقها ، وينصح لها في مكايدة أعدائها ومنابذة مخالفيها .

وقلّ من تجد من ينصحها في دينها ، ويبصرّها مذامّ أمورها ومحامدها ، ويذكرها بعاقبتها ،وينهي إليها أخبار ضعاف الرعيّة وسوء أدب الخاصة والحاشية ، وظلم ذوي الجاه والمقدرة لذوي الخمول والضّعة .

ولهذه العلة ما وضع كثير من الوزراء في أسس الملك أنّ الملِك لا ينبغي أن يكون كاتباً ، لأن الكتابة صناعة ، ولا أن يكون حاسباً لأن الحساب مهنة . حتى قالوا لا يجب أن ينظر في العلم والفقه ويبحث عن اختلافات الناس ليعرف الخطأ من الصواب من مذاهب المِلّة ، فإن ذلك مما ينفّر عنه العامّة ويفرّق عليه قلوب الرعيّة .

حتى قالوا لا يجب ان يكون الملِك بَطلاً مقاتلاً ، فإن ذلك من أعمال الأساورة ، وأن الملك إذا أُلجىء إلى القتال بنفسه فقد هلك ، وأنه ما دام له جُنده فليس له أن يخاطر بنفسه ، ولأنه ما دام باقياً لم يعوزه من يقاتل عنه ويبذل مهجته

(١) رواه أحمد في المسند ببعض اختلاف .

دونه ، وإذا ذهبت نفسه لا يغني عنه جمعه لا ولا ينتفع بجيشه .

في أمور كثيرة مِنْ مثل هذا ، إذا فكّر فيها العاقل ، ونظر فيها المميز ، عَلِم أنها مِن وضع الغاشّين من الوزراء والأعوان ، الذين لم يبالوا أن يَخْلو الملك من كل فضيلة ويعرى من كل منقبة ومعرفة ، حتى يكون كالأسير المكبول والذليل المقهور في أيديهم ، يفعلون بأملاكه وأملاك رعيته ما شاءوا ، ويديرون في المملكة ما أرادوا ، ويبدعون في الملة من الأهواء المضلة والأحكام الجائرة ما رأوا .

ولو تتبعوا سير الملوك الحَزَمة والسّاسة الكَمَلَة [الذين] كانوا على وجه الزمان ، ثم نظروا إلى من برز منهم بالفضل وحاز قصب السبق لعلموا أنهم لم يبلغوا غاياتهم ،ولم يدركوا نهاياتهم إلاّ بفضل العقل والتمييز والحكمة والتدبير ، ثم باليقظة الدائمة والعناية الشديدة والرياضة الكثيرة ، حتى فاقوا أقرانهم ، وراقوا أكفاءهم في المُلْك ، ومضت أيامهم حميدة ، وبقيت آثارهم عتيدة .

وسنذكر في مواضعه من الكتاب ما يحضر من بالغ حِكَمهم ، ومحاسن آثارهم ، ونافع مواعظهم ، ما يكون على ما ذكرناه شاهداً ، وعلى ما سطرناه دليلاً ، بعون الله وحوله .

وقد كان من الملوك الحزمة والخلفاء والأئمة كثير ممن خالف هذه السِّيرة ، وتنكّب هذه الطريقة ، فكان أحبُّ الناس اليهم أصْدَقَهم عن عيوبهم ، واقرَبُهُم منهم أَنصحهم لهم ، وأجلّهم عندهم مَنْ نبّههم على عيوبهم ، وبصرّهم بذنوبهم ، يتواصون باجتناء النصائح ، وقبول المواعظ ، ويشترطون في عهودهم معرفة النصح من الغش ، والناصح من الغاشّ ، وممن يجب ان يقبل ، وكيف يجب فيها أن يعمل .

وقد كان من آثار ملوك العجم وما أُحيي من آرائهم ، ووصفوه في كتب أدبهم أن قالوا : أخلق الناس بالتورّط والندم أعصاهم للنصحاء ، وقالوا : اتخذْ

من علمائك ونصحائك مرآة لطباعك وفعالك، كما تتخذ لصورة وجهك الحديد المجلوّ، فإنك إلى صلاح طباعك وأفعالك أحوج منك إلى تحسين صورتك، والعالم الناصح أصدق وأعوز من الحديد المجلوّ.

وجمع ذلك النبي ﷺ في قوله: «المؤمن مرآة أخيه المؤمن»[1].

وقد قال أردشير في عهده الجليل الخطر، العظيم القدر، الذي جعله دستور الملوك: وفي الرعية ضربٌ أتوا الملوكَ من أبواب النصائح لهم، والتمسوا إصلاحَ منازلهم بإفساد منازل الناس فأولئك أعداء الناس وأعداء الملوك، ومن عادى الملك وجميع الرعية فقد عادى نفسه.

أبواب الملوك الخلفيا

وقال في فصل آخر: وفي الرعيّة ضربٌ آخر، تركوا الملوكَ مِنْ قِبَل أبوابهم، واتوهم من قِبَل وزرائهم، فليعلم الملِك أنه من أتاه من قِبَل بابه فقد آثره بنصيحته إنْ كانت عنده، ومن أتاه مِنْ قِبل وزرائه فهو مُؤْثِر للوزيرِ على الملِك، كل ذلك ضناً بالنصيحة وحثاً للناس عليها.

وقال سابور بن أردشير في عهده لابنه: واحذرْ أن تكون معروفاً عند وزرائك بالسرور بالمتابعة لك على هواك، أو أن يظهر بك إيثارٌ لمن فعل ذلك منهم، وتفضيلٌ له على من سواه، فيلتمسوا الحظوة بموافقتك على ما فيه ضياع عملك وهلاك رعيّتك، فإنّ ذلك مِن أشدّ الأمور تخوفاً لنصائح الأعوان، وأكثرها ضرراً على الملوك.

وإنما جُلّ حاجة الملك إلى وزرائه ليبصرّوهم ما عسى أن يخفى عليهم، والاستمتاع بمشوراتهم وآرائهم، فإذا كان الرأي معطلاً مرفوضاً، وهوى الملك مقتدى به متبوعاً فأهوِن بمنفعتهم، وأَقّلِلْ بغَنائهم.

---

(١) رواه أبو داود في الأدب، والترمذي في البر.

قال : وقد كان بلغنا عمن مضى من الملوك أَشَدُّ التوقيّ لذلك ، وأبلغُ النهي عنه ، حتى لربما أظهر بعضُهم لوزرائه الهوى في الأمر الذي يعرف خطأه وخوره إرادة امتحانهم وتكشيف نصائحهم ، فمن وافقه منهم اجتنى ذلك فيه وعاقبه عليه بالتهجم والجَبْه[١] ، ومن أَبى إلاّ لزوم الصواب حَفِظ ذلك له وأثابه عليه .

قال بعض الحكماء : لا يمنعك صغر شأن امرىء مِن اجتباء[٢] ما رأيت مِن رأيه صواباً ، والأصطفاء لما رأيت من اخلاقه كريماً ، ولا تحقرن الرأي الجليل إن أتاك به الرجل الحقير ، فإن اللؤلؤة النفيسة لا يستهان بها لهوان غائصها الذي استخرجها .

وقال ارسطاطاليس : استغْنِ بمن نصح لمن يُقدّمك[٣] .

وكان أمير المؤمنين عمر يقول : رحم اللهُ امرأً أهدى الينا مساوئنا .

وقال النبي -ﷺ- : « مَنْ غشّنا فليس مِنّا »[٤] .

ولجلال شأن النصيحة ما كانت حكماء العرب تقول : أخوك مَن نَصَحَكَ . وقالوا انصحْ أخاك ، فإن قبل وإلاّ فغشّه ، قيل وكيف أُغشّه ؟ قال : اسكتْ عن نَصيحته . فجعلوا السكوت عن النصح عقوبة للمنصوح على تركه قبوله .

وكذلك ما قال الشاعر : -

ولقد نصحْتك إن قَبِلْتَ نصيحتي والنصح أرخص ما يباع ويُوهَبُ

فهذا هذا .

---

(١) الجَبْهُ : هو الاستقبال بالمكروه وبكلام فيه غلْظة ، فِعْلُه جَبَهَ .

(٢) اجتباء : اختيار وتفضيل .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة في الأصل ، ولعل الصواب ، استعن بمن نصح ليقدّمك ، أي أنه ينصحك من أجل أن يقدّمك .

(٤) رواه مسلم في الإيمان ، وأبو داود والترمذي وابن ماجه في البيوع .

ثم إنّ كل ما نزّل اللهُ في كتابه ، وأجْرى على لسان رسوله ، وأمر بأخذه واتّباعه ، ثم ما تواصى به الحكماء ، [سلفهم[1]] لخلفهم . وأولهم لآخرهم من حكمة بالغة أو كلمة نافعة ، أو موعظة شافية ، أو هداية مرشدة ، فإنما هو نصيحة ، ولذلك ما كانت الرسل عليهم السلام تقول لأقوامهم وتكرر عليهم : نصحْتُ لكم ، وانصح لكم ، وأنا لكم ناصح أمين ، ولا ينفعكم نصحي ان اردتُ أن أنصح لكم .

وكان أهل الدين والعقل والعلم والفضل يقبلونها بالشكر بقلوبهم ، ويجْرونها على ألسنتهم ، ويخلّدون رسومها في دواوينهم وكتبهم ، ويمدحون قائل النصيحة على مرّ الأيام .

وقد كان كثير من الخلفاء إذا أُحسّوا مِن أنفسهم بعُجب أو فظاظة أو تيهٍ أو قساوة ، سألوا العلماء أن ينصحوهم ويعظوهم . فقد بلغنا عن أبي جعفر المنصور أنه قال لسفيان الثوري عِظْني وأوْجزْ ، فقال : يا أمير المؤمنين أرايتَ إن احتبس عليك بولك فلم ينفتح دون أن تفتديه بجميع مُلكك ؟ قال : كنتُ أفتديه بجميع مُلْكي . قال : فما تصنع بملْك هذا قدره ؟ ! .

وعاظ شجعان

ولقد دخل عمرو بن عبيد علي بن أبي جعفر ، فقال له عِظْني ، فوعَظَه بكلام طويل افتتحه بأن قال : إن هذا الأمر لو كان يدوم لمن كان قبْلك لم يصلْ إليك ، وإنّ الله قد أعطاك الدنيا بأسرْها فاشترِ نفسك منه ببعضها ، واعلمْ أنه واقِفُك وسائلك عن مثاقيل الذرّ من الخير والشر ، وأنّ أمة محمد خصماؤك يوم القيامة ، وأن الله لا يرضى منك إلاّ بما ترضى لنفسك ، وأنك لن ترضى لنفسك إلاّ بأن يُعْدَل عليك ، وأنه لا يرضى منك إلاّ بالعدل على الرعيّة . إنّ من وراء بابك نيراناً تأجج من الجور . في كلام له طويل ، وعتاب بينهما كثير .

---

(١) في الأصل : شفاهم لخلفهم ، وهو تحريف .

وقال هارون الرشيد لأبن السماك : عِظْني ، فقال : اعلمْ أنك (لست) أول خليفة يموت . فقال : زدْني ، فقال : لو لم يمتْ مَن كان قبْلك لم يصلْ إليك ما أنت فيه . فقال : زدْني ، فأنشأ يقول :

أتطمـعُ أنْ تُخَلَّـد لا أبالك — أَمِنْـتَ يدَ المنيّةِ أنْ تنالَكْ
أمـا واللـه إن لهـا[1] رسولاً — بـه لو قد أتـاك لما أقالَكْ
كأنـي بالتـراب عليك يُحْثَى — وبالبـاكين يقتسمـون مالَكْ
ألا فاخـرجْ من الـدنيا سليما — ورجٍّ من المعـاش بمـا رجالَكْ
فلسْـتَ مُخَلَّفـاً في النـاس شيئا — ولسـتَ مُزوَّداً إلاّ فِعالكْ

وكذلك كان الملوك الأوّلون ، فكان الاسكندر كثيراً ما يسأل الحكماء أن يزوّدوه في سفره ما يستعين به على مُلْكه ، ودائماً ما يكتب إلى أرسطاطاليس أستاذه ، فيكتب إليه بالمواعظ ، ويهدي إليه النصائح . وسنذكر في مواضعها من كتابنا من مواعظه له ونصائحه إياه .

فكان مما كتب مما يقرّبه إلى خالقه وينفعه في معاده : يا اسكندر ، لا تملْ إلى ما يبيد ويكون بقاؤه قليلاً ، أطلبْ الغنى الذي لا يفْنى والحياة التي لا تتغيرّ والملْك الذي لا يزول والبقاء الذي لا يضمحلّ .

وقال : عجبت ممن استقر قلبه في الدنيا وهي دائمة التصرّم لا يعتبر بالملوك الذين شرفوا وفازوا وتأكد فخرهم ، وكم عساك تعيش يا اسكندر . وقال اجعل العقاب بين ناظريك ، وفكّر فيما وهب الله لك من النعم ، لا فيما يزول ولا غنى [فيه] بعْد أن لا يلبث . اقنعْ تستغْنِ . لا تظلم على الدنيا فإنك قليل البقاء فيها .

بما لو تتبعناه من أخبار الملوك والأئمة في هذا الباب ، لطال به الكتـاب ،

(١) لها : أي للمنية . والمراد برسول المنية ملك الموت .

وإنما أوردْنا بعضاً مما أردناه .

إنه لمّا كان غرضنا في كتابنا هذا إمحاض النصيحة والصدق في الموعظة لم نأمن أن يكون فيه بعض ما يخالف رأي المائلين إلى الشهوات ، والمستهترين باللذات من ذوي الممالك والولايات ، فتمجّه أسماعهم وتنبو عنه قلوبهم وليس يجوز لمن رغب في النصيحة أن يعرضها على هواه ، بل يجب ان يعرضها وهواه جميعاً على الحق وما يوجبه العقل ، فما قبلاه قَبِلَه ، وما ردّاه ردّه ، فربما يكون الثقيل على الطبع ، المكروه في القلب أحمد عاقبةً ، وأروح آخرةً ، وأوفر أجْراً ، وأحسن ذِكراً .

يقول الله جلّ ذكره ـ : ﴿ **فعَسى أن تكْرَهوا شيئاً ويَجْعلَ اللهُ فيه خيراً كثيراً**[1] ﴾ . ويقول : ﴿ **وعَسى أن تكْرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تُحِبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم**[2] ﴾ .

---

(١) آية ١٩ النساء .
(٢) آية ٢١٦ البقرة .

البَابُ الثّاني

في فضائل الملوك في علوّ مراتبهم وما يجب عليهم أن يأخذوا به أنفسهم من اجتلاب الفضائل واجتناب الرّذائل

ولقد كرمنا بني آدم

أما تفضيل الله ـ عز وجل ـ الإنسان على سائر الحيوان ، وتفضيل الحيوان على النوامي والجماد ، وتسخير الله ـ جل ذكره ـ للإنسان جميع ما في العالم من سمائه وأرضه وما بينهما من عظام خليقته وأجناس بريته فشيء لا ينبغي أن يعرض فيه بين أهل العقول شكٌ ولا تنازعٌ ولا مِرْيةٌ ولا تدافُعٌ ، لمشاهدة الجميع إيّاه ، ومعاينة الجمهور له ، واتفاق العقلاء عليه . يقول الله ـ جل ذكره ـ ﴿ وسَخَّرَ لكم ما في السموات وما في الأَرْضِ جَميعاً مِنْه ﴾[(١)]. وقوله :

﴿ و سخَّرَ لكم الشمسَ والقَمَرَ دائبين وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ . وآتاكم مِن كلِّ ما سألْتموه وإنّ تعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تحْصُوها﴾[(٢)].

وقوله : ﴿ ولقد كرَّمْنا بني آدم و حملْناهم في البَرِّ والبحْرِ ورَزَقْناهم من الطّيّباتِ وفضَّلناهم على كثيرٍ ممّن خلَقْنا تفْضيلاً ﴾[(٣)].

---

(١) آية ١٣ الجاثية .

(٢) آية ٣٣ إبراهيم .

(٣) آية ٧٠ الإسراء .

ثم فضّل الله ـ جل ذكره ـ الملوك على طبقات البشر ، تفضيل البشر على سائر أنواع الخلْق وأجناسه ، لجهات كثيرة ، ودلائل موجودة ، وشواهد في العقل والسمع جميعاً حاضرة معلومة .

مقام الملوك

منها أنّ الله ـ جل وعز ـ أكرمهم بالصفة التي وصف بها نفسه ، فسمّاهم مُلوكاً ، وسمّى نفسه ملكاً ، فقال : ﴿ ملِكِ يوم الدّينِ ﴾[1] .

وقال : ﴿ فتعالى اللهُ الملِكُ الحَقُّ ﴾[2] . وقال فيما وصفَ به ملوك البشر : ﴿ إنّ اللهَ قد بَعَثَ لكم طالوتَ مَلِكاً ﴾[3] . وقال : ﴿ إذ جَعَلَ فيكم أنبِياءَ وجَعَلَكم ملوكاً ﴾[4] وقال في أثناء المعنى الذي به يستحق الإنسان أن يسمى ملكاً إياهم[5]، واصطفائه لنفسه وامتداحه به : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليومَ للهِ الواحِدِ القَهّارِ ﴾[6] . وقال : ﴿ قُلِ اللهمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتي المُلْكَ مَن تشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ ممن تشاءُ ﴾[7] وقال : ﴿ و قَتَلَ داودُ جالوتَ وآتاه اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ ﴾[8] . وقال : ﴿ وآتَيْناهم مُلْكاً عَظيماً ﴾[9] .

وامتدح به إلى خلْقه ثم مَنّ عليهم به ، وأبان فضْلهم فيه فقال : ﴿ نحن قَسَمْنا بينهم مَعِيشتَهم في الحياةِ الدنيا و رفَعْنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخْرِيّاً ﴾[10].

فليس أحد في حكم هذا اللفظ أوْلى بالفضل ، ولا أجزل قسماً ولا أرفع

---

(١) آية ٣ الفاتحة وهي على قراءة من قرأ ـ « ملك » بكسر اللام دون ألف .
(٢) آية ١١٦ المؤمنون .
(٣) آية ٢٤٧ البقرة .
(٤) آية ٢٠ المائدة .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة من الأصل .
(٦) آية ١٦ غافر .
(٧) آية ٢٦ آل عمران .
(٨) آية ٢٥١ البقرة .
(٩) آية ٥٤ النساء .
(١٠) آية ٣٢ الزخرف .

درجة من الملوك ، إذ كان البشر مسخرين لهم وممتهنين لخدمتهم ، ومتصرفين في أمرهم ونهيهم .

ومنها أن الله جعل الملوك خلفاءه في بلاده ، وأُمناءه على عباده ، ومُنفذي أحكامه في خليقته ، وحدوده في بريّته .

وكذلك ما قيل : السلطان ظِلُّ اللهِ في الأرض ، لأنّ من حقه أن يحتذى مثاله فيها ، ويحيي رسومه في سُكّانها .

هذا مع أنه جعلهم عُمّار بلاده ، وسمّاهم رُعاةَ عباده ، تشبيها لهم بالرعاة الذين يرعون السوائم والبهائم ، وتمثيلاً لرعاياهم بالإضافة إليهم بها .

ولهذا المعنى سمّاهم الحكماء ساسةً ، إذ كان محلهم من سَوُسيهم محل السائس مما يسوسه من البهائم والدواب الناقصة الحال من القيام بأمور أنْفُسها ، والعلم بمصالحها ومفاسدها . وسمّوا أفعالهم الخاصّة بهم سياسة ، ولذلك ما كانت الأمم الماضية في الأيام الخالية ، والعرب خاصة ، تسمّيهم أرباب الأرض ، والأرباب ، مطلقاً ومقيداً ، لأنهم كانوا يتوقعون منهم ويرجون من قِبلهم أن يقوموا لهم وفيهم من تنفيذ أحكام الله ،وإمضاء حدوده ، وإقامة فرائضة وسُنَنِه ، وفي النظر في مصالحهم وحوائجهم ومضارّهم ومنافعهم ، في الشاهد مقام الرب الذي لا سبيل إلى إدراكه ومشاهدته ـ تبارك وتعالى ـ وبهذا الاسم ما خاطب النابغةُ النعمان بن المنذر حيث يقول :

ستبلغ عُذراً أو نجاحاً مِن امرىء   إلى ربه رب البريّة راكع

وقال عديّ بن زيد :

وتفكَّرْ ربَّ الخورنق إذ أشْـ   رفَ يوماً وللهُدَى تفكيرُ

وجلالة حال الملوك ما سمى أهلُ اللغة الملِكَ رأساً ، إذ جعلوا محله من رعيّته محل الرأس من البدن ، وكل الأعضاء مُسخرّة له ومُهيّأة لحمله ، ولأنه لا بقاء

للجسد إلاّ به ، ولا قوام له إلاّ معه ، ولأنه العضو الذي فيه تجتمع الحواس ، والذي لا بقاء للحيوان إلا به ، ولا فرق بينه وبين الموات والجماد إلا من جهتها ، وهو معدن العقل والتمييز الذي فضل الله الانسان به على جميع الحيوان . وقال فيه الشاعر وهو يمدح حميد بن عبد الحميد :

والناس جسمٌ وإمام الهدى   رأس وأنت العين في الراس

وقال آخر :

لو صلح الراس واستقام إذن   قام على العدل كل أساس

وقال بعض الفضلاء من ملوك الهند في عهد له إلى ابنه : واعلم يا بنيّ أن وصيتي هذه إياك ، وعهدي هذا إليك بمثال رجل حي قائم ، فرأسه أنت أيها الوالي ، وقلبُه وزيرك ، ويدُاه أعوانك ، ورِجْلاه رعيّتك ، والروح الذي تقوم به عدالتك . فصُنْ هذا الرجل صيانتك نفسك ، واستصلح أوصاله كاستصلاحك أعضاء جسدك .

وجلالة شأن الملك ما سُمّي في الدين واللغة سلطاناً ، والسلطان في اللغة هو الحجة ، قال الله عز وجلّ : ﴿ أم لكم سلطانٌ مُبينٌ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين[1] ﴾ .

وقال : ﴿ لأُعَذّبنَّهُ عذاباً شديداً أو لأذْبحَنَّه أو ليأْتينّي بسلْطانٍ مُبينٍ ﴾[2] .

فجعل الله العادلين من الملوك حُجّة على خلْقه ، وكذلك ما صرفت الإمامية[3] ما روى عن النبي ﷺ أن الأرض لا تخلو من حجة إلى الإمام المعصوم الذي يدعونه ويلهجون بذكره .

(١) آية ١٥٦ ـ ١٥٧ الصافات .

(٢) آية ٢١ النمل .

(٣) الأمامية : طائفة من الشيعة يقولون باثني عشر إماماً آخرهم قائمهم .

أئمة الملوك هداية

وجلالة حال الملوك ما سمى المسلمون السلطان الأَجَلّ في الأسلام إماما ، لأنه ممن يجب ان يؤتمّ به ويُقتدى به في فعله ، ويؤتمر له بأمره . فهذه المعاني الجليلة مما تدل عليه الأسامي الشريفة التي خُصّت بها الملوك ، وإن كنا اخترنا أن نعبّر في كتابنا هذا عن هذه الأسامي كلها بالملك ، إذ هو الاسم الأشهر الأعم ، والأجزل الأمحض .

ومِن جلالة شأن الملوك وفضائلهم على الرعايا وطبقات النـاس أن كل من تحت يدي المَلِك مِن رعاياه ـ وإن كانوا مُناوِعيه في الصورة ومشابهيه في الخِلقة ، ولم يتكلف هو اقتناءهم ولا شراءَهم ـ فإن محلّهم منه في كثـير من الجهات محـل المملوكين . ولذلك ما قال الله ـ جلّ وعز ـ في قصة سبأ : ﴿ إني وجَدْتُ إمرأةً تَمْلِكُهم وأُوتِيَتْ مِن كل شيءٍ ولها عَرْشٌ عظيمٌ ﴾[1] . لأن « مَلَكَ يَمْـلِك » في أصل اللغة من المِلْك لا من المُلْك ، ولأنهم بأجمعهم ينقسمون قسمين ، بين من محلُّه منه محل المادة ، وبين مَن محلُّه منه محل الآلة فهو يستعملها في مادته على ما يريده ويهواه ، ويحبه ويراه ، ثم يخرج له صورة عمله على مقدار حذقه بالصناعة ، وإصابته في الغرض والنيّة .

طاعة الامام

هذا مع ما أخذ الله على كافة البشر مِن حُسْن الطاعة للإمام العادل والمِلك الفاضل ، وصدق المؤازرة والتعظيم له وترك الخلاف عليه ما أطاع الله ولزم فرائضه وحدوده ، فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا أَطِيعوا الله وأَطِيعوا الرسول وأُولي الأمرِ منكم ﴾[2] .

وقال النبي ﷺ : « أطيعوا الإمام ولَو كان عبداً حبشياً ما أطاع الله فيكم[3] .
وقال : من سعى إلى سلطانٍ ليذله أذلَّه الله » .

---

(١) آية ٢٣ النمل .
(٢) آية ٥٩ النساء .
(٣) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٩٣ .

فهذا قليل من كثير مما أبان اللهُ به مِن فضائل الملوك وعلوّ منازلهم ، وارتفاع مراتبهم ، وجلالة اقدارهم ، وبُعْد أخطارهم ، وجليل نعم الله عليهم ، وفنون أياديه لهم .

واجب الشكر

فالواجب في جميع أبواب القضايا ألاّ يكون أحدٌ أشكر لله وأحسنَ قياماً بأداء فرائضه وأوامره ، ورعاية لما استرعى ، وحفظاً لما استحفظ ، منهم . إذ كان هذا هو المعهود من أفعالهم بمن ملّكهم اللهُ أمورهم مِن عبيدهم وخَدَمِهم .

ولأنهم إذ ذكروا نعم الله ـ عز وجل ـ على أضعف خلْقه ، وإحسانه على أقل عبيده حظّاً مِن نعمه ، لم يجدوا لإحسان الخلق بعضهم إلى بعض في جنبه خطراً ، ولا بالاضافة إليه قدراً ، مع أنهم إذا أعطوهم أعطوهم مال غيرهم وديعة عندهم ، أو أشركوهم في سلطان منْ سواهم عارية في أيديهم ، بل أعطوهم سريع الزوال قريب الاضمحلال ، والذي ربما ضرهم ولم ينفعهم ، وربما يكون هلاكهم دُنيا وديناً ، وآخرة وأُولى .

ثم لم يرضوا مع ذلك منهم إلاّ أن يكون كل ما كانت نعمهم عليه أكثر ، وأياديهم لديه أظهر ، لهم أشكر ، وإلى طاعتهم أسرع ، ثم يكون أعظم عندهم بلاء ، وأحسن بحقوقهم قياماً ، وعلى أوامرهم ونواهيهم محافظة . ورأوا مع ذلك ان من قصرّ في شيء منه أو غيرّ أو بدّل ، أو كفر نعمة او غمط صنيعة كان قد استحق منهم المقت والحرمان والعقوبة والخذلان ، لا سيا من أصرّ على ذلك إصراراً ، وأتى المعصية جهاراً .

وهذا ميزان يجب على العاقل أن يزن كثيراً مما يقع بينه وبين خالقه به ، ومثالٌ ينبغي له ان يحتذى عليه .

وإذا كان هذا في الشاهد على ما ذكرنا ، ومعاملتهم مَن تحت أيديهم على ما بيّنّا ، وجب عليهم إذا ذكروا نعم الله عليهم وآلاءه لديهم في تفخيم شأنهم واعزاز

سلطانهم ، وتفويضه إليهم سياسة عباده ، وعمارة بلاده ، وندْبه إيّاهم الى ملك الأبد ، والنعيم السرمد ، مع عامّة نِعَمِه التي لا تحصى عدداً ، وخاصّها التي لا توصف عِظَماً ـ أن يخافوا عاقبة الكفران وجزاء العصيان .

هذا ومن الواجب على مَنْ يرغب في الزيادة ويطمع في الاهمال والمدة ، ويتمنى حُسْن التوفيق والمعونة في العاجل ، وحُسْن المثوبة في الآجل ، أن يدأب ويجتهد في الشكر والطاعة ، ويجتنب الكفور والمعصية ، فإن جزاء الشكور الأحسانُ والمزيد ، وجزاء الكفور العقابُ والتنكير والخذلانُ والتعيير .

هذا الذي يلزم العارفين بالله ، ويجب على المقرّين به والذاكرين لآلائه ، والمعترفين بحق كتابه وآياته ، فإن الله ـ عز وجلّ ـ يقول : ﴿ **لئن شَكَرْتم لأَزيدَنَّكم ولئن كفَرْتم إنَّ عَذابي لشديدٌ** ﴾(١) . ويقول : ﴿ **إنّ الله لا يُغيِّرُ ما بقَوْمٍ حتى يُغيّروا ما بأنفسِهم** ﴾(٢) . ويقول : ﴿ **وبدَّلْناهم بجنّتَيْهم جَنّتين ذَواتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ مِن سِدْرٍ قليل . ذلك جَزَيناهم بما كَفروا وهل نُجازي إلا الكفورَ** ﴾(٣) .

ثم ما يجب على الملِك من غير هذا الطريق أن يكون أشدّ الناس ترفعًا عن الدناءة ، وتنزُّها عن الخساسة وتعاليا عما يشين العِرض ويفسد المروءة ، ويؤذن بخراب المملكة ويُبقى قبح الأحدوثة ويخل بجلالة المكانة ورفع المنزلة . وأن يختار من السنن أشرفها وأعلاها ، ويرتاض من الأفعال بأرفعها وأسناها .

ثم يرتكب كثيراً من المؤلم المكروه ، ويجتنب كثيراً من الملذ المحبوب لينال السيرة التي تشاكل رُتْبَتَه ، وتُضاهي منزلته .

---

(١) آية ٧ ابراهيم .
(٢) آية ١١ الرعد .
(٣) آية ١٦ و١٧ من سورة سبأ .

وقد قال أردشير : اعلموا أن دولتكم تُؤْتَى من مكانين ـ أحدهما غلبة بعض الأمم المخالفة لكم ، والآخر فساد أدبكم .

تغليب العقل

ثم من الواجب على المِلِك الفاضل والسائس العادل ألاّ يكون على أحد من رعيّته ولا ممن في ضمن مملكته وجملة حاشيته ، في تحسين أدبه وقمع شهواته المفسدة الضارّة ، أقدر منه على نفسه . فإن عجز عن سياسة نفسه وتقويم أخلاقها ، كان خليقاً أن يكون عن تقويم غيره أعْجَز . ولا يكون الأنسان قادراً على نفسه ما لم يقدر على تغليب العقل على الطبع ، والرأي على الهوى ، بل يُحكم العقل على الطبع ليختار ما يدل عليه العقل على ما يميل إليه الطبع ، ويُؤثر ما يشير إليه الرأي على ما يصبو إليه الهوى ، ثم يقابل بمحاسنه مساوئه ، وبمحامده مذامَّه ، حتى يعوّد نفسه الأمور الفاضلة ، ويروضها الرياضة المحمودة ، ويكتسب الخلال التي تشاكل حاله ، والأفعالَ التي تشاكِه مرتبته [1] .

رياضة النفس

ولا يثقل هذا عليه في جنب ما يرومه من فضيلة العاجل والآجل ، ويقصد من تقديم الأجر وتخليد الذكر . فإن من المتقرر في العقول ، والمتمكن من النفوس ألاّ ينال المعالي الا بتجرع المكاره ، ولا يدرك أطراف الفضائل إلاّ بتحمل المشاق .

قال الله ـ جلّ وعز ـ : ﴿ **لن تنالوا البرَّ حتى تُنفِقوا مما تُحبّونَ** ﴾[2] . وقال : ﴿ **إنَّ اللهَ اشْتَرَى من المُؤْمنين أنفُسَهم وأَموالَهم بأَنّ لهم الجَنّةَ** ﴾[3]. وقال الرسول ﷺ : « حُفّت الجنةُ بالمكاره ، والنار بالشهوات »[4] .

وقال عمرو بن عبيد : لقد رُضْتُ نفسي رياضة لو أردتها على ترك الماء لتركته .

---

(١) تشاكه : تشابه وتناسب

(٢) آية ٩٢ آل غمران .

(٣) آية ١١١ التوبة

(٤) رواه مسلم وأبو داود والترموزي والنسائي واحمد في مسنده .

وقد كان غلب علي المأمون أمير المؤمنين شهوةُ الطين فكان يأكل منه الكثير ، واجتمع الأطباء يعالجونه بكل علاج ، ويحتالون له بكل حيلة ، فلم يصبر عنه ، فدخل عليه ثمامة بن الأشرس ورآهم عنده يتشاورون في أمره ويتآمرون في علاجه ، فقال : يا أمير المؤمنين فأين عزمةٌ مِن عزمات الخلافة ؟ فقال المأمون : قوموا فقد كفيتم العلاج ، ولم يَعُدْ إلى ذلك .

ولا شيء أغلب على قول ناقصي العقول والحزم من إفراط الحب عِشْقاً ، وقد قال فيه أحد من جرّبه وأكثر القول فيه والوصف له :

الحب ظهرٌ أنت راكبه ... فإذا صرّفْتَ عِنانَه انصرفا

وقال آخر :

قد عذّب الحبُّ هذا القلْبَ ما صلحا ... فلا تعُدَّنَ ذنبا أن يقال صحا
بقية فيّ تقوي الله باقية ... ولم أكن كحَريص لم يدع مرحا

وقال آخر :

لعمري لقد أوفيت همّي من الهوى ... على الشيب إلاّ أن مركبه صعبُ
فقاربْتُ حتى قيل لي هكذا الهوى ... وباعَدْتُ حتى قيل ما هكذا الصب
وإني لسَلْمٌ للهَوى غير أنني ... لنفسي فيما لا يجِل لها حرب

وقال آخر في المعنى الأول :

فإنّ عَليّاتِ الأمورِ مشوبةٌ ... بمستودعاتٍ في بطونِ الأساوِدِ

وقال آخر :

لن يبلــغ المجــدَ أقــوامٌ وإنْ كرُموا ... حتــى يذِلّــوا ـ وإن عزّوا ـ لأقوام
ويُشتَمــوا فتــرَى الألوانَ مُشرِقةً ... لا عفْــوَ ذُل ولــكنْ عفْــو احلام

وقال أحد الملوك : طِلابُ العُلا بركوب الغرر .

وقال أبو تمام في المعتصم يذكر مساعيه في غزو الروم ، وتحمُّله ما تحمّل من المشاق في فتح عمّورية :

خليفة اللــه كافــا اللــه سعيك عن ... جرثومـة الــدين والاســلام والحسبِ
بَصُرْتَ بالراحـة الكبــرى فلــم ترها ... تُنــال الاّ على جِسرٍ من التعب

فبـان بهـذه الأخبـار المأثـورة ، والآيات المسطـورة ، والأبيات السائـرة المشهورة ، أن الفضائل لا تدرك إلاّ بمجاهدة الطبع والحمل على البَدَن والنفس في قمع الشهوات الموبقة ، والأهواء المخلِقة للأعراض والأديان .

وإنّ أكثر ما يشق على الانسان تركُه وفراقه من الأفعال المذمومـة لحَاجـاتٌ وشهواتٌ منشؤها سوء العادات ، ومستولد مِن إمراج[1] النفس وإهمال الطبع .

وإن من أراد الانتقـال من مذمومهـا إلى محمودهـا ، ومِـن مُستقبَحهـا إلى مُستَحْسَنها كان منه ممكناً وعليه قادراً . ومن تعوّدَ الخير سَهُل عليه إتيانُه ، ومـن تعوّد الشر صعب عليه الانتزاع منه ، وما أحسن ما مدح به العطوي آل برمك حيث يقول فيهم :

إنّ البرامــكةَ الــكرامَ تعوّدوا ... فِعْــل الجميل فَعَــوَّدوه الناسا

(١) إمراج : مصدر أمرج ، أمرج الدابة تركها ترعى .

كانــوا إذا غرســوا سقــوا وإذا بَنوا   لــم يُوهِنــوا لبنائهــم آساسا
وإذا همُ صَنَعـوا الصنائـع في الوَرى   جَعَلــوا لهــا طولَ البقــاءِ لِباسا

وقال آخر :

تعــوّدْتُ مَسَّ الضر حتــى أَلِفْتُه   وأَسْلَمَنــي مرُّ الليالي الى الصبر
ووسّــعَ صدري للأذى كثــرةُ الأذى   وقـد كنــتُ أحيانـاً يضيقُ به صدْري

وكانت العرب تقول : الخير عادة ، والشر لجاجة . وتقول : العادة أملك بالأدب .

وقال كثير من الحكماء : العادة طبيعة خامسة .

وإذا كان هذا على ما بيّنّا فلا أحد أحق باختيار المحامد وتعوُّدها من الملِك ، لأنه لا يكون مؤدياً حق جلالته ، وعارفاً بفضل منزلتـه ، حتـى يتـرك كثـيراً من شهوات النفس ولذات البدن في جنب الفضائل التي يجب عليه حيازتها ، فيختار الشكر على الكفر ، والتديّن على التهتـك ، والعلـم على الجهـل ، والعقـل على الحمق ، والشجاعة على الجبـن ، والجـود على البخـل ، والصبـر على الجـزع ، والحمَد على الذم ، والحِلْم على الطيش ، والرزانـة على الخفـة ، والصـدق على الكذب ، والتواضع على التكبّر ، والعدل على الجوْر ، والصوابَ على الخطـأ ، والحزم على التهوّر ، وأمثالها .

فإن لكل شيء من المذامّ ثمرة مذمومـة ، ولـكل شيء من المحامـد عاقبـة محمودة ، فيجب على من أحب الخير ألاّ يفعل إلاّ الخير ، ومَن كرِه الشر أن يتجنب الشر . مع أن من ارتكب المخازي من الأمراء ، والمذامّ من الملوك كان في مُلْكه كالمزوّق المفتعل ، وكالمستعار المموّه ، وحَق الملك الفاضـل أن يترفـع عن هذه

الدنّية ، ويتنكّب[1] هذه الرذيلة ، ولا يرضى أن يكون حظه من جلالته أن يسمّى بالاسم الحسن الشريف ، ويشتهر بالفعل السيء القبيح ، فإنه إذا فعل ذلك كان كالمتشبّع بما لا يملك ، وكلابس ثوبيْ زور . فما أبلغ في هذا المعنى قول القائل حيث يقول :

إذا ركبوا[2] الأعوادَ قالوا فأحْسَنوا   وما خيرُ قولٍ لا يصدّقه فِعْلُ

ولقد بلغنا أن عبد الملك بن مروان خطب يوماً بمكة ، فلما صار إلى موضع العظة قام إليه رجل من الصوحان ، فقال : مهلاً مهلاً إنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ! أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا فأين وكيف وما الحجة ؟ ومن النصير من الله في الاقتداء بسيرة الظلمة الجَوَرَة الذين أكلوا أموال الناس دُوَلاً ، وجعلوا عباد الله خَوَلاً .

موافقة العمل للقول

وإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح غيره من يغشّ نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عدالته ؟ .

وإنْ قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممّن سمعتموها ، فعلام قلّدْناكم أزمّةَ أمورنا ؟ وحكّمناكم في دمائنا وأموالنا ؟ أما علِمْتُم أنّ فينا من هو أفصح بفنون العظات ، وأعْرَفُ بوجوه اللغات منكم ؟ فتلحلحوا عنها لهم ، وإلاّ فاطلقوا عقالها وخلّوا سبيلها ، يبتدرْ إليها الذين شردتموهم في البلاد ونقلتموهم في كل واد .

أما لئن بقيتْ في أيديكم لانقضاء المدة وبلوغ الغاية ، فإنّ لكل قائم يوماً لا

---

(١) يتنكب : يجتنب .

(٢) ركبوا الأعواد : اعتلوا المنابر ليخطبوا في الناس .

يَعْدُوه ، وكتاباً بعْدَه يتلوه   لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلبٍ ينقلبون .

القدوة الحسنة

ومما وجد في كتاب شهامة الملوك : ليكن عملك أحسن من قولك ، فإن حسن القول مفرداً أغرى به ، وحسن العمل إفراد البغية .

ولقد قرأنا في عهد لبعض ملوك الهند إلى ابن له : لا يريك رأيك انك إذا أحسَنْتَ القول دون الفعل فقد أبلغْتَ إلى السامعين منك دون أنْ يصدّق قولك فعلُك ، ويحُقق سرِّكَ علانيتك .

وقال زعيم الهند الذي يدعى « البُدّ » ، : لن يبلغ ألْف رجل من إصلاح رجل واحد ـ بحسن القول دون حسن الفعل ـ ما يبلغ رجلٌ واحدٌ مِن إصلاح ألف رجل بحُسْن الفِعل .

وقد كان أمير المؤمنين عليّ رضى الله عنه يتعوذ بالله من ألْسِنَةٍ تصِف ، وقلوب تعرف وأعمالٍ تخالف .

ولقد افتتح بهذه المعاني أو عامتها سابورُ بن أردشير الملك عَهْدَه الجليل الخطر العظيم القدر في بابه إلى ابنه حيث قال : أمّا بعد فإنك قد وليت أمراً لا يفوقه أمرٌ مِن أمور الدنيا ، وبلَغْتَ غايةً ليس وراءها مجازٌ لأحدٍ من الناس ، فاسْمُ بنفسك الى ما يلائم الخطرَ الذي أصبحْتَ عليه من خصال الفضل ، وتمسَّكْ مِن العدل بعصمة ، يَصِلْ لك ما أنت فيه من غضارة العيش وزهرته بالنعيم الذي لا زوال له ولا انقلاب ، ويبقى لك حُسْن الأحدوثة إذا ودّعْت ما أنت بسبيله ، فإنك مورث ما أنت فيه ومسلوبه ، وخارجٌ منه إلى ثواب ما تُقدِّمُ لنفسك ، أو عقابه .

ووجدْنا لبعض الحكماء من ملوك الهند في عهده إلى ابنه : يا بُنيّ ، إني قد ولّيْتُكَ مِنْ الأمر جسيماً ، فخذْ له تنلْه ، واقْبله بقبوله ، ولا تكونن مسروراً إن كان

منك لعاجل يقع ولا لنيل شهوة ، فإن ذلك أوخم ما أنت نائل منه ، وأذلّ ما أنت مصيب به ، فإن نازعتْكَ شهوتك إلى هذه الأمور فاتّهمْها أشدَّ الاتهام ، وغالِبْها أشدّ المغالبة ، فإن أظفَرَكَ الله بها رفع عنك شرَّها .

فليكن فرحُك بذلك أشدَّ من فرحك بمن ظفرتَ به مِنْ أعدائك ، فإن فضْل ما أنت تاركه لله من هواك على ما أنت مصيب من لذة سروره كفضل ثواب الله لأهل الجنة على ما قسّم للناس من معايشهم في الدنيا .

ولقد أوجز عمرو بن عبيد حيث قال لأبي جعفر المنصور : إنّ الله لم يرْضَ أن يكون أحدٌ من الناس فوقك ، فلا ترْضَ أن يكون أحدٌ أشكر له منك .

فضل الملك

ومما يجب على الملك أن يكون ما فيه مِن الفضل والشرف في أفعاله وخصاله وعقلِه وكمالِه ، موازيا لكل نقصان في رعيته ، لأنه إنما استُرعيها ليرعاها ، واستُحْفِظها ليحفظها ، وليسد خلّتها ، ويجبر فاقتها ، ويدفع نقصان منقوصها ، ويسترعَيْب معيبها ، ويقيم مُتأوّدها[1] ويذبّ عن حريمها ، وينصف مظلومها من ظالمها ، ويحْملها على شرائع دينها وفرائض ملّتها وحدودها وأحكامها .

وإذا كان هذا هكذا فكيف يكون سائسُها الناقصَ الجاهلَ ، والظالم الغاشمَ ، أو المتهتك المضيّع ، ومَنْ يكون في رعيّته مَن هو أجْمَعُ لخصال الخير واحرزُ لأسباب الفضل منه ؟ .

فكيف ينقاد له الفاضل المتديّن ، والعدلُ المتثبت إلاّ قسْراً واضطهاداً ، أو جَبْراً واضطراراً ، يتوقع زوال المحنة عنه بزواله ودفع الظلم عنه بارتفاعه .

وإذا كان هذا هكذا كان ذوو الفضل من رعيّته أعداءه ، وذوو الفضائل

---

(١) المتأوّد : المعوجّ .

من أهل ولايته أعواناً عليه . وأخْلِق بمثل هذا المُلْك أن يكون سريع الزوال وشيك الاضمحلال .

وقد قال أردشير الملك في عهده : اعلموا أنّ قتالكم الأعداء من الأمم قبْل قتالكم سوء الأدب من أنفس رعيّتكم - ليس بحفظٍ ولكنه إضاعة ، وكيف يجاهَدُ العدوُّ بقلوب مختلفة وأيْد متعادية .

وقال في فصل آخر : اعلموا أنه ليس للملِك أن يبخل ، لأنه لا يُقْدَر على استكراهه ، وليس له أن يغضب ، لأن الغضب والقدرة لقاح الشرّ والندامة ، وليس له أن يلعب ولا يعبث لأن اللعب والعبث من عمل الفرّاغ ، وليس له أن يفرغ ، لأن الفراغ من أمر السوقة ، وليس له أن يحسد إلاّ ملوك الأمم على حُسْن التدبير ، وليس له أن يخاف ، لأن الخوف من المعوز وليس له ان يتسلط إن هو أعوز .

وقال الاسكندر الحكيم : من عجز عن تقويم نفسه فلا يلومَنّ [مَن[1]] لا يستقيم له .

قال ودخل أسقف نجران على مصعب بن الزبير فكلّمهُ بشيء بغضب ، فضرب وجهه بالقضيب وأدماه ،فقال له الأسقف : إن شاء الأمير أخبرتُه بما أنزل الله على لسان عيسى ، ولا يغضب ، فقال : قل . قال : نجد في التوراة « لا ينبغي للأمام أنْ يكون سفيها ومنه يُلتمس الحكم ، ولا جائراً ومنه يُلتمس العدل» .

وفيما كتب به أرسطاطاليس إلى الاسكندر : وقد يجب على الملِك أن يختصّ بأحسن الخواص ، وذلك أنه عَلَم مشارٌ إليه ، وغرض يُقصد نحوه ، والآفة

---

(١) مَن : ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

الصغرى في الملك مقدارها غير صغير ، وكذلك الفضيلة في الملك أضوأ وأطرى[1] وأكثر مقداراً .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لا بُدَّ للشّاةِ مِن راعٍ يُدبّرها ... فكيف بالناس إن كانوا بلا والي
وإن أضيف الى الأذناب أمرُهمُ ... دُونَ الرؤوس فهم في حالِ إهمالِ

وقال آخر[2] :

لا يصلح الناس فوضى لا سَرَاةَ لهم ... ولا سراة إذا جُهّالُهم سادوا

وكذلك ما قال بعض الشعراء في بعض الملوك ورآه ركيكا متخلّفا :

خيارهم ناموا عن المكرُمات ... فبهمُهم قدَرٌ لم يَنَمْ
فيا قُبْحهم في الذي خوّلوا ... ويا حُسْنَهم في زوال النعمْ

وقال آخر :

إذا لم يكنْ صدرَ المجالس سيدٌ ... فلا خير فيمن صَدّرتْه المجالسُ
وكم قائلٍ مالي رأيتُك راجلاً ... فقلتُ له مِن أجْلِ أنّك فارسُ

وروى الأعمش عن شقيق بن سلمة أنه قالَ له : يا أبا سليمان واللهِ ما عند هؤلاء واحدة من ثنتين ، ما عندهم تقوى أهْلِ الأسلام ، ولا احلام أهْلِ

---

(١) أطرى : من الإطراء وهو المدح .
(٢) هو الأفوه الأودي ، واسمه صلاءة بن عمرو ، من مذحج ، وكنينة أبو ربيعة ، له ترجمة في الأغاني ١١/ ٤١ و٤٣ .

الجاهلية ، فكيف يُعظِّم العلماء والحكماء من كان محلُّه عندهم هذه المحال الموصوفة إلاّ ضرورة واقتساراً .

وإذ قد وفّيْنا هذا الباب حقّه من الخطاب ، ودلّلنا عليه على ما ذكرناه وأخبرنا به من كتاب الله وسُنّة رسوله وشواهد العقول وآثار الحكماء ، فنحن خاتموها وصائرون إلى الباب الذي يتلوه في ترتيب أبواب الكتاب ، لنقول فيه ما يحضرنا ، بعون الله وتوفيقه .

***

الباب الثالث

الإبانة عن الأسباب التي من جهتها يعرض الاختلال والفساد في الممالك وفي أحوال الملوك

نقول إن أحوال الأمم المعروفة أخبارها ، والممالك المشهورة آثارها ، والملوك المنقولة إلينا أوائل أيامها وأواخرها متقاربة متشابهة ، ولذلك ما روى عن نبينا ـ ﷺ فيما وصف به حال أمته : « لتتبعُن سنَن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل ، حتى لو كان فيهم من دخل جُحر ضب لدخلتموه »[1] . وإن كان الله قد خص هذه الأمة بوجود الحق فيها إلى يوم القيامة ، وجعل إجماعها حجة على مواضع اختلافها ما بقيت ، ووعدها النصر والتأييد إلى آخر الزمان .

الدين أساس الملك.

وكان مما جرت عليه أمور العالم واستمرت عليه أنه لم تكن مملكة إلاّ كان أسُّها ديانة ، ولم تكن ديانة قديمة ولا حديثة إلاّ كان [فيها دعوة إلى عبادة][2] الله ـ جلّ وعز ـ وتوحيده والترغيب فيما عنده للمطيعين المتديّنين من جزيل الثواب وكريم المآب ، والحث على التزود الى دار القرار والبقاء ، والتزهد في دار النقلة والفناء حتى إذا خرج الآتي بشريعتها ، والواضع لأركان ملّتها ـ حقاً كان ذلك أم باطلاً ـ من بينها ، وقع الأختلاف فيما بين أمته ، والتنازع في أهل مِلّته ، فربما كان ذلك منافسة في الرياسة ، وربما كان مخالفة في الدين .

(١) رواه البخاري في الاعتصام ، ومسلم في العلم ، واحمد في المسند ٣/ ٨٤ .
(٢) توجد هنا بقعة حبر في المخطوطة غطت بضع كلمات . وما وضعناه مكانها يناسب السياق .

ثم لا يزال اختلافهم يحملهم على التعصب ، ويؤديهم الى التحزب ، ولا تزال الأيام تتابع والأمد يطول ، حتى تبعد بأصل الدين عهودُهم ، وينسوا كثيراً مما ذكّروا به .

زهرة الدنيا

وربما فتحت عليهم خزائن الدنيا فمالوا إليها ، حتى صارت مملكتهم على مر الأيام دنيا تيه تتداولها أيدي أبنائها، وسياستهم شهوانية تشح عليها أنفس طلابها، ويتعادى عليها أربابها ، كما قد روي ذلك عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه لما أُتي بغنائم القادسية جعل يتصفحها وينظر إليها ويبكي ،فقال له عبد الرحمن ابن عوف : يا أمير المؤمنين هذا يوم فرح وسرور ، فقال : أجل ولكن ما أُوتي هذا قوم قط إلاّ أورثهم العداوة والبغضاء .

ثم ربما جعل الملوك ممالكهم وراثة منهم يرثها الأخلافُ الاسلافَ، والأبناء الآباء والأصاغرُ الأكابرَ ، يعهد بعضهم إلى ولده من غير امتحان له في عقله ، ولا معرفة منه بفضله ، ولا وقوف على عِلْمه بأمور الديانة التي هي أصل المملكة واسّها ، ولا استقلال بأسباب المُلْك التي هي فروعها وحراسها .

فإذا وقع فيها الغِرُّ الممتحن بسُكْر الشباب والثروة ، وسُكر العز والمملكة والفراغ والقدرة ، ورأى أن ليس فوقه يدٌ قابضة ، ولا عينٌ راقبة ، ولا قوة قاهرة ـ أمِن حوادث الزمان واغترّ بمساعدة الأيام ، ولم يُذكّره الأمنُ الخوف ، ولا العزّ الذلّ ، ولا الغِنَى الفقرَ ، ولا الظفرُ الخيبة ، فخال الدنيا كلها سروراً بحتاً ، ولذة صرفا ، فاتبع فيها اللذات ، وآثر فيها الشهوات ، ونسي ما صنع الله بمن كان قبْله من أمثاله ممن هو أشدّ منه قوة وأكثر جمعاً ، وعمي عما يشاهده في أيامه وساعاته من حوادث الزمان ونوائب الليالي والأيام ، ولم يذكر ما قاله الملوك الأولون « من تاه في ولايته ذَلّ في عزه» .

عاقبة الترف

وإذا صار كذلك صارت همته من الملك التمتعَ حلالا كان أو حراما ،وبغيته

من المقدرة التطاول والتسلط حقاً أم باطلاً ، وأعرض عن أحكام الدنيا جانباً ، وضرب عن حدود السياسة صفحاً ، وصارت سياسته عبثاً ، ورعايته لهواً ، ثم خلف ذلك في عقبه ميراثاً ، وفي أتْباعه سُنّةً .

وعند ذلك يكثر في رعيّته الظالم والمظلوم والغاشم والمغشوم واقتدوا بملوكهم في إمراج النفس[1] في لذّاتها ، وإتيانها هواها من الشهوات الحيوانية الصادّة عن مواجب العقول .

وتفرقت عنه الأهواء ، واختلفت فيه الآراء . فأمّا أبناء الدنيا والمؤْثِرون لها والحرصاء عليها فتقرّبوا الى الملوك بالنصائح التي لهم شطرُها والمشورات التي لهم ثمرتها ، فكثر عند ذلك وزراء السوء أعوانُ الظَّلَمة ، فجرّعوهم الغش في طعم النصح ، وأروهم الضلال في صورة الهدى ، وعرضوا عليهم الغيّ في معارض الرشد ، وحجبوهم عن النصحاء الحكماء ، وحالوا بينهم وبين العلماء الفُضلاء ، فضَلّوا وأضلّوا ، وهلكوا وأهلكوا .

وإذا كانوا كذلك صار الحكماء والعلماء والبُصراء بالعيوب في صُوَرها والمذامّ بأعيانها ، بين ذليل مقموع ، ومطرود محجوب ، ومِن بين متحرج تمنعه ديانته عن إتيانه ، وحكيم يترفع عن صحبته ، وخائف يرى أنه إن واجهه فيما فيه صلاحُه ونصحُه ، وقابله بما فيه نجاته ورشده ، عاقبه عليه أشدّ العقاب ، وعذّبه آلم العذاب ، لأن الحق مُرّ ، ونصح من ينهى عن الهوى ثقيل إلاّ على العاقل الكامل والحازم الفاضل .

وكثير من هذه الأبواب قد نال ملوكَ زمانِنا هذا من أهل مِلّتنا ، وولاة أهل قِبْلتنا . فهذه كلها أبواب الفساد التي تعرض من جهة حب الرياسات والشهوات والتشاح[2] عليها .

---

(١) امراج النفس : تركها وتخليتها كالدابة تترك ترعى ما شاءت .

(٢) التشاح : الحرص الشديد .

العمل بالقرآن

وأمّا الباب الذي طريقُه طريقُ الدين خاصّة ، فهو أن كلام كل كتاب وأخبار كل نبي لا تخلو من احتمال تأويلات مختلفة لأن ذلك موجود في الكلام بنفس طباعه . ومعلوم أن الكلام كلما كان أفصح وأعرب وأحسن نظما وأبعد مخرجا كان أشد احتمالا لفنون التأويلات وضروب التفاسير . ولا كلام أولى بهذه الصفات من كلام الله ـ جل ذكره ـ إذ كان أفصح الكلام وأوجزه وأكثره رموزاً ، وأجمعه للمعاني الكثيرة والأحرف اليسيرة ، وكان كتابنا الذي هو القرآن أولى الكتب وأخصّها بهذه المعاني إذ كانت اللغةُ التي أنزله الله بها أفصحَ اللغات ، وكان كتابا جعل نظمه حجة على قومه ، وعلما لنبيه ﷺ ولا بد في الدين من وقوع الحوادث التي يحتاج الى النظر فيها ، والنوازل التي لا يستغني العلماء عن استخراجها ، وعن خبر يُشْكل معناه ، وأثرٍ تختلف التأويلات في فحواه على مر الأيام .

فاذا دفعوا اليه اختلفت الآراء في المسائل ، وتفرقت الأهواء في النوازل ، وصار لكل رأي تبعٌ ومتشرعون وأئمة ومؤتمون ، ثم مع طول الزمان ازداد لها أنصار ومتعصبون وأعوان ومحامون ، فكان سبباً لاختلاف الأمم وانشقاق عصاها .

آفة النفاق

ولا يخلو دين من الأديان ولا ملة من الملل من منافقين فيها ومعادِينَ لها ، فإذا وجدوها مختلفة متباينة متعادية أظهروا مكايدهم المضمرة ومطاعنهم المكنونة ، فدسّوها في مذاهبهم واخترعوا اختراعات كاذبة فوضعوها في أخبارهم ، فافتتنت بذلك عوامّهم ، وفسدت أغمارهم ، ثم قصدوا الملوك ـ وهم أخلى من علم الدنيا ، أعراض عن أصول الشريعة ، مترفون منعمون ، أهواؤهم التمتع باللذات ، وآمالهم مصروفة إلى نيل الشهوات ، وهمهم الحرية والخلاعة والمروق عن الطاعة ـ فزيّنوا عندهم الملاهي والملاعب ، وحرضوهم على استعمال المزاهر والمعازف ؛ والقوا اليهم ما يشين العِرض ويُخْلق المروءة ويفسد المملكة ، ويميت الديانة ويخالف بين أهواء الرعية ويغير أمارات الشريعة ، فقبلوها منهم لما وافق أهواءهم من الاستخفاف بالدين وطرح ثقله .

فإذا صار أمر الملوك ـ وهم من يقتدى بأفعالهم ، وتقتفى آثارهم في سيرهم ـ كذلك جرى عليه خُواصُّهم وخدَمُهم ، ولكل خاص خاص ، ولكل مُقتدٍ مُقتدًى به ، فعند ذلك تختلف السيوف لأن أهل الأديان يعتقدون الخروج على الملك وأتباعِه والسلطانِ وأشياعِه ، ويستحلّون إزالةَ يده ، وأهل الدنيا لا يرعون له حقاً ولا يعرفون فيه منقبة لا يبلغونها بالتقدير في أنفسهم ، ولا يوجبون له طاعة تلزمهم ، بل يرون أن الملك صار من عزّ بزّ ، ومن غلب سلب ، فيكثر لذلك الخوارج وتخرب الممالك ، وتفسد الرعايا وتشيع المعاصي والفواحش وتكثر المؤن ، واحتاج الملك العدد الكثير والعدة الوافرة ، ثم ربما ضاقت أموال المملكة عن مؤن الأعوان والحاشية ، فأدى ذلك الى شغب الجند وتحزُّب آراء الأعوان ، ولا يبالي الملك أن يجحف بالرعية ، ولا تبالي الرعيّةُ أن تُعين عليه ، فإن أطاعت أطاعت مقسورة مقهورة ، وإن اضطربت وغلت كانت عند الله وعند أهل الدين والعقل والرأي والفضل معذورة ، وعند أنفُسها مشكورة مغفورة . وإذن زادَ ما يُطمِع في الملك أعداءه ويرغب في إبطال الدين مخالفوه .

وعلى هذا جَرَتْ أحوالُ أُمتنا مع نبينا ﷺ وبعده ، فإن خلفاءه الراشدين كانوا لا يروْن الخلافة الا لإحياء الدين ، ولا الإمارة إلا لصلاح المسلمين ، وكانوا أهل رأفةٍ بالمؤمنين ، سيرتهم العدل ، وقولهم الفصل ، وقضاؤهم الحق ، وكلامهم الصدق ، وقد لبسوا المسوحَ والصوف ، وجرّدوا السيوف يضربون بها وجوه الكفار ، وأخذوا السياط يقمحون بها رؤوس الفجّار ، حتى فتحوا الفتوح وهزموا الجيوش ، وقهروا الجبابرة وقتلوا الفراعنة ، وأظهروا نور الحق في المغرب والمشرق ، ظاهرهم الخشوع وباطنهم الخضوع لله ، وبُغْيتُهم الآخرة والاستخفاف بالدنيا ، جعلوها تحت أقدامهم إذ عرفوها حقَّ معرفتها ، ووضعوها في منزلتها ، كقول النبي ﷺ « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما

سيرة السلف

سقى منها كافراً شربة »[1] . وقوله حين مر بمزبلة « من سره ان ينظر إلى الدنيا بحذافيرها فلينظر إلى هذه » .

ومر بشاة ميتة ملقاة في مزبلة فقال : ما ترون هذه هانت على أهلها حتى رموا بها ؟ للدنيا على الله أهونُ من هذه على أهلها[2] .

وكان عمر بن الخطاب يقول لعماله ؛ إنا لا نولّيكم على أشعار المسلمين ولا على ابشارهم ، وانما نوليكم لتقيموا فيهم الصلاة وتعلموهم العلم والقرآن .

وقال النبي ﷺ لعامل وقد رجع من ولايته بشيء طفيف ، فقال : هذا أهدِي إليّ : « ما بال[3] أحدكم إذا وليناه أمراً من أمور المسلمين أن يقول هذا لكم وهذا أهدي إلي ؟ ألا جلس في حفش[4] أمه فنظر هل يهدى إليه » .

حتى خلف من بعدهم خلف رغبوا في الدنيا وآثروها ، وسعوْا لها وقدّموها ، وتنعموا فيها واتخذوا مال الله دُوَلا ، وعباد الله خَوَلاً ، وتركوا رعاياهم هَمَلاً إلا مَن عصم الله منهم .

فهذه الخلال التي ذكرناها في هذا الباب هي التي تخرب الممالك وتُفْسدُ الأديانَ ، وتطمع الأعداءَ في الملوك ، وتخالف بين السيوف ، قد عددناها وذكرناها ، ولكل داء من هذه الأدواء دواء يُستشفى به ، ولكل فسادٍ وجه صلاح يُؤتى به وباب تحرّز لمن أراد التحرز والاحتياط لمن مال الى التوفيق .

أما ما ذكرنا من بعد عهد النبي ﷺ وأصحابه الصالحين في صدر أمته ،

---

(١) رواه الترمذي في الزهد .

(٢) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة في الزهد ، والدارمي في الرقاق . وأحمد في مسنده ١/ ٣٢٩ .

(٣) رواه مسلم في الإمارة .

(٤) حفش : الحفش بكسر الحاء وسكون الفاء : البيت الصغير من الشعر .

حتى تأدي ذلك الى قساوة القلوب والاغترار بالدنيا والانخداع بها ، فإن أخبارهم غضة طرية وإن بَليتْ أجسادهم ، وآثارهم حاضرة عتيدة وإن غابت أعيانهم .

واجب الحزم

فينبغي للملك الحازم والسائس الصارم أن يتعهد قلبه بسماع آثارهم وقراءة سيرهم وأخبارهم وهديهم ، ويتفكر فيما أقام اللهُ ـ جل وعز ـ من دلائله الواعظة وأعلامه المشاهدة في أرضه وسمائه ، وفيمن كان قبله من الملوك الماضية ، ليعرف بذلك حاله ويرى نفسه ، فإنها قائمة نصب عينه تخاطبه وإن لم تنطق ، وتعظه وإن لم تُسمع .

وسنفرد للمواعظ باباً على اثر هذا ، ونذكر فيه ما نظنّه نافعاً كافياً إن شاء الله .

مدافعة ذوي الأهواء

وأما دفع مضرة أصحاب الأهواء والطاعنين في الدين ، والخادعين عنها بالحيل الغارة والأباطيل الخادعة ، فإن التحرز منه يكون بالنظر في كلام المتكلمين الذابين عن أصول الدين ، المتدربين بمناظرة الملحدين والمخالفين ، والجمع بينهم والسماع منهم ، والاستماع لتأويل الآثار وتفسير الأخبار ومعاني الآي ، فإن من نظر في هذه المعاني عرف فضل علوم الإسلام على سائر العلوم ، وقوة هذا الدين على سائر الأديان ، وفضل هذه الشريعة في الحُسْن والقوة على كل شريعة ومِلّة أنتسبت إليها أُمّةٌ ، واعْتَزَت[1] إليها فِرقةٌ .

فإن لم يحضر المتكلم الحاذق والعالم الصادق ، فليقرأ كتبهم المؤلّفة في تأييد الدين وإظهار محاسنه والتأويلات وعلل الأخبار ، وليصرفْ بعض أوقات الفراغ في الخلوة إليها ، فإن ذلك لا يُعْوِز الملك إن أراده ، ولا يفوته إذا طلبه .

وأما غلبة وزراء السوء وطلاب الدنيا على الملك ، ونفور الحكماء والعقلاء

---

(١) اعتزت : من الفعل اعتزى بمعنى انتسب ويكون ذكرها من باب الترادف للتوكيد .

منه فإن وجه التحرز منهم إظهارُ الأمانة والعفة والعدل في الرعية والشفقة عليها والرأفة بها وفتح أبواب النصائح فيها، فإنه إذا فعل ذلك أظهر كلٌ منهم ما يوافق ميل مَلِكه ويقارب رأي رئيسه ، مؤمناً كان أو منافقاً ، مخلصاً كان أو مُرائياً . وأقبل عليه أهل الدين والحكمة والأمانة والخشية والصدق في النية إقبالاً ، فأتوه اجفالاً[1] ، وأشاروا عليه بالحق وهدوه الى الرشاد ، ونهوه عن الفساد ، وأهدوا إليه النصائح ، وثنوه عن القبائح ، فإن السلطان سوق وإنما يجُلب إلى كل سوق ما ينفق فيه .

وأما التحرز من اختلاف قلوب الرعيّة ، وتفرق أهواء العامّة من جهة الدين ، فإن وجه التدبير فيه والترتيب على منازل مختلفة : منها ـ أن يحمل الناس على ترك الخوض فيما يؤديهّم إلى التفرق ، ويدعو بهم إلى التحزُّب ، فإنّ ذلك هو أمْر الله الذي أمر به عباده ،وسُنّة رسوله التي أكدها عليهم ،وسياسة الملوك الحزَمةِ مِن قبله . قال الله جل وعز : ﴿ واعتصِموا بحَبْل اللهِ جميعاً ولا تَفرَّقوا واذكرُوا نِعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أَعداءً فألَّفَ بيْن قلوبكم فأَصْبحتم بِنعمتِه إخْوانًا ﴾[2] .

وقال : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واخْتلَفوا مِن بَعْد ما جاءَهم البيّناتُ وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ ﴾[3] .

وقال : ﴿ وأنّ هذا صِراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبِعوا السبُّلَ فتفرَّقَ بكم عن سبيلِه ﴾[4] .

في آي كثيرة ينهاهم فيها عن التفرق والتحزب .

---

(١) أتوه اجفالا : أي مسرعين .
(٢) آية ١٠٣ آل عمران .
(٣) آية ١٠٥ آل عمران .
(٤) آية ١٥٣ الأنعام .

وقال النبي ﷺ « رَحِم الله من تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا »[1] وقال : « لا تختلفوا في الصفوف فتختلف قلوبكم »[2] .

وقال أبو بكر الصديق ـ رحمة الله عليه ـ لسلمان الفارسي في كلام ـ وهو فيه مُحِقٌّ ـ دَعِ الكلامَ فإني أخاف أن يختلف أصحابُ رسول الله ﷺ .

في أمثال كثيرة من أمثال هذا .

قطع الاختلاف

والتدبيرُ المحكم في قطع سبب الاختلاف والحيلة فيه اولا ـ أن يتلو فيهم الآيات والآثار التي أمر فيها بالائتلاف ونهي عن التفرق والاختلاف ثم يؤدب نفسه ، ويؤنب ويُعزِّر ويعاقب من أحْدَثَ بدعةً أو ألْحَدَ في سُنّةٍ .

فإن لم يتهيأ ذلك وكان الاختلاف والتفرق قد سبق عُمْر بعض الملوك وتقدّم أيامه ، فالوجه الا يدعَ مُحْدَثة تَحَدُثُ في أيامه ، ولا سيما إذا كانت مخالفة لظاهر الشريعة وأصل الملة ، ويدبر فيه التدبير الأول .

فإن لم يتهيأ ذلك إذ هو متعذر عسير قد تكلّفه من كان قبلنا من الملوك الحزمة المعْنِيِّين بأمورِ الدين والمُلْك ، واجتهدوا فيه فلم يتهيأ لهم ما أرادوا ، وتعذّر عليهم من ذلك ما راموا به ، فإنّ فيه وجهين : أحدهما ـ الرغبة في الآخرة محضاً ، وصرْف الهمة إليه صرْفاً ، وطلب ما عند الله للمخلصين في دينه ، والمجتهدين في إدراك حقه .

فإذا اختار ذلك بالنظر العدل وسماع الأقاويل حتى يصح عنده الحق فيما اختلفت فيه الأمة ، ثم دعوة الناس والتلطف لبثه ونشره بالتقريب على مذهب الحق واعانة الدُّعاةِ إليه والناظرين فيه ، والحِسْبة في كل ما يجري على يده من ذلك ـ

(١) رواه أبو داود في الأدب ٧ والترمذي في البر ٥٨ . وابن ماجة في المقدمة ٧ .
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والدارمي في الصلاة .

فإن فيه الأجر العظيم والثواب الجزيل الكريم ، وهو طريق الأنبياء عليهم السلام وسبيل الأولياء والصالحين والأئمة الراشدين من أهل دعوتنا ومن كان قبلنا .

ولا ييأسْ فاعلُ ذلك ومُقدّم النية فيه مِن توفيق الله ومتابعة عِصْمته إليه ونُصْرته على مخالِفيه ، فيجتمع له الدين والدنيا .

والثاني ـ أن يعتقد الحقّ ، ويظهر جملة ما اجتمع إليه أهل مِلّته ، واتفقت عليه أَلْسُنُ أهلِ دعوته ، ويجتهد في معرفة ذلك على اليقين والصحة ، ثم قام بالشرائع وانفذ الأحكام ، وبَسَطَ العدل والإحسان ، ونفى الجور والعدوان .

ولا يتعرض لشيء مما اختلف الناس فيه بعد معرفة الجملة ، إذ لا مطمع في جمع أهواء الناس على رأي واحد ، سيماً بعد تقدُّم المُدد الطويلة ، وتتابع الأزمنة المتراخية ، وسبق وقوع الاختلاف .

حسم أطماع العدو

وأما الحيلة في حسْم أطماع العدّو منه فمن جهات :

أولها وأقربها ـ هو الذي قدّمْنا من إئتلاف قلوب الرعيّة وجمع كلمتهم بالعدل والإنصاف والفضل والإحسان ، وعمارة المملكة بهذه الأسباب ، واستيفاء الخراج والغَلاّت مِن هذه الوجوه .

والثانية ـ التنظف عن المطامع الدنيئة والأخلاق الذميمة واتباع الشهوات والاستهتار باللذات ، ولا سيما مما حرّم الله ونهى عنه . والسمّو إلى نيل الفضائل ودرْك المناقب من العلم والدين والعدل والرفق وسائر خصال الفضل ، فإن هذه مراتب من نظر فيها وفكّر في مَغبتها ، ورأى نفسه عن سمْتها غفلا ، وعن حليها عُطلا ، لم تطمع نفسه ، وخاف الدنو منها .

ثم حُسن التدبير في الأمور ، واستشارة ذوي الألباب والرأي والتجارب ، فقد قيل ، كايدْ عدوَّكَ بإصلاح عيوبك .

وبهذا كتب أرسطا طاليس إلى الإسكندر : أَصْلح مِن نفسِكَ مَن يردُّ الرعيّة إلى إيجاب الحق لك ، واظهر الفضائلَ والأدبَ في رعيتك فإنها تنمي رعيتك وتذل أعداءك ومَن ناوأك .

وقال : أَصلح نفسَك بنفسك تكن الناس تبعاً لك .

تم جمعُ الجنود المختارين والحاشية المنتخبين المتدرّبين بالوقائع والحروب ، والاحتيالُ لاستجماع آرائهم وقلوبهم بالعدل بينهم ، وإثابةُ المحسِن على إحسانه ، وجزاءُ المسيء على إساءته ، وإدرارُ أرزاقهم . على ما سنذكره في باب سياسة الخاصّة إن شاء الله .

التحرز من الفساد

فأما التحرز من الوقوع فيما يرى فيه ملوك زمانه عند ظهور الفساد وتغير الأمور واستئثار الملوك بأموال الرعية وإظهار الحيف ، والميل إلى الدنيا ، وما في هذا الباب ، فمن وجوه :

أوّلها ـ مراقبة الله ـ جل وعز ـ والعِلْم بأنّ الله أوْلى بأن يتّبع ، والرسل أحق من يقتدى بهم ، وأن يعلم أن الله عز وجل ـ يجزي كل نفس بما كسبت ﴿ ولا تزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [1] .

ثم يسمو بهمته إلى أن يكون أفضل عند الله وعند العقلاء وأرفع منزلة لدى الحكماء منهم . فإنّ أخصّ الناس بهذه الصفة وأوْلاهم بهذه المهّمة ـ الملوكُ ، لأنهم لم يرضوا إلا أن يكونوا فوق أشكالهم ونظرائهم من أهل نوعهم درجةً ، وأعلى منهم منقبة وأظهر منهم فضيلة .

سنة الفضلاء

فإن لم يكن كذلك فأن يلحق بالفضلاء من الملوك ، فإنّ الملوك يتفاضلون فيما بينهم في الخصال الشريفة ، فيجب على الملك الفاضل أن يقتدي بأفاضلهم دون أراذلهم ، ويقتفي آثارهم في فضائلهم دون رذائلهم . فإنه لم تكن أمّة من

(١) أية ١٥ الإسراء

الأمم إلاّ كان في ملوكها حَزَمَةٌ وساسة وحكماء ومتديّنون ، بل كانوا لا يرون من أهل الدين إلا من كانت هذه سبيله ، فمن خالَفها أو عدل عنها أو تنكّب عنها كان مُلكُه مُلْك المتغلب المُبْتزّ والدخيل المحتلّ .

ثم قد يتفاوت اختلاف الملك الواحد في أفعاله ، في الحسن والقبح ، والفضائل والرذائل ، فيجب على الملك البعيد الهمة الذي يريد الاقتداء أن يقتدي به ويتبع سُنّته ، ويحتذى سيرته في محاسنها لا في مساوئها ، وفي أفاضلها لا في أراذلها .

فقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تكونو إمَّعةً تقولوا إنْ أحْسَنَ الناسُ أحْسَنّا ، وإنْ أساءوا أسانا ، ولكن وَطنوا أنفسكم إن أحْسَن الناسُ أنْ تُحْسِنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا[1] . »

وقال بعض الحكماء : إذا رأيت الناس في الخير فنافِسْهم فيه ، وإذا رأيتهم في الهلكة فذرْهم وما اختاروا لأنفسهم ، .

وقال الله جل ذكره - ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يَضركُم من ضَلَّ إذا اهتديتم** ﴾[2] .

قالوا وشكا رجل إلى حكيم من الحكماء فسادَ الزمان ، فقال : أنت الزمان فإن صلحْتَ صَلح ، وإن فسدْت فسَدَ .

ثم ليس شيء مما نودعه كتابنا هذا إلاّ لو أردنا أن نستشهد عليه بقول ملِك من الملوك أو خليفة من الخلفاء أو أمير من الأمراء ، ونكثر مِن أقاويلهم ، لوجدناه مسطراً لهم مكتوباً ، ومدوّناً عنهم محفوظاً ، ووجدنا مِن الملوك مَن كان إليه مائلاً وبه قائلاً ، وله مُؤثِراً فاعلاً .

---

(١) رواه الترمذي في البر .
(٢) آية ١٠٥ المائدة .

ومهما شككْنا في شيء ، فلا شك أنه كان لله أنبياء ومرسلون وأولياء ملكوا الدنيا وقادوا العساكر والجيوش ، ودوّخوا البلدان بالجنود ، فما منَعَهـم جلالـةُ حالهم وعظم مُلكهم وكثرة جيوشهم وكثافة جنودهم وسواد جموعهم من إيثار طاعة الله والعدل في خليقته وبريّته ، فعاشوا ملوكاً وماتوا ملوكاً ، ونعتت آثارُهم ألْسِنَةُ الصدق عنهم كأنهم أحياء وإن ماتوا ، وشهود وإن غابوا .

جند الله

وقد كان منهم سليمان بن داود [عليهما السلام] الذي قصّ الله علينا نبأه وأخبر أنه ألان له[1] الحديد وأذل له الشديد ، وسخر له الجن والانس والسباع والبهائم والوحوش وأنواع الحيوان والريح تجري بأمره رُخاء حيث أصاب .

رسل الله

وكان من قبله أبوه داود عليه السلام ، جعله الله خليفة في الأرض ، وأميناً على الخلق .

وقد كان منهم يوسف النبي ﷺ .ومنهم ذو القرنين الذي أثنى الله عليه .

ثم موسى بن عمران [عليه السلام] ويوشع بن نون وذووهم .

ثم كان خاتم النبيين وسيد المرسلين نبينا ﷺ ملّكه كثيراً من بلاده في أثناء حياته ، وقاد الجيوش وساق الخيول وفتح الفتوح ودبّر الأمور ، فلم يمنعه ذلك من طاعة الله والائتمار بأمره ، والاجتناب عن نهيه ، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة .

الخلفاء

ثم كان خلفاؤه الراشدون وأصحابه المهتدون الذين فتحوا البلاد وقهروا أهل العناد ، وكان مِن سيرتهم ما قد ذكرنا .

بنو أمية

ثم كان من بعدهم عمر بن عبد العزيز وهو من بني مروان الذين عاثوا في

---

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في الأصل ، والمعروف أن الذي الان الله له الحديد هو داود ـ عليه السلام ـ قال تعالى :﴿ولقد آتينا داود مِنّا فضلا يا جبالُ أوبي معه والطير وألَنّا له الحديد ﴾. آية ١٠ سبأ

الأرض وغيّروا السُّنن وأظهروا البدع ، فلم يكن قبله منهم مثله ، أمر ببيع الخزائن وردّ المظالم وأزال اللعن عن آل الرسول ، ورغبَ في العلم ونشر الفضل ، وقرّب أهل العلم والزهد ، فلم يمنعه فساد أهل زمانه وأقربائه ونظرائه مِن صلاحه وتديّنه وتحريه الحقَّ .

وكذلك كان يزيد بن الوليد ، فإنه أظهر الدين وتعصب له وبسط العدل ، وقتل ابن عمه على الظلم والجور والإلحاد والكفر ، ثم قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام ، ثم قال : والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصا على الدنيا ولا رغبة في الملك ، وما بي إطراء نفسي وإني لظلوم لها ، ولكني خرجت غضباً لله ولدينه ، وداعيا الى كتاب الله وسُنّة رسوله لّما هُدِمتْ معالم الهدى واطفىء نورُ أهل التقى ، وظهر العنيد المستحل لكل حُرمة والراكب لكل بدعة ، والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في الحسب وكفوي في النسب ، فلما أن رأيت ذلك استخرتُ الله في أمري وسألته ألاّ يكلني إلى نفسي ، واستعنتُ بمن أطاعني من أهل ولايتي ، إلى أن أراح الله منه العباد ، وطهّر منه البلاد بحوْل الله وقوّته لا بحوْلي وقوّتي .

أيها الناس إن لكم عليّ ألاّ أضع حجراً على حجر ، ولا أُجري نهراً ، ولا أكتنز مالاً ولا أعطيه زوجة ولا ولداً ، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسُدّ فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فَضَلت فضلةٌ نقلتُها الى البلد الذي يليه ممن هم أحوج إليه منهم ، وعليّ ألاّ أجهدكم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهاليكم ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أُجليهم به عن بلادهم فينقطع نسلهم ولكن لكم أعطياتكم في كل سنة ، وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون أقصاهم كأدناهم ، فإن أنا وفيت لكم بهذا فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكاتفة ، وإن أنا لم أفِ لكم به فلكم أن تخلعوني ، إلاّ أن تستتيبوني ، فإن تُبْتُ

قبلتم مني ، وإن رأيتم أحداً أو عرفتموه يُعْرف بالفضل والصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أوّل مَن يبايعه ويدخل في طاعته .

أيها الناس إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

بنو العباس

فأما خلفاء بني العباس فقلّ من خلا منهم أو من أفاضلهم من خصال حميدة لو اقتُدي به فيها وأخذت عنه لكان لذلك أهلاً فقد كان منهم أبو العباس أول الخلفاء ظاهر الزهد كثير الفضل والعلم وكان أبو جعفر المنصور أخوه كثير العلم شديد الاعتقاد في الدين ، وكان قد صحب عمرو بن عبيد قبل توليه الخلافة ، وأخذ عنه العلم والدين ، وكان أحرص الناس على الاستكثار منه في حال الخلافة ، وله معه آثار معروفة وأخبار مشهورة . ثم كان ابنه على مذهبه وكان هارون الرشيد متديناً شديد التعصب للاسلام والديانة ، ظاهر الشهامة جَلْداً في السياسة والحماية ، ذابّا عن أركان الملة كَمْشاً[1] في الدعوة ، غزا الرومَ غير مرة بنفسه ، وكتب إلى عُظماء الكفرة بتهديده ووعيده ، وحج إلى بيت الله ماشياً وراكباً ، وقلّ ما كان يخلو من غزوة أو حَجّة في كل عام ، ولذلك ما قال فيه مادِحهُ :

في كل عام غزوة ووفادة ... ينبت[2] بين نواهما الاقران
غَزْوٌ وحجّ مات بينهما الكرَى ... باليعْمَلاتِ[3] شِعارُها الوخَدانُ[4]
يصلُ الهجير بغُرةٍ مَهْدِيّةٍ ... لو شاء صان أديمَها الأكنانُ
لكنّه في الله مُسْتَدْلٍ لها ... إنّ التقيَّ مُسَدَّدٌ ومُعانُ

وكان مولعاً بالفقهاء ، مقرِّباً للعلماء ، مهتماً بأمْر دينه ، حتى كان يوصف

(١) الكمْش : الرجل السريع الماضي الجادّ في أمره (اللسان ـ كمش) .
(٢) ينبتّ : ينقطع .
(٣) اليَعمَلات : اليعمَلة من الأبل النجيبة المعتملة المطبوعة على العمل .
(٤) الوخَدان : الأسراع وتوسيع الخطو .

بالتقوى والخشية ، فقال فيه أبو نُواس :

إمـامٌ يخـاف اللـهَ حتـى كأنه   يراه من التقـوى صباحَ مساء

وفي كثرة غزوه وإخافته أهلَ الكفر والشرك يقول :

وأخَفْـتَ أهـلَ الشرك حتـى إنه   لتخافُـك النُّـطَفُ التـي لم تخْلَقِ

ثم كان مِن بعده المأمون ، وهو لو باهَتْ به هذه الأمةُ سائر الأمم في ملوكها لكان لذلك أهْلاً ، ولوجد لها عليهم به فضلاً ، علماً وعقلاً وأدباً وحزماً وأرباً ورأياً وفهماً وشهامة وعزماً ونظراً في أبواب السياسة ، وجدلاً في العلم واجتهاداً في اختيار المذاهب ، وشغفاً بالعلم وأهله ، وتعصباً للتوحيد ، وتوفيراً على سائر أبواب الملْك حقها ، واعطاءها قِسْطها.

وله آثار موجودة وأخبار مأثورة ، وفي الكتب مشهورة مسطورة .

وامعتصماه

وكذلك المعتصم فإن أخباره في كثرة غزواته مذكورة ، ووقائعه مشهورة ، وكان متديناً جَلْداً باسِلاً شهماً ذابّاً عن الدين ، محامياً عن عورة المسلمين .

قالوا وبلغ مِنْ حمايته لهم أنه ذكر بين يديه وفي مجلسه أنّ امرأة مسلمة أُسرَتْ في أيدي الروم في وقعة جرت بين المسلمين وبينهم ، فجعلت تنادي وتندب وتقول : وامعتصماه ! ، قال فقال على فوره : لبيك لبيك ، وتقدّم إلى خاصته وحاشيته أن يُلمّوا به ، وجعل الجيش والخدم يتلاحقون به أوّلاً فأوّلاً ، فما نزل إلاّ على مرحلة ، وما أقلع عن وجهه حتى دخل أرض الروم وتعرّف أمر تلك المرأة فاستدلّ عليها فأنقذها وخلّصها ، وأنكى في الروم نكاية لم يكن بمثلها لهم عهد ، كل ذلك إظهاراً للحق واعتداداً لما يجب عليه ويلزمه من صيانة الدين وحماية أهله ، وفي

ذلك يقول أبو تمام فيه :

خليفةَ اللهِ كافا اللهُ سعْيَك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب

لو كان بين صروف الدهر من رَحِمٍ موصولةٍ أو ذِمامٍ غير مُقتضبِ

فبين أيامِك اللاتي نُصِرْت بها وبين أيام بدرٍ أقْربُ النسبِ

ثم كان الواثق مذكوراً بشدة رغبته في الدين ،وولوعه بالعلم وأهله وتعظيمهم ومجالستهم والاستكثار منهم ، وتجريده التوحيد والعدل ، وامتحانه المخالفين ومناظرتهم وحملهم على قبول الحق . ودونهم من خلفاء بني العباس .

أمراء خراسان

ثم كان الأمراء من ولاة خراسان من الطاهرية ، لهم آثار عجيبة وسياسات سديدة من إعزاز الدين وحياطة المُلْك ، والرغبة في العلم والأدب وإجلال أهله ، وتجميل أثوابهم بهم ، وتتبع أفاضلهم في البلدان وحملهم من الآفاق ، وعنايتهم بكتابة الكتب وتصحيحها ، وصحبة أهل الآداب والفضل ، وهمة في اصطناع المعروف وبث الخير ونظر في أمور الرعيّة ، وحماية عن الحوزة ، حتى إذا فتر في هذه الأسباب آخرهم كان ذلك سبباً لزوال مملكتهم وانقضاء دولتهم ، وتصرّم مُدّتهم .

وكذلك كانت أحوال ملوك [بني] سامان ، فكان نصر بن أحمد مِن عُبّاد الأمراء وزهّادهم ، بالاضافة إلى من كان قبله وبعده .

وكان الأمير الماضي أبو ابراهيم كثير الغزو حسن التواضع ، ثقيل الهمّة ناصراً لظاهر الشريعة ، رحيماً بالرعية شديد الرغبة في الخشية وإظهار فرائض المِلّة ، يتحرى العدل ويُظهِر الحق ، وإن كان من أبناء الدنيا .

وكان اسحاق بن أحمد مذكوراً بالعلم والأدب والمحبة لأهله وكثرةً مجالستهم والاستئناس بهم .

وكان الشهيد موصوفاً بالعدل في الأحكام ، والتسوية بين القريب والبعيد ، والشريف والوضيع فيها ، والنظر في أمور الرعية والرحمة بها ، وتحري التخفيف عنها والرفق بها .

ملوك الفرس

وكذلك كان حال أفاضل الملوك من آل ساسان مِن قبْل ، على ما دلت عليه آثارهم ، فقد قال أردشير في عهده الذي جعله دستوراً للملوك : واعلموا أن الدين والمُلْك أخَوان توأمان لا قوام لأحدهما إلاّ بصاحبه ، لأنَّ الدين أسٌّ المُلْك ، ثم صار المُلْك بعده حارس الدين ، فلا بد للملك مِن أُسِّه ، ولا بد للدين من حارسه ، فإن ما لا حارسَ له ضائعٌ ، وما لا أُسّ له مهدوم .

وقال : اعلموا أنه لم يجتمع رئيس في الدين مُسِرٌّ ، ورئيسٌ في المُلْك معلن في مملكة واحدة قط إلاّ انتزع الرئيس في الدين ما في يدي الرئيس في المُلْك ، لأن الدين أسٌّ والمُلْك عماده ، وصاحب الأس أولى بجميع البنيان من صاحب العمران .

وكذلك قرأنا في عهد أنو شروان وسابور من تعظيم الدين والذبّ عنه والاجتهاد في حمايته وصيانته ، ورويْنا في آثارهم وأخبارهم .

نصائح ارسطاطاليس للاسكندر

وقرأنا في رسالة أرسطاطاليس الى الاسكندر : أجعلْ الدين موضع مُلكك ، فمن خالفك فهو عدوّ مُلكك .

وفيها : أي ملِك أخدم مُلكه[1] دينه فهو مستحق للرياسة ، وأيّ ملِك أخدم دينه مُلكه فالمُلْك له آفة .

وقال : من تمسك بالسنّة[2] فحرامٌ عليك دمه وإدخال المذلة [عليه] .
وقال : دافع عن دينك تَصلحْ عاقبتُك .

---

(١) أي جعل ملكه في خدمة الدين

(٢) المراد بالسنة هنا الطريقة الصحيحة .

وقال : صَيِّرْ دنياك وقاية لآخرتك ، ولا تُصَيِّرَنَّ آخرتك وقايةً لدنياك .

في أمثال لها كثيرة ، وأشباه عدة من أخبار الملوك المخصوصين بالفضائل ، والمتجنبين للرذائل . وكفى بما ذكرناه دليلاً على ما قصدناه ، ولله الحمد والمنة على توفيقه وتسديده ، إنه وليّهُ ومستحقه ، وحسبُنا الله ونعم الوكيل .

البَابُ الـرَّابع

في المَواعظ التي تبصر غرور الدّنيا وتنفع مَن نظر فيها واستمع لها، وتهديه الى العَدل في ملكه

هدي القرآن والسنة

قـال الله ـ تعـالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿ **وذكِّرْ فإنّ الـذكرى تَنْفَـعُ المؤْمنين**[1] ﴾ . وقال : ﴿ **أدعُ إلى سبيل ربِّـك بالحكمَـةِ والمَوْعِظَـة الحَسنة**[2] ﴾ . وقال : ﴿ **وذكّرْهـم بأيام اللهَ**[3] ﴾ ، وقال : ﴿ **يَعِظُكم اللهُ أنْ تعُودوا لمِثْلِه أبَداً**[4] ﴾ .

وكان النبي ﷺ يتخوّل أصحابه بالموعظة ، فالوعظ والتذكير فريضتـان واجبتان ، وسُنّتان ماضيتان على أهلهما بكتاب الله ـ جل وعز ـ وسُنة رسول الله ﷺ وقد أمر الله المَوْعُوظين بالاستماع لها والإصغاء إليها ، فليس أحـد وإن جلّ خطره وعظم قدره ممن يحب أن يترفع عن استماع الموعظة وقبول النصيحة ، لأنه إذا فعـل ذلك فاز بقسطـه الأوفـر وحَظّـةِ الأجـزل ؛ واستحـق من الله البشري في العاجل ، والثواب في الآجل ، ومن عقلاء خلْقِه الثناءَ والمدح والإكرام والدعاء ، فإن الله ـ عز ذكره ـ يقول : ﴿ **فبشِّرْ عبادِ**[5] . **الـذين يَسْتمِعـونَ القـوْلَ**

(١) آية ٥٥ الذاريات .
(٢) آية ١٢٥ النحل .
(٣) آية د إبراهيم .
(٤) آية ١٧ النور .
(٥) آية ١٧ الزمر .

فيتَّبِعونَ أحْسنَه ﴾ . ثم قال : **﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب[1] ﴾** .

فيجب على الملك الفاضل والسائس الكامل الذي ربما أنفق الأموال وعمل الأعمال ليمدحه به مخلوق جاهل ، أو شاعر كاذب ، أو ماجنٌ مترخص ، أن يرغب في هذه المنزلة التي يمدحه بها ربُّ العالمين ثم فُضلاءُ المسلمين ، وان الله ـ جل ذكره ـ جعل الخير في الاعتبار والاعتبار بالتفكير ، وحثَّ عليه في غير موضع من كتابه فقال: **﴿ أو لَم يتفكّروا في أنفسِهم ما خلَقَ الله السموات والأرضَ وما بينهما الا بالحَقِّ وأجَلٍ مُسَمَّى[2] ﴾**. وقال: **﴿ الذين يذْكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ويتفكرون في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ربَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبحانك فقِنا عذابَ النارِ[3] ﴾**.

عظة بالغة

فمن قريب ما يجب أن يفكر فيه ويتدبره أن يتذكر أحوال القرون الماضين والملوك الأولين الذين كانوا أشدّ منه قوة وأكثر جمعاً ، وأبْيَنَ آثاراً وأطول أعماراً ، الذين بنوا المدائن وجمعوا الخزائن ، وحفروا الأنهار وعمروا الديار ، وشيّدوا القصور ودبّروا الأمور ، وجمعوا الجموع وقادوا الجيوش وساقوا الخيول ، ودوّخوا البلاد وأذلوا العباد ، ومشوا في الأرض مرحاً ، واختالوا بما أوتوا فرحاً ، فأخذهم الله بما كانوا يكسبون ، فأصبحوا بعد العز والمنعة والمُلْك والرفعة والصوت والسطوة والذكْر والصولة عِظاماً رمياً ورُفاتاً هشيا ، وأصبحت منازلهم خاوية ، وقصورهم خالية ، وأجسادهم بالية وأصواتهم هادئة ، تُنْبيك آثارهم معاينة ، وتقرعُ أسماعَك أخبارُهم مجاهرة ، فلم يصحبهم من الدنيا ما جمعوا ولم يدفع عنهم الردى ما كسبوا . ولعلهم ندموا حيث لم تنفعهم الندامة وتلهّفوا حيث لا

(١) آية ١٨ الزمر .
(٢) آية ٨ الروم .
(٣) آية ١٩١ آل عمران .

يُغني عنهم التلهف . وإن الباقي عما قليل كالفاني ، والغابر عن قريب كالماضي ، وما بينهما إلا أنفاس معلومة ، وأيام معدودة ، سريعة الانقضاء ، قريبة الانتهاء .

الحذر من سوء العاقبة

فليحذر المغتّر بملكه والممتع بعزه هذه الصرعة ، وليستعد لهذه الوجبة ، ولينتبه لهذه الموعظة فإن الله جعلها في أوائل مواعظه وكررها في مواضع من كتابه حيث يقول : ﴿ **أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين مِن قبلهم كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثاروا الأرضَ وعَمَروها أكْثرَ ممّا عَمَروها وجاءتْهم رُسُلهم بالبيّنات فما كان الله ليظلِمَهم ولكن كانوا أنفسَهم يَظْلمونَ** ﴾[1] .

وعدّ كثيراً منهم في كتابه ووصفهم وسمّاهم في خطابه حيث يقول : ﴿ **ألم تَرَ كيف فَعَلَ ربّك بعادٍ إرَمَ ذات العماد التي لم يُخْلَق مثلُها في البلادِ وثمود الذين جابوا الصخرَ بالواد. وفِرعَون ذي الأوتادِ الذين طَغَوْا في البلادِ فأكْثروا فيها الفسادَ فصَبَّ عليهم. ربُّكَ سَوْطَ عذابٍ إنّ ربك لبِالمرصادِ**[2] ﴾ .

وقال: ﴿ **وعاداً وثمودَ وأصحابَ الرّسّ وقروناً بين ذلك كثيراً و كلاً ضرَبْنا له الأمثالَ وكلاً تبرّنا تَتْبيراً**[3] ﴾ .

هذا خبر صدق وقول حق ، وقد جعل الله بكل ما [شوهد] في أيامه [وعُوين] في زمانه ممن رفعهم الدهر ثم وضعهم ، وأعلاهم ثم صرعهم ، ودارت عليهم دوائره ، ونابتهم نوائبه ما في بعضه مقنع لمعتبر ، وبلاغ لمدّكر .

قالوا : وأشرف أبو الدرداء صاحب رسول الله ﷺ على أهل حمص ، فقال : يا أهل حمص أتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، وتجمعون ما

---

(١) آية ٩ الروم .
(٢) آية ٦ ـ ١٤ الفجر .
(٣) آية ٣٨ ـ ٣٩ الفرقان .

لا تأكلون . إن من كان قبلكم بنوا شديداً وأمّلوا بعيداً ، وجمعوا كثيراً فأصبحت اليوم مساكنهم قبوراً ، وأملهم غروراً وجمعهم بُوراً .

وقد قال بعض فصحاء الملوك في خطبته : ألم تروا مصارع من كان قبلكم كيف استدرجتهم بزخرفها ونفتهم ثم تركتهم وقد تخلت عنهم ، فهم في حيرة مطلخمة[1] ، وظلمة مدلهمة ، تركوا الأهلين والأموال والأولاد والعيال ، فمساكنهم القبور وقد خلت منهم الدور ، وتقطعت منهم الأوصال والصدور ، وصاروا تراباً بالياً ،وكان الله لهم ناهياً، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور : ﴿ **إنّ الشيطانَ لكم عدوٌ فاتّخِذوه عدواً إنما يدْعو حِزْبَه ليكونوا مِن أصحابِ السعيرِ**[2] ﴾ .

عظات من الشعر

ولقد أحسن في هذا المعنى لبيد في قصيدته الحكيمة حيث يقول :

فقولا له إنْ كان يعقلُ امْرَه ... ألَمّا يَعِظْكَ الدهرُ أمُّكَ هابلُ
فإن أنت لم تَصْدقْك نفسُك فانتسبْ ... لعلك تَهديك القرونُ الأوائلُ
فإنْ لم تجدْ مِن دُونِ عدنانَ باقياً ... ودَون معدّ فلْتَرعك العواذلُ

وقال في هذا المعنى الذي تضمّنه هذا الباب صالح بن عبد القدوس :

كم رأيْنا مِن أبلج ذي عتوّ ... لم تَهَبْهُ المنونُ وهو مَهيبُ
بينا يبتني المدائن والأوْ ... طان إذْ باكرَتْهُ الخُطوبُ
فتَردّي ولم تجُبْهُ جنودٌ ... أحصروا حَصراً لأمرٍ ينوبُ
بل حَثَتْ فوقه التراب ولم تصـ ... ـرف رداهُ إذ يهتِفَ المكروبُ
وينادونه وقد صُمّ عنهم ... ثم قالوا وللنساءِ نحيبُ

---

(١) مطلخمة : أطلخم الليل والسحاب : اظلم وتراكم واشتد .
(٢) آية ٦ فاطر .

ما الـــذي عاق أن تحُـــير جواباً　　أيهـــا المِقْـــوَلُ الأديبُ الأريبُ
إنْ تكنْ لا تطيق رَجْـــعَ جوابٍ　　فلقدمـــا تُرى وأنـــت خطيبُ
ذو عظـــاتٍ ومـــا وُعِظْـــت بقولٍ　　مثـــل وعْـــظٍ بالصمـــت إذ لا تجيبُ

وقال :

فإنْ أمَّلْـــتَ أنْ تبقَـــى فسائلْ　　بمـــا أفنـــى القـــرونَ الخاليات
وأين ذوو المعـــالي والمساعي　　بنـــو الأحـــرارِ أهـــل المأثرات
وأين ثوتْ ملـــوك الـــروم واسأل　　بِحِمْـــيرَ في الدهـــورِ الماضيات
وأين ملوكنـــا من عبـــد شمسٍ　　وُلاةُ منابـــرٍ وبنـــو وُلاةِ
وأين الراتقـــون لكل فَتْقٍ　　وأين الموسِعـــون ذوو الجِدات[1] .

وكتب أرسطا طاليس إلى الاسكندر : اعتبِرْ بمن مضى قبلك ، ولا تكن عبرة لمن بعدك ، لا تمدّ أملك الى ما ينفد فذلك الطمـع الـكاذب ، وانظـر إلى حال نظرائك ممن سلف فيه ، واعلم أن حكمك فيه كحكمهم .

* * * *

(١) الجِدات : جمع جِدة وهي الاستغناء بالمال ، فعلها وجد .

الفصل الأول

في المواعظ

الله يمهل ولا يهمل

ثم لا ينبغي للملك الممتّع بطول المدة في ملكه والمنفس له في عمره والسالم من نوائب زمانه ، والمظفر على أعدائه في أيامه ، والمدرك منها كثيراً من أمانيه وآماله ، أن يغترّ بمساعدة الدولة له ومواتاة الدهر إياه ، وينسى لطول الإمهال والإملاء حوادث الزمان ، وبَغَتاتِ تغيرّ الأيام ، حتى يغمض عينه عن ملاحظة العِبرِ ، ويغفل عن مراقبة الغِيرِ . فإن ذلك ربما يكون من أعظم حجج الله عليه وأبلغ محنه له .

وقد ذكر الله ذلك كله في كتابه [إذ] يقول : ﴿ **أو لم نُعَمِّرْكم ما يتذكرُ فيه مَن تَذكّر وجاءكم النذيرُ**[1] ﴾ .

ويقول في قوم من الكفار : ﴿ **ولا يحْسَبَنَّ الذين كَفَروا انما نُمْلي لهم خيراً لأنفُسهم إنما نُمْلي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذابٌ مُهينٌ**[2] ﴾ .

وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى تهيج ومثل الكافر مثل الأَرزة [المجذية على أصلها لا يفيئها شيء] حتى يكون انجعافها مرة واحدة »[3] .

(١) آية ٣٧ فاطر .
(٢) آية ١٧٨ آل عمران .
(٣) رواه مسلم ، انظر مختصر صحيح مسلم رقم ٢٨ .
ومعنى الخامة : القصبة اللينة . تفيئها : تقلبها يميناً ويساراً .
المجذية : المنتصبة . انجعافها : اقتلاعها .

وليعلم أن البقاء منها الى فناء ، والظعن منها إلى ارتحال ، والصحة الى سقم ، والسلامة والعافية إلى بلاء ومرض ، والسرور مَشوبٌ بالحزن ، والصفو ممازج بالكدر ، وإن كان كثير من الناس ـ لعشقه لما يهواه وولوعه بما يتمناه منها ـ يرى صفوها ولا يرى كدرها ، ويبصر سرورها ويعمى عن شرورها ، ويجد طعم ملاذّها ولا يحسّ بآلامها كالمسموم الذي يجد حلاوة العسل ولا يشعر بمرارة السم فيكون من حلاوته هلاكُه . وقديما ما قيل : حُبُّك الشيءَ يُعمي ويُصِمّ .

استدراج

ثم ليعلم أن بلوغ الأماني وإدراك أطراف الآمال واستقامة الأحوال التي هي غاية طلبته ونهاية أُمْنيّته ، سُمٌّ قاتلٌ وسيفٌ مستأصل وإيذانٌ بالإدبار وقرْب البَوار . وقد بينّ الله ذلك في كتابه حيث يقول : ﴿ **حتى إذا أخَذَت الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَنَتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمْرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلْناها حَصيداً كأن لم تَغْنَ بالأَمْسِ**[١] ﴾ . وقال في قصة قارون : ﴿ **وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتِحَه لتنوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القوّةِ إذ قال له قومُه لا تَفْرحْ إنّ اللهَ لا يُحبُّ الفَرِحينَ . وابْتغِ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنْسَ نصيبكَ مِن الدنيا وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليك ولا تَبْغِ الفسادَ في الأرضِ إنّ الله لا يُحِبُّ المفْسِدينَ**[٢] ﴾ .

ثم حكي عز وجل ـ أنه قال ﴿ **إنما أُوتيتُه على عِلْم عندي أو لم يعلَمْ أن الله قد أهْلَكَ مِنْ قَبْلِه مِن القُرون مَن هو أشدُّ منه قوّةً وأكثرُ جَمْعاً**[٣] ﴾ . ثم قال جل وعز ـ ﴿ **فخَسَفْنا به وبدارِه الأرضَ فما كان له مِن فئةٍ ينصرونَه مِن دُونِ اللهِ وما كان مِن المنتصرينَ**[٤] ﴾ .

وقال : ﴿ **حتى إذا فرِحوا بما أُوتوا أَخذْناهم بَغْتةً**[٥] ﴾ .

---

(١) آية ٢٤ يونس .
(٢) آية ٧٦ ـ ٧٧ القصص .
(٣) آية ٧٨ القصص .
(٤) آية ٨١ القصص .
(٥) آية ٤٤ الأنعام .

وقال أمير المؤمنين عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ : كم مِن مُسْتَدْرجٍ بالاحسان ، وكم مِن مغرور بالسّتر عليه ، وكم مفتونٍ بحسن القول فيه ، ما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له لأنّ الله يقول : ﴿ **ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أنما نُمْلي لهم خيرٌ لأنفسِهم**[1] ﴾ .

الأمر ينقص بتمامه

وقد عرف ذلك الحكماء وذكره الشعراء فقال بعضهم ـ وسُئل عن حاله ـ : كيف حال من يفنى ببقائه ويسقم بسلامته ويؤتى من مأمنه ؟! . وقالت العرب : مِن مأمنه يُؤْتى الحِذر .

وقديماً ما قالوا : ما استجمع لأحدٍ أملُه إلاّ أسرَعَ في تفريقه أجلُه . وقيل : يا ابن آدم لو رأيت الأجل ومسيره بغضت الأمل وغروره .

وقد ذكر كثيراً من هذه المعاني أرْدشيرُ في أوّل فصل من عهده حيث قال : إنّ صُنْع الملوك غير صُنْع الرعيّة ، فالملك بطبعه العز والأمن والسرور والقدرة على طباع الأئمة ، والجرأة والبطر والعبث . ثم إنه كلما ازداد في العمر تنفُّساً ، وفي المُلْك سلامة زاده في هذه الطبائع الأربع حتى يسلمه إلى سُكر السلطان الذي هو أشد من سُكر الشراب ، فينسى النكبات والعثرات والغير والدوائر وفحش تسلُّطِ سلطان الأيام ، ولوم غلبة الدهر ، فيرسل يده ولسانه بالفعل والقول .

قال : وقد قال الأوّلون منا : عند حُسْن الظن بالأيام تحدث الغِيَر . وقال : وقد كان مِن أولئك القوم مَن يذكِّرُه عِزُّه الذلَّ ، وأَمْنُه الخوفَ ، وسرورُه الكآبةَ ، وقدرتُه العجْزَ ، فإذا هو جَمَعَ بهجةَ المُلْك وفكرة السوقة ، ولا حَزْمَ إلاّ في جمعهما .

وقد قال في ذلك بعض الشعراء :

إذا تَمَّ أمْـرٌ بدا نقْصُه ... توقَّـعْ زوالاً إذا قيل تَمّ

(١) آية ١٧٨ آل عمران .

حياتــك باهــمّ ممزوجةٌ فــلا تقطــع العيش إلاّ بهمّ
أطــايبُ دُنياك مسمومةٌ فــلا تأكل الشهْــد إلاّ بسُم

وقال آخر :

أرى بَصرَي قد رابنــي بعــد كبرة وحَسْبُــك داءً أنْ تصــحَّ وتسقَما

وقال آخر :

أرى صاحبَ الـدنيا وإنْ طال عُمْرُه ونــالَ من الــدنيا سرُوراً وأنعُما
كبــانٍ بنــي بُنْيانــه فأتمَّه فلما استــوى ما قد بنــاه تهدَّما

قال : وكتب الأسكنـدر إلى أرسطاطـاليس بعدمـا نفـذت يده في المشرق والمغرب ، وبَلَغَ من المُلْك ما لم يبلغه قبله أحد : اكتبْ إليّ بموعظة موجزة تردع وتنفعْ ، فكتب إليه : إذا استوت بك السلامة فجدِّدْ ذِكر العطب ، وإذا هنأتك العافية فحدِّث نفسك بالبلاء ، وإذا اطمأن بك الأمر فاستشعر الخوف ، فإذا بلغْت نهاية الأمل فاذكر الموت ، وإذا أحببت نفســك فلا تجعلنّ لهـا في الاسـاءة نصيباً .

قال ووعظ بعض الحكماء ملِكاً فقال : أيهـا الملك إنّ الـدنيا دار عمـل ، والآخرة دار ثواب ، ومَن لم يُقدِّم لم يجدْ ، فمرّ نفسك حلاوة عيشها بترك الاشارة إليها ، واعلم أن زمام العافية بيد البلاء ، ورأس السلامة تحت جناح العطب ، وباب الأمن مستور بالخوف ، فلا تكونـنّ في حال من هذه النـكت غـير متوقـع لأضدادها ، ولا تجعل نفسك غرضاً لسهام الهلكة ، فإن الزمان عدوّ ابـن آدم ، فاحترز من عدوِّك بعناية الاستعداد ، فإذا فعلتَ ذلك استغنيتَ عن الوعظ .

قالوا : وكتـب سليمان بن داود ـ عليهما السـلام ـ على كرسيّه إذا صحّـت

السلامة نزل البلاء ، وإذا تمّت العافية نَجَمَ العطبُ ، وإذا ظهر الأمن علا الخوف .

وقال بعض من عرف هذه الدار :

ما أعجبَ الدهرَ في تصرُّفِه ونقْلِ سلطانه ودولتِه
من كان يدري أن النعيم إلى بؤس رأى الهمّ في مَسرَّتِه

وقال آخر :

يريد الفتى طولَ السلامة جاهداً فكيف يرى طول السلامة يفعلُ

وقال آخر :

كانت قناتي لا تلين لغامزٍ فألانها الإصباحُ والإمساءُ
ودعوتُ ربي بالسلامة جاهداً ليُصِحَّني فإذا السلامة داءُ

* * *

الفصل الثاني

وليعلم المنهمكُ في لذاتّه ، والحريص على نيل شهواته ، والمفتـون بآمالـه وأمْنيّاته أنه لاينال منها شيئاً إلاّ بثلاثة أشياء : خسة الشهرة

الأول ـ أنه يفنى فيه أيامه المعدودة التي هي أعظم الأشياء عنده خطـراً ، وأجلّها لديه قدراً ، وأعزها فَقْداً ، والذي كل فائت سواه مستخلف ، وكل ذاهب بعده مرتجع .

والثاني ـ انه يقرّب به من أجله ووقت وفاته ، [وهو] هادم لذاته ومنغّص شهواته وقاطع أُمْنيّاته .

والثالث ـ أنه يُشْغل ويعطل بطلبه إيّاه وسعْيه له حظّاً من الآخرة التي هي دار قزاره ومُجتَني ثمرات أعماله ، فإذا فَكر في قدر ما يناله من حيث ما يفوته لم يزده قدراً ، ولم يتبين له خطراً ، وعلى حسب ذلك يجب أن تكون رغبته فيه وميله إليه وكَلَفُه به .

وفي بعض ذلك ما يقول الشاعر :

ما نِلْـت شيئـاً من الـدنيا تُسرّ به إلاّ وأنـت به تدنـو من الأجل

وقال الحسن البصري : إنما أنت أيام ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، يا ابن آدم ، إنك لم تزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمّك وقد قال رسول الله

ﷺ « ما من ساعة تمر على ابـن آدم لا يذكر الله فيها إلاّ كانـت حسرة عليه يوم القيامة ».

واستحسن من الحجاج كلامه على المنبر « إن امرأً ذهب من عمره ساعة في غير ما خلق له لخليق أن تتطاول عليه حسرته ».

وقال آخر في الضنّ بالأيام والساعات :

شاعَ فيّ الفنـاءُ سفـلا وعُلوا | وأرانـي أمـوتُ عُضـواً فعُضوا
ليس من ساعـة مضـت بيَ إلاّ | نَقَصَتْنـي بمرّهـا بيَ جزءا

وقال آخر في هذا المعنى :

ومـا هي إلاّ ليلـةٌ ثم يومُها | وحـوْلٌ إلى حَوْل وشهـرٌ إلى شَهْرِ
مطـايا يُقرّبْـن الصـحيح من البلى | ويُدْنـين أشـلاء الـكريم من القبر
ويتـركْنَ أزواج الغيور لغيره | ويقسمْـن ما يحوي الشحيح من الوفرِ

* * *

الفصل الثالث

آفة الكبر

وليعلم المتكبر المختال بما ينال فيها من الغرور والمقدرة والأموال والبسطة والملك والرفعة ، المعجب بما أوتي من العدد والعُدة والمنعة والقوة ، أنه وإن كان عزيزاً بالاضافة الى غيره ممن تحت يده ، وغنياً بعواري القيمات عند فقراء رعيته ، قادراً بالاضافة إلى ضعف حاشيته ، فإنه في نفسه وبالاضافة إلى القادر عليه ذليل فقير ضعيف مهين . وكيف لا يكون كذلك وهو ممن تؤذيه البراغيث والذباب والبعوض والديدان وكثير من الهوام ، فلا يمتنع بقوته منها ، ولا ينتصف من كثير منها .

ثم إنه إذا نظر إلى كبار خلق الله من سماواته وأرضيه وجباله وبحاره ومائه وناره ، لم ير لجسمه الصغير الضعيف في جنبه مقداراً ، ورأى صغره عنها عياناً جهاراً ، وإذا ذكر حالته في بدئه وانقضائه وأوّله وآخره ، وجد أوّله نطفة قذرة وآخره تربة ومدَرَة ، وهو فيما بين الحالتين وعاء لأنتن الأنتان وأقذَرِ الأقذار .

ثم إن فكّر في عاقبة أمره ومرجع شأنه ، وجد جسمه الذي رَبَّهُ طعاماً لأضعف الحيوان وأوْهنِ الدواب من الحشرات والديدان .

في الموت واعظ

ثم إن فكّر في ضعف جسمه وقلّة حيلته وصغر قدره إذا أوجعه بعض أعضائه ، وضرب عليه بعض أجزائه الدالة بضعف تركيبها على سرعة الأنحلال ، ورأى أنه لا يدفع عنه جنودُه ، ولا تغني خيوله وحصونه ، فكيف إذا جاء ما لا بد منه وقد تفاقم داؤه ، وعزّ دواؤه واشتد قلقه وضاق نَفسه وعرق جبينه واشتد أنينُه ، وغارت عيناه وتقلّصت شفتاه وارتعدت فرائصه وكلّتْ جوارحُه ، وعاين سكرات

الموت وحسرات الفوْت . وأيقن بترك ما جمع وأوْعى ، والخروج مما شيّد وبنى ، وبفراق مَن عشق وأحبّ ، وعاين آثار ما عجل واكتسب ، وودّ أنه كان أضعف خلْق اللهِ وأفقرهم وأقلّهم وأخملهم ، ثم عمل بطاعة الله واجتنب معصيته .

فمن لم يشاهد ذلك مِن نفسه فقد شاهَدَهُ من غيره ، وعلم أنه لا محالة إليه مصيرُه ومُنْقَلَبُه ، وما بعده أمَرّ أمَرُّ وأدهى وأشد وأبقى .

ثم ليذكر مقدار الأرض التي هو يملك بعضها في خلق الله من أفلاكه ونجومه وسماواته ، ثم مقدار مملكته ورعيّته من الأرض ومن فيها ، ثم مقداره من رعيّته ، فإنه إذا فكّر فيه بانت له قِلّتهُ ، وعلم أنها من صغار الهمم والأقدار ، وأقل السلع ، حيث لم تسْمُ هِمّته إلاّ إلى إدراك مملكته القليلة المقدار ، الضيقة الرقعة في جنب المُلْك الكلي والعز الأبديّ .

فإذا عرف ذلك من نفسه فعلى حسبه يكون تكبُّره وتجبُّره وخيلاؤه .

وليعلم أنه لا يتكبر أحد ولا يختال لسلطان يناله إلاّ جاهل بمقداره ، قليل المعرفة بنفسه ، قصير الهمة صغيرها ، إذ كان يرى أن سلطانه فوق قدرِه ، ونفسه دون مُلْكه .

ثم لو بعُدَتْ هِمّته وأيقنَت معرفته لما رضي بالفاني عن الباقي بدلاً ، وبالدنيا عن الآخرة عوضاً .

وقد قال بعض الحكماء : لم يتكبر أحد إلاّ لصغر قدره ، ودناءة نفسه . وقد قال ذلك عمرو بن عبيد حين قيل له : أقنعت من الدنيا بخبز شعير ؟ فقال : أقنعُ مني من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة .

وقيل للعتابي : فلانٌ بعيد الهمّة ، قال إذاً لا غاية له إلاّ الجنة .

وقال أرسطاطاليس للاسكندر : إياك والعُجْب فإنه يفسد كبير الفضل .

* * *

الفصل الرابع

كبح النفس عن الشهوات

وليذكُر الملِكُ الفاضلُ إذا انبسط أمله وازدحمت أمانيه أنّ عُمْرَهُ في هذه الدار ـ وإن طالت أيامه وتتابعت أعوامُه ـ ثلاثة أيام : فيوم مُنْقضٍ بما فيه لا يعود أبداً ، ويوم منتظر ليس في يده منه إلاّ آماله وأمانيه ، ويوم هو فيه قد آذنه بالرحيل عنه سريعاً ، لا يبقى عليه بؤسه ، ولا يلبث له نعيمه حتى يصير يومُه أمْسَه ، وغدُه يومَه . وإن شاء جعله ساعات فإنه يجتهد على هذه السبيل فلا يطولن عليه الأمد ، ولا يهولنّه الصبر عن شهوة مُخْلِقةٍ للعرض مُفسدة للمروءة مُكسبه للمذمّة ، موجبة للعقوبة . فإنما هو صبر يوم واحد من عمره ، أو ساعة من يومه ، إن صبر فيها عن شهوة فاحشة أصلح بها حياته الأبدية الدائمة ، وإن ارتكب فيها مُحرَّماً أفسدها .

فلينظر في مقدار يومه وساعته من مقدار الأبد والحياة السرمد ، وفي الشهوة المنقضية في نيل الشهوات الدائمة ، فرب شهوة ساعة قد أورثت حزناً طويلاً .

قال الله ـ جلّ وعز ـ في هذا المعنى : ﴿ **وما أمْرُ الساعةِ إلاّ كلمْحِ البصر أو هو أقْرَبُ**[1] ﴾ . وقال ﴿ **إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً**[2] ﴾ .

وقال الرسولّ ﷺ : « إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب سار في يوم صائف فقال تحت شجرة ساعةً ثم سار وتركها[3] .

---

(١) آية ٧٧ النحل .

(٢) آية ٦ ـ ٧ المعارج .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة في الزهد .

وقال : « ما الدنيا في الآخرة إلا كرجل أدخل أصبعه في البحر[1] فلينظر بماذا ترجع اليه » وقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعُدّ نفسك في أهل القبور » .

وقال فيه بعض الشعراء :

هو السبيل فمِن يوم الى يومِ كأنّه ما تُريك العينُ في النوم
لا تعجلنّ رُويْداً إنها دُوَلٌ دنيا تنقّلُ مِن قوم إلى قومِ

وقال لبيد :

فأضحى كأحلام النيام نعيمُهم وأيّ نعيم خِلْتَه لا يزايل

وفي التزهيد عن الشهوات ما قال بعض الحكماء . العبيد ثلاثة : عبد الرِّق ، وعبد البِدَر[2] ، وعبد الشهوة وهو شرهم حالة وأذمّهم عاقبة .

وقد قال بعض حكماء الفرس لبعض ملوكها : أما استحسنت من العقل أن تبدل أسم الكرم لؤماً ، واسم الحر عبداً ؟ ألست تعلم أن أسم العبودية واللؤم إنما يقع على الشهوات لأن صاحبها مُسْتَعْبَدٌ أبداً مجرور مسحوب ، والعقل كريم ؟ أو ما رضيتَ حتى جعلت الكريم للئيم مركباً ، والحرَّ للعبد عبداً ، وسميت حراً كريماً ، وسميتَ عاقلاً لبيباً ، جعلت عقلك لشهواتك عبداً ، ورأيك لهواك مركباً ؟

وقال بعض الزهاد : إن الصبر والتقوى صيرّاً العبيد ملوكاً ، والحرص والشهوة صيراً الملوك عبيداً[3] .

---

(١) رواه مسلم في الجنة .
(٢) البِدَر : جمع بِدرة وهي المبلغ العظيم من المال .
(٣) قيل إن زليخا امرأة العزيز قالت هذه العبارة عندما رأت يوسف عليه السلام وقد ارتفع شأنه وصار على خزائن الأرض .

وقال بعض الشعراء :

هواك - فلا تكْذِبْ - عليك أميرُ　　وأنت رهينٌ في يديه أسيرُ
يسومُك عِصيانا وأنت تطيعه　　وطاعته عارٌ عليك كبيرُ

وقال آخر :

كم أسيرٍ لشهوة وقتيلٍ　　أُفٍّ للمشتهى خلاف الجميل
شهوات الأنسان تكسبه الذُّ　　لَّ وتُلْقِيه في البلاء الطويلِ

* * *

الفصل الخامس

اللذات زائلة

وليذكرُ المنهمكُ في شهواته ، والمستهتر بلذّاته أنه لا يعشق شيئاً من الدنيا ويهواه ، ويشتهيه ويتمناه ، إلاّ وهو إذا ناله وظفِر به ملّه وسئمه وكره عن قريب قُربه ، حتى يلفظه لفظ المرار ، ويمجه مجّ الأجاج ، ويمله ملال البغيض .

ثم إنه لا ينال شيئاً يشتهيه إلاّ بكثير مما لا يشتهيه ، فلا ينال المُلْك إلاّ بالخدمة الطويلة والرياضة الصعبة الشديدة ، والمخاطرة العظيمة والأشغال الكثيرة والآمال البعيدة التي ربما أتت دونها المنيّةُ .

وإذا كان هذا هكذا فترْكُ الطلب لشهوات الدنيا بما يفوت به الدينُ أوْلى بالملك العاقل ، وأشبه بأفعال الحازم الكامل ، سيما إذا كان فيها مرتكباً إثماً وعاراً يدحض الدين ويبقي قبح الأحدوثة ، أو راغباً في لذة حيوانية تشاركه فيها البهائم المبهمة والسباع الضارية والكلاب العاوية ، وضعاف الحيوان من الهوام والخرشة[1] ، لأن الصبر عن المحبوب والنجاة من المكروه كالكفر بالمحبوب والوقوع في المكروه سواء لا تفاوت بينهما .

هذا وربما كانت المكاره فيما يظنه محابّ ، والفساد فيما يحسبه صلاحاً ، والهلاك فيما يتوهمه نجاة . فقد يجمع الملكُ الجنود ليكونوا له عُدة على أعدائه ، وجُنّة عند لقائه ، فيكون فيهم هلاكه ، ويكسب الحريصُ ما لا ليريحه من تعب

(١) الخَرَشَةُ : الذباب ، مفرد وجمع .

الفقر ونَصَب الحاجة فتكثر به حاجاته ويزداد تعبه ، ويربى الوالدُ الولدَ ليكون له عَضداً وعلى أعدائه يداً ، وربما كان أعدى أعدائه وشرَّ منابذيه عليه .

فحقيق بالملك إذا بصُرَ بالدنيا على هذه الصورة ، وعلم أن داءَه فيهـا من دوائه ، ومكروهه في محبوبه ، وعدوّه من صديقه ، أن يجعل سعيه فيها تزوُّداً إلى غيرها ، وقصداً إلى سواها .

وقد عرف ذلك مَن قال فيها :

إذا امتحــن الــدنيا لبيــبٌ تكشَّفَت ... لــه عن عدوٍّ في ثياب صديق

وقد قال الحسن البصري في صفة الدنيا : فاصبحت كالعروس المجلـوّة ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب بها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهي لأزواجها كلهم قاتلة .

وقد كتب الحكيم إلى الاسكندر : ما رغْبتُك في شيء لو كان محموداً لما كان في الدواب منه أكثرُ مما فيك ، وهو أقوى عليك فما الفخر فيه والدوابُّ أكثر فيه منك ؟ وهو يهتك العمر وينقص البدن ويفسد السنّة . قال : وقد ينازع النفس منازع شديد المؤنة وهو النهمة ،والنهمة تنتج الندامة، والندامة تنتج الدناءة والدناءة تنتج سقوط النفس ،وسقوط النفس ينتج الميل الى المحقرات، والميل إلى المحقرات يهتك كل فضيلة ، ومن هذه الآفة تحدث الأوجاع العجيبة والأمور المفسدة والفجور ، وما أشبه ذلك .

* * *

الفصل السادس

النعمة ابتلاء

وليعلم الملِك المتديّن بدين الحق ، والمعْتزُّ بملة الأسلام أنّ الله إنما استرعاه عباده ، واستعمره بلاده ، ومَنّ بأنواع نِعَمِه عليه وصنوف أياديه لديه ، محنة له وابتلاءً . وقد بينّ الله ذلك في كتابه المنزل على لسان نبيّه المرسل حيث قال : ﴿ **الذي خَلَقَ المَوْتَ والحياة ليبْلُوكم أيُكم أحْسَنُ عَمَلاً**[1] ﴾ . وقال : ﴿ **ولَنَبْلُونّكم حتى نَعْلَمَ المُجاهدينَ منكم والصابرينَ ونَبْلُوَ أخبارَكم**[2] ﴾ . وقال : ﴿ **ونبْلُوكم بالشرِّ والخيْرِ فِتْنةً وإلينا تُرْجَعون**[3] ﴾ .

وقال النبي ﷺ « إن الدنيا حلوةٌ خَضرةٌ وإنّ الله مستخلِفُكم فيها فناظر كيف تعملون[4] » .

وأنه سائله عما استرعاه ، ومحاسبُه فيما استحفظه وآتاه على مثاقيل الذر وموازين الخردل ، كما بين ذلك في كتابه حيث يقول : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلَم نفسٌ شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتيْنا بها وكَفَى بنا حاسِبينَ**[5] ﴾ . وقال : ﴿ **ولتُسألُنَّ عما كنتم تعْمَلون**[6] ﴾ . سؤال متفرد ومحاسبة مقرع ، لا سؤال مستفهم يحتمل التغيير ، ولا محاسبة مستعلم يجوز عليه التلبيس .

---

(١) آية ٢ المُلْك

(٢) آية ٣١ محمد

(٣) آية ٣٥ الأنبياء

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد في مسنده

(٥) آية ٤٧ الأنبياء .

(٦) آية ٩٣ النحل .

ثم هو محتج عليه بما آتاه من صنوف نِعَمه ، وقسم له من جزيل قسمه ، وما سخّر له من عباده ، ومهد له في بلاده ، وملّكه من أمواله وخزائنه .

كل مسئول عن عمله

ثم هو محتج عليه بما أقام في خلقه من الدلائل على حكمته ، وأنه لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سُدى .

ثم هو محتج عليه بكتابه الذي أنزله وأمره باتباعه في فرائضه وأحكامه ، وبرسوله الذي أرسل وأمره بالاقتداء به في سيرته وآثاره .

ثم هو سائله عن كل ما أمره به من إصلاح نفسه وإقامتها على طاعته وأوامره وفرائضه .

ثم سائله عن خاصته الذين أمره بتأديبهم وتقويمهم والاستعانة بهم على تنفيذ أموره وإمضاء أحكامه وإقامة حدوده وأعلامه .

ثم عن عباده الذين استرعاه إياهم ، حتى عن آخر عبد وأمة في أقصى مملكته وأدناها ، وأسفلها وأعلاها ، وأنه لا ينجيه منها إلاّ الصدق ، ولا يرضيه إلاّ الحق .

ومن وراء الحساب والسؤال فوز عظيم ، أو عذاب أليم ، فوز لمن بطاعته عمل في نفسه والعدل في عباده ، والحق في بلاده ، وأداء الأمانة في أمواله ، وعذابٌ على مَن عَمِل بمعاصيه وارتكب مناهيه .

خبرٌ من الله ـ جلّ ذكره ـ حقٌّ ، وقولٌ صدقٌ ، حيث يقول : ﴿ **يوم تأتي كلُّ نفسٍ تُجادِلُ عن نفسها وتُوفّى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمونَ**[1] ﴾ . وقال : ﴿ **ثم لتُسألُنَّ يومئذٍ عن النعيمِ**[2] ﴾ . وقال :

(١) آية ١١١ النحل .
(٢) آية ٨ التكاثر .

﴿ رُسُلاً مبشرين ومُنْذِرين لئلا يكونَ للناس على الله حُجةٌ بعد الرسل[1] . وقال : ﴿ بَل الإنسانُ على نفسِه بَصيرةٌ[2] ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من وال يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان ، أنجاه عدله ، وأهلكه جوره .

شقاء العصاة

ثم قال الله في تقسيم العاصين والمطيعين : ﴿ فأمّا مَنْ طغَى وآثَرَ الحياةَ الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى . وأمّا مَن خافَ مَقامَ ربِّه ونَهَى النفسَ عن الهَوى فإنّ الجنّةَ هي المأوى[3] ﴾ . وقال : ﴿ يومَ يأْتِ لا تَكلَّمُ نَفسٌ إلاّ بإذْنِه فمنهم شقيٌ وسعيدٌ . فأمّا الذين شَقُوا ففي النارِ لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ . خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرضُ[4] ﴾ . فهم في عذاب دائم ، وألم غير منصرم ، إنْ بكوا لم يُرحموا ، وإن صبروا لم يُؤْجَروا ، وإنّ استغاثوا لم يغاثوا . ﴿ لا يُقْضَي عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم مِن عذابِها[5] ﴾ . إن سألوا الرجعة ليعملوا صالحاً قيل لهم : ﴿ اخْسَئوا فيها ولا تُكلّمو نِ[6] ﴾ .

ثم يقول الله محتجاً عليهم : ﴿ أو لم نُعمِّرْكم ما يتذكّرُ فيه من تَذَكّرَ وجاءَكم النذير[7] ﴾ .

وإن أفتدوا لم يقبل منهم ، يقول الله ـ عز وجلّ ـ : ﴿ يَوَدُّ المجرمُ لو يفتدِي مِن عذابِ يومئذٍ بِبَنيه . وصاحبتِه وأخيه . و فصيلتِه التي تؤويه .

---

(١) آية ١٦٥ النساء .
(٢) آية ١٤ القيامة .
(٣) آية ٣٧ ـ ٤١ النازعات .
(٤) آية ١٠٥ ـ ١٠٧ هود
(٥) آية ٣٦ فاطر .
(٦) آية ١٠٨ المؤمنون .
(٧) آية ٣٧ فاطر .

ومن في الأرض جميعاً ثم يُنْجِيه. كلاّ إنها لَظى[١] ﴾.

ويقول: ﴿ لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثلَه ليفْتَدوا به مِن عذاب يومِ القيامة ما تُقبِّلَ منهم ولهم عذابٌ أليمٌ[٢] ﴾. ويقول: ﴿ وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرضُ إلاّ ما شاء ربُّك عطاء غير مجذوذ[٣] ﴾.

وقد وصف الله نعيمهم مجملاً فقال: ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولديْنا مَزيدٌ[٤] ﴾. وقال: ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ وأنتم فيها خالدون[٥] ﴾. وقال: ﴿ لهم فيها ما يشاؤون[٦] ﴾. وقال: ﴿ لا يَرَوْن فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانيةً عليهم ظِلالُها وذُلِّلَتْ قُطوفُها تذْليلاً[٧] ﴾. وقال: ﴿ وحُورٌ عينٌ.كأمثال اللؤلؤ المكنونِ. جزاءً بما كانوا يَعْمَلون[٨] ﴾. وقال: ﴿ ويَطوفُ عليهم غِلمانٌ لهم كأنهم لُؤلؤٌ مكْنونٌ[٩] ﴾. وقال: ﴿ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين. لا يمَسُّهُم فيها نَصَبٌ وما هم منها بمُخْرَجين[١٠] ﴾. وقال: ﴿ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغوبٌ[١١] ﴾. وقال: ﴿ يا عِبادي لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تَحزَنون[١٢] ﴾.

---

(١) آية ١١ ـ ١٥ المعارج.
(٢) آية ٣٦ المائدة.
(٣) آية ١٠٨ هود:
(٤) آية ٣٥ ق.
(٥) آية ٧١ الزخرف.
(٦) آية ٣١ النحل.
(٧) آية ١٣ ـ ١٤ الانسان.
(٨) آية ٢٢ ـ ٢٤ الواقعة.
(٩) آية ٢٤ الطور.
(١٠) آية ٤٧ ـ ٤٨ الحِجْر.
(١١) آية ٣٥ فاطر.
(١٢) آية ٦٨ الزخرف.

وقال الرسولﷺ : قال الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سَمِعتْ ولا خطر على قلب بشر* . في آيٍ وآثار من مثيلها كثيرة .

الحكام قسمان

ثم قسّم الله الأئمة قسمين، فقال في بعضهم : ﴿ **وجعلناهم أئمةً يَدْعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنْصَرونَ. وأتْبَعْناهم في هذه الدنيا لعنةً ويومَ القيامةِ هم مِن المقْبوحين**[1] ﴾ . وقال في آخرين : ﴿ **وجَعَلْنا منهم أئمةً يَهْدُونَ بأمرنا لمّا صَبَروا وكانوا بآياتنا يُوقنونَ** ﴾ .

فلينظر الملك المتدين إلى أيّ الإمامين هو؟ومن أي الفريقين يَعُدُّ نفسه ؟ فقد قال النبيﷺ : « حاسِبوا أنفسكم قبل أنْ تحُاسَبوا . وقال : « الكيِّس من دانَ نفسه وعَمِل بما يُرضي الله » .

فإن الله ـ جلّ وعز ـ أبَى أن يجعل العاصين له كالمطيعين ، والمُصْلحين كالمفسدين ، عقلاً وخبراً ، فقال في محكم كتابه : ﴿ **أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيّئات أنْ نجعلهم كالذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ سَواءً مَحْياهم ومماتُهم ساء ما يحكُمون**[3] ﴾ . وقال : ﴿ **أم نَجْعَلُ الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ كالمُفْسِدين في الأرضِ أم نجْعَل المتّقين كالفُجّار**[4] ﴾ . ثم قال : ﴿ **كتابٌ أنزلناه إليك مبارَكٌ ليدّبروا آياتِه وليتذكّر أولو الألْبابِ**[5] ﴾ . وقال : ﴿ **أفنجعل المسلمين**

---

* رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه واحمد والدارمي .

(١) آية ٤١ ـ ٤٢ القصص .

(٢) آية ٢٤ السجدة .

(٣) آية ٢١ الجاثية .

(٤) آية ٢٨ ص

(٥) آية ٢٩ ص

كالمجرمين . مالكم كيف تحكُمون[1] ﴾ . فليأتمر عبدٌ بأمر الله في تدبُّر هذه الآيات وليصدّق بها إذا عرف حقها ، ولا يقل العبد إني أُصر على المعاصي وأتمنى على الله الأماني وأرجو رحمة الله ، فإن الله جعل رحمته للمؤمنين المحسنين ، فقال : ﴿ إنّ رحمةَ الله قريبٌ مِن المُحْسِنِين[2] ﴾ .

وأعدّ مغفرته للأوابين التوابين فقال حاكياً عن ملائكته وحملة عرشه ﴿ ربَّنا وسعْتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتَّبَعوا سبيلَك وقِهِم عذابَ الجحيم[3] ﴾ . وقال : ﴿ إنه كان للأوّابين غفوراً[4] ﴾ . وقال : ﴿ وهو الذي يَقْبلِ التوبة عن عِباده ويعفو عن السيئات[5] ﴾ . وقال : ﴿ والذين إذا فعلَوا فاحشةً أو ظَلَموا انفُسَهم ذكروا اللهَ فاستغفَروا لذنوبهم ومَن يَغْفِرُ الذنوبَ إلاّ اللهُ ولم يُصرّوا على ما فَعلوا وهم يَعْلمون . أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجنّاتٌ تَجْرى من تحتها الأنهارُ[6] ﴾ . وقال : ﴿ يا عبادي الذين أَسْرَفوا على أنفُسهم لا تَقْنَطوا مِن رحمةِ الله إنّ الله يَغفرُ الذنوبَ جميعاً إنّه هو الغفورُ الرحيمُ[7] ﴾ . ثم قال : ﴿ وأنيبوا الى ربكم واسلِموا له مِن قبلِ أن يأتيكم العذابُ ثم لا تُنْصَرون[8] ﴾ .

أو يقول العبد أرجو الرحمة مع المعصية ، والمغفرة بلا توبة ، قال الله ـ جلّ

---

(١) آية ٣٥ ـ ٣٦ القلم .
(٢) آية ٥٦ الأعراف .
(٣) آية ٧ غافر .
(٤) آية ٢٥ الأسراء
(٥) آية ٢٥ الشوري .
(٦) آية ١٣٥ ـ ١٣٦ آل عمران .
(٧) آية ٥٣ الزمر .
(٨) آية ٥٤ الزمر .

وعز ـ ﴿ تلك الدارُ الآخرةُ نجعلُها للذين لا يُريدون عُلُوّاً في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتّقِينَ[1] ﴾ .

وقد شاهَدَ الملكُ خلافَ ما أمّله في سياسته ، وصدّه في معاملته مَن تحت يده ، فإنّ الرجاء مِن توابع الاحسان ، والخوف من توابع الاساءة ، فمن أساء في فِعْله كان الخوف أوْلى به من الرجاء ، فلا يطلبَنّ شيئاً من غير وَجْهِه فيُحْرَمَه ، ولا يضَعَنّه في غير موضعه فيضيع .

وليعلم المَلِك أنه لا بدّ له من المصير إلى حالة يتمنى ـ لو جاز له التمنّي ـ أن يعتاض يوماً واحداً يعمل فيه بطاعة الله ـ بجميع الدنيا ، ولو كانت بحذافيرها ، وعسى أن يكون قريباً . فليغتنم من هبة الله الجليلة في أيامه فإنما هي رأس ماله ، وطلبُ الربح مع ضياع رأس المال متعذرٌ عسير .

فكفى بما قدّمناه من هذه المواعظ عظةً لمتّعظٍ ، وتذكرة لمن وفّقه الله ـ تعالى ـ بطاعته ، وعَصَمَهُ من معصيته .

* * *

---

(١) آية ٨٣ القصص .

الباب الخامس

في سياسة النفس ورياضتها

ومما يجب أن يُقدم في هذا الباب أنّا لم نقصد في كتابنا هذا ما يعُده كثير منهم أدباً في الجلسة واللبسة والركبة والطعمة والأثاث التي يتجمّلون بها فيما بينهم ، والزي الذي يتزيون به ، لأنهم بذلك أعلمُ منا ، وانهم قد أخذوا منها فوق ما يمكننا وصْفُه وشرْحُه .

ثم قد ألّف لهم أتباعهم وأبناء الدنيا منهم كُتُباً كثيرة قديمة وحديثة في دونها كفايةٌ عن هذه الأبواب ، ومندوحةٌ عما يتكلفه متكلّف مِن أهل هذا الزمان .

ولعل كثيراً مما فعلوه مِن ذلك ليست فيه فائدة في باب السياسة ، ولا جدوى على الراعي والرعيّة .

ولكنا أردنا أن نجعل كتابنا هذا كتاباً دينياً نُريهم فيه مصالح معادهم ومعاشهم ، ونظام ممالكهم وأحوالهم ، بكتاب الله رب العالمين ، وسنن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والملوك الأولين ، ونحذرهم سوءَ المصرع ولؤم الميتة وقُبح الأحدوثة ، واستحقاق العقوبة عاجلاً وآجلاً .

المتقون وجزاؤهم

فنقول إنّ أوّل ما يجب على الملك المعنيّ بأمور رعيّته المهتم بحماية حوزته ، وعمارة بيضته تقوى الله ، فإنها أفضل ما تواصى به الفضلاء والعلماء ، وإنها عصمة لمن اعتصم بها ، وحِرزٌ لمن تمسك بها ، وملجأ لمن لجأ اليها ، وأمْن لمن

استشعرها وجمالٌ لمن لَبِسَها ، وعزٌّ لمن اعتزّ بها ، ومهابة لمن استقبلها ، وسلاحٌ لمن قاتل بها ، وذُخْرٌ لمن اكتسبها ، وفضيلةٌ لمن اقتناها .

وهي مع ذلك وصيته ـ جلّ وعز ـ إلى خَلْقِه ، وأمرُه المُلْقىَ إليهم ، ووصيته إلى الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، والفضلاء من الملوك الماضين والحكماء المتقدّمين مِن أهل كل جيلٍ ومِلّةٍ ، ودينٍ ونِحْلةٍ .

وقد تكفّل الله لمتقيّه بالفرج والخرج واليُسر والنصر والرزق فقال ؛ ﴿ **ومَن يتّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجاً ويَرْزُقْه مِن حَيثُ لا يَحْتَسِبُ**[1] ﴾ . وقال : ﴿ **إنّ الله مع الذين اتّقَوْا والذين هم مُحْسِنون** [2] ﴾ . وقال : ﴿ **واعْلَموا أنّ الله مَعَ المتّقينَ**[3] ﴾ . وقال : ﴿ **ثم نُنَجّي الذين اتّقوْا**[4] ﴾ . وقال : ﴿ **ومن يتّقِ اللهَ يكفّرْ عنه سيّئاتِه ويُعْظِمْ له أجْراً**[5] ﴾ .

وقد قال بعض شعراء الجاهلية في جاهليته وكفره :

يَسرُّ الفتى ما كان قَدَّمَ مِن تُقى ... إذا عَرَفَ الداءَ الذي هو قاتلُه

وقال الأعشى :

إذا أنتَ لم تَرْحَلْ بزاد من التُّقَى ... ولاقَيْتَ بَعْدَ الموتِ مَن قد تَزَوَّدا
ندِمْتَ على ألاّ تكونَ كمِثْلِهِ ... وأنّكَ لم تُرْصِدْ لما كان أرْصَدا[6]

---

(١) آية ٢ ـ ٣ الطلاق .
(٢) آية ١٢٨ النحل .
(٣) آية ٣٦ التوبة .
(٤) آية ٧٢ مريم .
(٥) آية ٤ ـ ٥ الطلاق .
(٦) البيتان من قصيدته التي انشدها عندما قدم على النبي ﷺ فصدته قريش ، ومطلعها :
ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبِتَّ كما باتَ السليم مُسَهَّدا

وقال زهير بن أبي سُلمى وهو جاهلي :

رأيتُ التُّقـى والبِـرَّ خَـيرَ تجارةٍ وذُخْراً إذا ما المرء أصْبَحَ ناقِلا
ومـا هو إلاّ ما ابتَنـى في حياتِه إذا قَدّمـوا يومـاً عليه الجنادِلا

وقال آخر :

ألا كلُّ مَن يتّقـي اللـه مُعْوِن وإن الـذي نال التُّقَـى لسعيدُ

وقال آخر :

ولسـتُ أرى السعـادة جَمْـعَ مال ولـكنَّ التَقِـيَّ هو السعيدُ
وتقـوى اللـهِ خـيرُ الـزادِ ذُخْراً وعنـد اللـهِ للأتقى مَزِيدُ
ومـا لا بُدَّ أن يأتـي قريبٌ ولـكنّ الـذي يمضي بعيدُ

قال أفلاطون : التُّقَى رأسُ النجاح ، وهو مفتاح الفضائل .

وقال أرسطاطاليس للاسكندر : تأدبْ بأهل التُّقَى المشهورين بالزهد ، وقديما ما قيل : الولد بوالده ، والمتأدب بمؤدبه ، والجند بقائدهم ، والناسك بالدين ، والعامّة بالملوك ، والملوكُ بالتقوى والعقل والتثبُّت .

وقد قال أردشير في عهده : سعادة الرعيّة في طاعة الملوك ، وسعادة الملوك في طاعة الله المالك .

وقرأنا لحكيم من ملوك الهند في عهد له إلى ابنه : واعلمْ أنك لست بشيء إلاّ بالله ، وأنه ليس لك شيء إلاّ ما نِلْتَ من رضوان الله ، وأنك إن تتّقهِ في حقه عليك يَقِك شرّاً من ذلك ، وإن تتق فيه غيره لا تدفع عن نفسك ، ولا يدفع عنك دافِعٌ .

ومعنى التقوى التي ذكرها الله وأثنى على عامليها ، هو إيثار طاعة الله ،

والانتهاء عن معصيته ، فالتقيُّ هو المطيع ، والمطيعُ هو المؤمن ، والمؤمن هو المسلِم ، لأن هذه الأسماء كلها مدائح الله ـ جلّ وعز ذكره ـ لمن استحقها بالأفعال الصالحة والمساعي الفاضلة .

وتشتمل على أفعال كثيرة ، وهي تنقسم الى خمسة أقسام :

الإيمان بالله

أولها ـ معرفة الله ـ جلّ وعز ـ حق معرفة ، واحداً قديماً أحداً فرداً حكيماً جواداً رحيماً بَرّاً صادقاً قادراً عليماً ، حتى لا يشك عارفه ثم يسميه بأسمائه الحسنى ، ويصفه بصفاته العليا ، فلا يضيف إليه شيئاً مما نفاه عن نفسه ، ولا ينفي عنه شيئاً من خلْقه ، ولا يجعل معه في خلقه شريكاً ، ولا له منهم نديداً ولا شبيهاً بوجه من الوجوه أو معنى من المعاني . ويعلم أنه برّ بعباده رحيم بخلقه ، لا يكلفهم إلاّ الوُسْع ، ولا يريد بهم إلاّ اليُسرْ ، ولا يعذبهم إلاّ بذنب ، ولا يقضي عليهم إلاّ بحق ، ولا يقول ولا يرضى لهم إلاّ الصدق .

وأن قضاءه حق وقدَرَه حتم ، وأن مِن رحمته بخلقه وحُسْنِ نظره لهم أنه بعث أنبياء مبشرين ومنذرين ، وأنزل على من أنزل منهم الكتاب المبين الذي هداهم به إلى دار النعيم ، وحذّرهم به العذاب الأليم .

ثم الايمان بملائكته وكتبه ورسله ، وضمانُ أداء فرائضه وما جاء به النبي ﷺ ، والبعث والنشور والثواب والعقاب والوعد والوعيد ، وكل ما يجب على المؤمنين اعتقاده .

فإنّ هذا أساسُ الدين ، وأصل أفعالِ المؤمنين ، وإن الله لا يقبل عملاً مع الجهل به والشك فيه ، والخطأ في صفاته وأفعاله ، وإضافة السوء إليه وإشراكِه فيه ، وإن طال وكثر .

أداء الفرائض

ثم القيام بأداء الفرائض التي هي الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد

في سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على شرائطها وأوقاتها وصورها وتمامها عند إمكانها، واستفادة القدرة عليها وارتفاع المعاذير دونها.

واجتناب الكبائر التي أوعد الله عليها بنار الأبد، وأوجب فيها التنكيل والحدّ، مثل الزنى والقذف وأكل الربا والرشا وأكل أموال اليتامى ظلماً والقتل والظلم وشرب الخمر ولعب الميسر والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

إقامة الحدود والاقتداء بالرسول ﷺ

ثم إقامة حدود الله وإمضاء أحكامه في عباده ، والقيام بالقسط في بلاده، والحكم بالحق في دمائهم وأموالهم وأشعارهم وأبشارهم وفروجهم وأعراضهم ، وتجنب ظلمهم والتعدي عليهم والميل بينهم .

ثم الاقتداء برسول الله ﷺ في سُننه الظاهرة وسيرته المستفيضة النافعة ، التي جعلها الله شعاراً للأمة وأمارات للملة مما لم يوجد فرضها في كتاب اللهِ نصاً، فإن كثيراً منها فرائض ، وكثيراً منها مواجب ، وبعضها آكد مِن بعض ، والله قد أمر بأخذها عن الرسول ، وتلقّيها عنه بالقبول بقوله : ﴿ **وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانْتهُوا**[1] ﴾ . وقوله : ﴿ **وأَطيعوا اللهَ والرسولَ**[2] ﴾ .

ثم التأدب بآداب الله والاقتداء بنبيه ﷺ فيها ، فإنّ الله لم يدعْ شيئاً فيه صلاحٌ لخلْقِه في محياهم ومماتهم وحال معاشهم ومعادهم مما ينالون به فضيلةً أو ينتزهون به عن رذيلة إلاّ هداهم إليه وحثّهم عليه ، وبَصَّرهم به في كتابه وسنن الأنبياء مِن خلقه .

وليس شيءٌ مما يقرّب ويُزْلِف لديه في الآخرة إلاّ وهو فضيلة لفاعله ، وشرفٌ وزينةٌ ومِدحةٌ في الدنيا .

ولا شيء مما نهى عنه وزهّد فيه في الدنيا إلا وهو رذيلة ودناءة فيهما[3] . فإن

---

(١) آية ٧ الحشر

(٢) آية ١٣٢ آل عمران

(٣) فيهما : إى في الدنيا والآخرة

أسباب الدنيا موصولة بأسباب الآخرة ، وفي صلاح إحداهما صلاحُ الأخرى ، وفي فسادِها فسادُها .

وليس إقامة أمر الدين مما يجب على الملوك دون غيرهم ، إلاّ أن الملوك أوْلى به وأحقّ باستعماله والأخذِ بآدابه لخصالٍ كثيرة ، ومنها ما ذكرناه مِن أنّ نِعَمَ الله ـ عزّ ذكره ـ عليهم أظهرُ ، وأياديه عندهم أكثرُ ، فالأولى بهم أن يكونوا لله أشكرَ وأطوعَ ، وإلى أوامره ونواهيه أسرَعَ .

ومنها أنّ مقامهم الذي أقامهم اللهُ فيه مقام الذّابّ عن حوزة الدين ، والقائم بأمور المسلمين ، فإذا ضيّعَ الملِكُ شيئاً مما هو مفوّضٌ إليه ومعصوب به لم يعتدّ به غيره من رعيته وضاع ، وإن ضيّعه كثيرٌ من الرعيّة وقام به هو لم يضِعْ .

الناس على دين ملوكهم

ومنها ما قدّمناه من أن فِعْل الملِك أفعالٌ وقوله أقوال ، لأنه إذا فعل شيئاً اقتُدِيَ به في فعله ، وائتُمِر لأمره ، فتصير أقواله سُنناً وأفعالُه سِيراً تبقى على مَرّ الزمانِ وتتابُع الأيام . فإنْ فَعلَ حَسَناً جَرى له أجرُه ، وإنْ فَعَل سيّئاً جرى عليه وِزْرُه ، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : «مَن سَنَّ سُنّةً حسنة كان[1] له أجرُها وأجرُ مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة» الحديث.

ومنها ـ أنه إذا عُرِف بالدين أحبته قلوب الرعيّة ، واتفقت عليه كلمة الخاصة والعامة ، ورغب أهلُ الدين والمعنيّون به في مجاورته وصحبته ، ووثقوا منه بالعدل ، فإن رأوا منه محبوباً شكروه عليه ، وإن رأوا مكروهاً عذروه فيه إذا كان فَعَل مِن ذلك ما أوْجَبَه الدِّينُ وأمَرَ به ربُّ العالمين .

ومنها أنه يزيده في قلوب الأعداء مهابةً ، لأن للدين والصلاح والهدى

---

(١) رواه مسلم والنسائي وأحمد : وتكملته : ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

والعفاف جلالةً في النفوس ، ومهابةً في القلوب والعيون ، وذلك مما يُعْرَف مشاهدةً وتعلم معانيه .

وهذه الدلائل كلها تبين عما ذكرنا ، وتوضح ما قدّمنا ، مع ما ذكرْنا انّ ذلك من رأى الملوك الفضلاء والأئمة العقلاء والأمراء الأمناء ، ففيهم قدوة ، وفي أقاويلهم ومذاهبهم حُجّةٌ لمن أراد الأقتداء ومال إلى الاحتجاج فيما يراه ويختاره .

فضل العلم

ثم مما يجب على الملك ان يقتنيه من الفضائل والمآثر والمناقب والمفاخر التي لا يستغني عنها ، ويحتاج إليها في الديانة والسياسة الحكمّية الملية التي يكسب بها الحمد ويستحق بها المدح ويستأهل بها الفضل ـ العلمُ ، فإن العلم من أجلّ الفضائل شأناً ، وأعلاها مرتبةً ، وأسناها منزلةً . وكيف لا يكون كذلك وقد رضيه اللهُ وصفاً لنفسه ، وجعله في أول ممادِحه التي امتدح بها إلى خَلْقه . فقال : ﴿ إنّ اللهَ بكل شيء[١] عليمٌ ﴾ . وقال : ﴿ عالم الغيب والشهادة[٢] ﴾ . وقال : ﴿ وكان الله عليماً حكيماً[٣] ﴾ . وقال : ﴿ علاّم الغيوب[٤] ﴾ . وقال في مدح العباد به : ﴿ وما يعقلها إلاّ العالِمون[٥] ﴾ . وقال : ﴿ شَهِد اللهُ أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط[٦] ﴾ . وقال : ﴿ وما يَعْلم تأويله إلاّ اللهُ والراسخون في العِلْم[٧] ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء[٨] . »

(١) آية ٧٥ الأنفال . و ١١٥ التوبة . و ٦٢ العنكبوت .
(٢) آية ٩ الرعد . و ٩٢ المؤمنون . و ٦ السجدة . و ٢٢ الحشر . و ٨ الجمعة ، و ١٨ التغابن .
(٣) آية ١٧ النساء وغيرها .
(٤) آية ٧٨ التوبة وغيرها .
(٥) آية ٤٣ العنكبوت .
(٦) آية ١٨ آل عمران .
(٧) آية ٧ آل عمران .
(٨) رواه البخاري وابو داود في العلم .

وقال : يسير العلم خيرٌ من كثير العبادة[1] » . وقال : « إن الملائكة تضعُ أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب[2] » . وقال : « الناس رجلان عالم ومتعلم ، وما سوى ذلك همجٌ لا خير فيه[3] » .

وقال الامام الفاضل عليٌّ رضي الله عنه : قيمة كل إنسانٍ ما يُحْسن . وقال ـ رحمة الله عليه ـ العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . وقال : مات خُزّانُ المالِ ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودةٌ وآثارهم في القلوب موجودة . وقال : الناس ثلاثة : عالم ربّانـي ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمجٌ رعاع تبّاع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور الحكمة ولم يلجُوا إلى ركنٍ وثيق .

وقال رسول الله ﷺ : « ما عُبِد الله بمثل الفقه في الدين[4] » .

وروي عن بُزُرْجِمَهْر حكيم العجم : حَسْبُك من جلالة العلم أنّ كلاًّ يدّعيه ، وإن لم يكنْ من أهْلِه ، وحَسْبُك من خساسة الجهل أنّ كُلاًّ ينتفي منه وإنْ كان من أهْله .

وقال حكيم من حكماء الفلاسفة : العمى خيرٌ من الجهل ، فأصعب ما يخاف من العمى التردي في هُوَّةٍ ، وأهون ما يُخاف من الجهل التردي في هوّةٍ .

قالوا : ولما أراد الاسكندر الخروج إلى أقاصي الأرض قال لأرسطاليس : اخرج معي ، قال قد نحل جسمي وضعفتُ عن الحركة فلا تزعجني ، قال : فأوصني بشيء يرفع قدري ويحببني إلى رعيّتي ، قال : تَعلمْ

---

(١) روى الدارمي حديثاً بمعناه في المقدمة .
(٢) رواه ابو داود والترمذي في العلم
(٣) رواه الدارمي في المقدمة .
(٤) لم أجده بهذه الألفاظ .

العلم وبُثّه واستنبط منه ما يحلو بقلوب الرعية تنْقَدْ لك الرعيّة من غير حرب .

وروى الواقدي قال : قيل لأردشير ما العلم والشرف في الأقدار ؟ قال : علم تستنبطه فتُعلّمُه من لا يعلم .

قال : وأوصى بُزُرْجَمْهر ابنه فقال : يا بُنيّ عليك باستنباط العلم وبثه تجد به العِزَّ في العاجلة والشرف في الآجلة ، ولا تكن كالبهائم إن جاعت رَعَتْ ، وإن شبعتْ نامت .

وقال عبد الله بن المعتز : ما مات من أحيا عِلما ، ولا أفتقر من مَلَكَ فهْماً .

ثم لم يتفاضل الناسُ في شيء من الصناعات والسياسات والمراتب إلاّ بالعلم والعقل الذي هو أمّ العِلم وأصله ، وإن كان لا يُنتفع بالعقل إلاّ إذا كان مُرَبّى مُقَوّي بالعلم المستفاد .

هذا مع جلالة موقع العلماء من القلوب ، وفخامة اسمائهم في الصدور . ثم إنه الشيء الذي لا يُستغنى عنه في ديانة ولا سياسة ولا صناعة . فالملك حقيق بأن لا يرغب عن هذه الفضيلة الجليلة ، ولا يبخس لحظة منها ، ولا يدَعْ نفسه عن سَمْتها غُفْلاً ، ولا من حليها عُطلاً ، مع ما ذكرناه من حاجته الضرورية إليه .

ثم إنّ العلم المطلق جنس تحته أنواع كثيرة وصور مختلفة متباينة متفاضلة في نفعها وجلالتها ، وعلى حسب ذلك يتفاضل بها عالموها ، فإنه ليس من صناعة ـ صغر مقدارها أم جلّ ، وكثر نفعها أم قلّ ـ إلاّ وفيها علم يعلمه أهلها . وليس في القوة البشرية إدراكُ كل الفنون ولا نيل كل العلوم ، وإذا لم يكن في كل ذلك مطمع فالأوْلى بالعاقل أن يختار منها أجلّها قدراً وأعظمها خطراً وأعمّها نفعاً في الدين والدنيا . وليس فنٌّ من فنون العلم أولى بهذه الصفة من علم الدين الذي يُتقرب به إلى الله ـ جلّ ذكره ـ وتُبتغى به الآخرة ، ويُقدّم اليها به الذخر، ولا أشد

مشاكلة للملوك ومعونة لهم على سياسة المملكة وحماية الديانة ـ من العلوم الدينية التي ترجع بجملتها إلى خمسة أقسام :

أقسام العلوم

أوّلها ـ علمُ التوحيد الذي هو معرفة الله ـ جلّ ذكره ـ والعلوم الالهية التي قدمنا ذكرها .

ثم رواية آثار رسول الله ﷺ ونقْل أخباره التي هي أصول الأحكام ومباني الحلال والحرام ، وفيها سنن الرسول ﷺ ومغازيه ، ومعرفة أصول الديانة ومخارجها واثباتها وبدء كونها وسنن خلفائها وسياسة أمرائها وأقاويل علمائها .

ثم عِلْمُ الفقه الذي هو معرفة الملة وسنن الشريعة .

ثم عِلْمُ المواعظ التي تذكر بالآخرة وتبعث على اكتساب الأجر وطلب الخير .

ثم عِلْمُ اللغة الذي لا تستغني عنه فِرقةٌ من هذه الفِرق ، ولا صاحب نِحلة من هذه النِّحَل إذا أراد أن يكون كاملاً في صناعته وفاضلاً في ديانته ومذهبه ومقالته ، إذ بها يُعْرف نظم كلام الله وآثار رسوله ، ويوقف على مواقع خطابه ومعاني كتابه .

فهذه جملة أقسام العلوم الدينية .

والترتيب في العلم أن يبتدأ بتعليم اللغة وحفظها عند الحداثة وعنفوان الشباب والشرة ، وعند غلبة الحفظ وفراغ القلب عما يدفع إليه المِلِكُ في حال تملّكه والأشتغال بسياسة مملكته ورعاية رعيته . ثم إذا بلغ وعقل ولزمتْه حجةُ الله ابتدأ في علم الدين الذي طريقه علم الكلام ، حتى يعلم من ذلك ما يجب عليه علمُه ولا يسعُه جهلُه ولا يجوز للعاقل إغفاله ، إذ هو أوْلى العلوم بالتقديم لأن الاصابة فيه إيمان وسعادة ، والخطأ فيه كفرٌ وشقاوَة . فالواجب على الانسان أن يبادر بالشيء الذي يعظم ضرُّه ونفعُه .

ولعلة ثانية وهي أنه أجل العلوم في ذاته، وأفضل الفنون في ميزاته لأنه البحث عن الله وعن آياته، ومعلومه هو الله جلّ وتعالى.

وكل ما كان من العلوم أجلّ معلوماً وأعلى وأفضل وأسنى، كان العلم به أجَلّ وأفْضَلَ، ولا معلوم أجلُّ مما يبحث بهذا العلم ويستدل به عليه.

وثالثة ـ أنه بحثٌ عن الديانة، وذبّ عن المِلّة التي بيّنّا أنها أصل المملكة وأسّ العمارة، وقطب السياسة، وصلاح الدنيا والآخرة.

[ورابعة[1]] ـ انّ الملك يحتاج إليه ويستعين به في المجالس الحافلة والعساكر الكثيفة الجامعة عند قتال أهل الملل المخالفة مرّة وأهل البغي والعصيان أُخرى، فيجب عليه أن يعرف هل يحل له قتالهم أو يجوز له اغتيالهم، لأنه إن ظفر بظلم وجور فقد خسر، وإن غلب بهما فقد غُلِبَ، وإن خصم بهما فقد خُصِم. ثم يحتاج إلى محاجتهم ومناظرتهم ودعوتهم إلى الايمان والطاعة، وقد جرت السنة بتقديم الدعوة وإقامة الحُجّة عند القتال، فإذا لم يكن عند المِلك عِلْمُ دينه ومذهبه كان مغلوباً محجوجاً وربما صارت حُججُ عدوه عليه تفريقاً لجمعه وتشتيتا لجيشه وإفساداً لقلوب أوليائه عليه، وهذه إحدى الحيل التي لم يزل الملوك يحتالون بها ويلتجئون إليها عند التقاء الجيشين وموازاة الفئتين، وفي الخطب والرسائل المذكورة والمحافل المشهورة.

فبالحِجاج فرّق عليّ ـ رضي الله عنه ـ بين طلحة والزبير، ثم بين الخوارج. وبالحِجاج من قبلُ استحلّ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قتال أهل الردّة.

وبالشبهة المخرجة في صورة الحُجّة غَلَبَ معاويةُ عليّاً وفرّق بين بصائر أصحابه ونيّات أوليائه بصفّين.

---

(1) في الأصل وخامسة مع أنه ذكر عللاً ثلاثاً قبل هذه، وسيذكر الخامسة فيما يأتي.

وكذلك ما كتب أرسطاطاليس الى الاسكندر : وإذا كتبت كتبك فاقرأها على العامّة واذكر احتجاجك عليهم من كتبك وأذِعْ مِن كتبهم ما [لا] يجب ستره من العامّة .

وحاجة الملوك إلى المعرفة بالحجاج أشهر من أن يحُتاج معه إلى احتجاج واستشهاد واستدلال .

وقد يجوز أن يحضر الملك في كل وقت من يسد مسدّه ، ويجوز أن لا يحضر الملك في كل وقت ، ولكن المِلك في نفسه إذا لم يكن عالماً مُقتَ وصار غير موفور ، ومتخلفاً غير مبرّز .

ثم خامسة ـ أن يتحرز به عن حيل المموهين الممخرقين وأعداء الملك والدين من الزنادقة والملحدين الذين ذكرْنا أن بُغيتهم قصدُ الملوك وإفسادهم واغتيالهم واصطيادهم ثم الأستعانة بهم على إفساد الرعية مرة ، وقصد الرعيّة وافسادُها على المِلك وتفريق كلمتها وشق عصاها وارتفاع الخلاف بينهما أخرى ، وفي كل منهما هدمُ أركان المِلّة ، واستئصال الديانة والمملكة .

وفي أحكام علم الدين تحرزٌ من هذا الفساد ، وتحصُّنٌ من هذا العارض المجتاح .

فمن أقبح الأشياء بالمِلك أن يقصده عدوٌّ مِن أعداء دينه ومُلكِه وهوَ هارب من حجة العالم الخاصي وسطوة الجاهل العاميّ ، فيصطاده اصطياد الوحش والطير حتى يخرجه من دينه ويفسد عليه آخرته ويهدم به مملكته ، فيسلّم له ذلك جهلاً بأصل دينه وعجزاً عن نُصرة مذهبه .

وسادسة ـ أنّ عِلْم الدين أصلُه وطريقُه الاستدلال بالشاهد على الغائب ، وبالمتّفق عليه على المختلَف فيه ، وَجْهُه استخراج الرأي ، وهذا هو علم السياسة

على الحقيقة ، وطريق النظر في العواقب ومناظرة العمال والكتّاب والوزراء .

فهذه الوجوه كلها توجب أن يكون الملِكُ أوْلى الناس بتقديم علم الدين على سائر فنون العلم ، ثم إنْ أحبّ الأزدياد من العلم والاستكثار منه طَلَبَه واستفادَهُ على الترتيب الذي ذكرناه والتنزيل الذي نزلناه .

وقد قدَّمْنا أنّ أوْلى الأشياء به تقديمُ رواية الآثار وعلم أخبار الرسول ﷺ وأهل القدوة من أصحابه والخلفاء الراشدين من بَعْده ، وأخبار السِّيَر والمغازي فإن في ذلك ما يؤكد الفن الأول والعلم الأجلّ ، لأنه يقف به على معرفة أصول المِلة وبذورها وفضائل بنيتها وآياته ومعجزاته ومحاسن شريعته ودينه ومِلّته وتفسير كتابه ومُشْكِلِه ومعاني آثاره ، فلا يمكن لمزوّرٍ تزويرُ حديثٍ عليه ، ولا لأهلِ مِلّةٍ ادعاء فضيلة لمذهبهم ،ومنقبة لخلتهم لا يكون عنده أحْسنُ منها في دينه وشريعته ولا سيرة حسنة لملوك الأمم إلاّ وجد في سير خلفائه مِثله ، فلا يخدع من عرف من سِيَر الخلفاء وأخبار الوزراء وآثار الأمراء الاسلاميين بأخبار الأمم المتقدمة وآثار الملوك الماضين ، إلاّ أن يكون الأنسان ممن يُؤْثر الكذب على الصدق عمداً ، والمزوَّرَ على المحقَّقِ قصداً ، ويميل مِن الرشاد إلى الضلال عناداً وبهتاناً .وهذا داءٌ يُعيي الطبيبَ دواؤه ، وجنونٌ يوئسُ الحكماء علاجهُ .

ثم في معرفة الأخبار وسماعها أنسٌ يُرْبي على كل أُنْسٍ ، وأدبٌ يفوق كل أدب ، وسببٌ يبينٌ الأخلاقَ المحمودة والمذمومة ، وعِلمٌ بالسياسات العادلة والجائرة ، واستفادة علمٍ بمكايد الرجال وآداب الملوك وفنون المذاهب ، ومعرفةٌ بالرجال واعتبارٌ بالزمان وفِقْه في الاحكام ، وعِلمٌ بالحلال والحرام .

ثم إن أراد الازدياد من العلم فليتعلم الفقه الذي هو علمُ الشرائع والأحكام ، فإنه فرض على كل مسلم ، وجمال لكل أحد ، ولا غُنْية بالملوك والأئمة ـ خصوصاً ـ عنه ، لأنه لا بد لهم من النظر في مظالم الرعيّة والبريّة ،

وسماع دعاويهم وبيناتهم وأيمانهم وشهاداتهم والأمر بها ، وربما أمر الأمير بالصلاة وكتب إليه بأحد الزكوات والصدقات ورُفع إليه في المناكح والتزاويج والبيوع والمواريث وسائر فنون الأحكام . وربما رفع إليه في شيء من قسمة المغنم والفيء ووضع أموال المملكة مواضعها .

فالملِك أحقُّ الناس باقتناء هذه الفضيلة لئلا يحل محل الجاهل المحتاج إلى فقيه وقاضٍ في العلم الذي هو خاص به وعام لجميع رعيته ، وفيه قوام سياسته ، ولا يتكل على قاض أو مُفْتٍ في كل نازلة وحادثة .

ثم لا يجوز أن يُخْلِي نفسه من فضيلةٍ يجدُ إلى إدراكها سبيلاً اعتماداً على كافٍ يكفيه ونائب ينوب عنه ، لأنه إن فعل ذلك كان قد فاز بالفضيلة غيره وسبق إلى المنقبة سواه .

على أنه إن بلغ من الفقه مبلغاً مرْضياً أمْكنه الاجتهادُ والنظرُ لنفسه ، وطلب الحجج لها والتأويل لآرائه ، فلا يعمل إلاّ ما يجوز له في التأويل . ويتهيأ له بالحيل الفقهية الهربُ من كثير من الحرام الى الحلال ، ومن الباطل إلى الحق ، فيكون له فيه حجة في ديانته ، وزينة في مملكته ، وإزالة للتهم والريب عن نفسه ، ونجاة في آخرته .

ثم علم المواعظ والتذكير ، فقد بيّنّا أن الملك مِن أحوج الناس إليه وأحراهم بالنظر فيه ، للخلال التي ذكرناها آنفاً وحكيناها عن غيرنا بدءا .

ثم ليس شيء من فنون العلم بعدُ إلاّ وفيه مستمتعٌ ظاهر ، وبه منتفع ، من الطب والحساب والهندسة والنجوم ، ولكن علم الدين أوْلى وأفضل وأرفع وأجلّ وأخصُّ بالملك الفاضل والسائس الكامل ، لامتساس الحاجة إليه وتعويل الجماعة عليه ، ولأنّ الملك قد يجد من يحسِب له ويمسح[1] ، ويتطبب له ويكتب ، ولا يجد

(١) يمسح : من المساحة .

من يعتقد عنه الصواب ويعبد عنه الرب ويَرْغَب عنـه في الآخـرة ويذبّ عنـه في الديانة . وللخصال الأُخر التي ذكرنا ، والعلل التي سطرنا .

ولا يمكن استفادة هذه العلوم إلاّ بمعونه أمْرَيْن : أحدهما ـ مجالسة العلماء والحكماء من أهل كل طبقة . والثاني ـ النظر في كتب الديانـة والعنـاية بتعلُّمِها ودراستها .

فيجب على الملك الفاضل أن يستكثر من مجالسة العلماء والفقهـاء من كل طبقة من هذه الطبقات ، ولا يخلي مجلسه في أوقات فراغـه من كتـب ينظـر فيهـا ويستأنس بها ، وليعلم أن الأنس بالعلماء إذا حضروا مجلسه ليس بأقلّ من الأُنس بالمطرب والمغني والمسخرة والملهى ، بل ذلك أوقرُ وأفضلُ وأحْسنُ وأنبـلُ وأزْينُ وأجملُ ، على ما فيه من اكتساب الأجر وجميل الذخر وحُسْـنِ الأحدوثـة على مرّ الزمان ، ومن ممالأة الخاصة والتحبب الى العامة ، واستمالة العلماء الذين هم أشرف طبقات الرعيّة مرتبة وأرفعهم درجة .

ولقد قرأنا لسابترم ملك الهند في عهد له إلى ابنه : فإنْ كنت شاغلاً نفسك بلذةٍ فلتكن لذتك في محادثة العلماء ودراسة كتبهم ، فإنه ليس سرورك بالشهوات ببالغ منك مبلغاً إلاّ واكبابك على ذلك ينذرك فيه بالغي ، غير أن ذلك يجمع إلى عاجل الغيّ وخامة العاقبة .

وفي مشورات أفلاطون : اعرِف اللهَ وحَقَّه ، وأدِمْ عنايتك بالتعلم والأدب الصالح أكْثَرَ من عنايتك بغذائك يوماً بيوم ، واعلمْ أنّ التواني في العناية بالخيرات شرٌ كثير.

وفي حِكَم الأولين : جالِسْ الكبراءَ وسائـلْ العلماءَ فإن مجالستهـم غنيمـة ومعيّتهم سليمة ومؤنتهم خفيفة ومشاهدتهم زَيْنٌ .

وقال عمر بن الخطاب : لا تصحبْ الفاجرَ فتتعلّم من فجوره ، واستشر في أمْرِك الذين يخافون الله .

وقال الحكيم للاسكندر : واعلمْ أن العلم زيْنُ الملوكِ .

وفيما كتب إليه : قد وجب عليك حق الحكمة فكافىء من رَغَّبك فيها بإفشائها ، وأجْرِ على المعلمين والمتعلمين ، وصَيِّرْ من نال المرتبة فيها مِن خاصّتك ، واعلَم أن سيما الحكمة اكرمُ السِّيما ، وحديثها أهنأ الحديث ، والبحث عنها أفضل الفوائد ، لا تُغفِل ذلك فإنك لا تعتاض منها ولا تنال من غير أهلها ما يُنال منها .

وقال عبدالله بن المعتز : عِلمُ الإنسانِ ولَدُه التجلد . وقال : الجاهل صغير وإن كان شيخاً ، والعالِم كبير وإن كان حدثاً .

صحبة العلماء

ومكتوب في أميرنامه : صحبةُ العلماءِ أزْينُ بالملوك من شريف اللباس وبهيّ الحلي ، وهم عنهم أعظمُ غَناءً مِن عتيد المالِ وعزيز الجند . وفيه : كن آمناً مِن غِشّ العلماءِ فإنّ العالمَ قد عرف عاقبة الغش وأوجَبَ على نفسه اجتنابَه .

ثم إنّ في تمكّن العلماء وأهل الدين من مجلس السلطان قطْعاً لأطماع الغواة من أهل الأهواء الفاسدة والبدع المهلكة التي ذكرْنا أنها إحدى أسباب فساد الديانة والمملكة ، وتداعي أركان المِلّة .

فيجب على الملك الفاضل والسائس العاقل أن لا يغفل عن هذه الخلّة ، بل يستبدل بالطبقة[1] الفاسدة من المخانيث والمغنّين وأشباههم هذه الطبقة ، فإنّ المِلكَ الفاضلِ والسائس العاقل لا يغفل أحد عن أن يدنس عِرْضه ومُلكه وعقله بالفواحش وذكْرِ عورات الناس والتواجد على الغلمان والنسوان والعشق والمعشوق ، فإن هذا كله سخف وركاكة يجب على البعيد الهمّة أن يترفع منها ويربأ

(١) الباء تدخل على المتروك ، ومنه قوله تعالى: اتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير آية ٦١ البقرة .

بهمّته عنها ، ولا سيما ما أحدث شعراءُ هذا الزمان فإنهم يُودِعون أشعارهم الفحش والكفر ، ويدسّون فيها من مذاهبهم الفاسدة ويُغرون فيها بطلب اللذات واتباع الشهوات على سبيل الأمن والطمأنينة والجسارة والجرأة والاستخفاف بالدين وشرائعه والمِلّة ووظائفها ، فإن ذلك كله مضرٌّ بأصل الاعتقاد وأمْرِ الديانةِ.

ثم إنّ مجالسة أمثالهم من الناس والاستكثار من أشباههم من الأنذال قصورُ همّةٍ وسوءُ عادةٍ وتشبُّهٌ بهم ، ولم يزل العلماءُ والحكماءُ وأهلُ الدين يتحاذرون مجالستهم وينادون بمخالفتهم ، ويتواصون بمجالسة أشرافِ الناس وجلّتهم ، ويشبهون القرين بالقرين ، ويستدلون بالخَدين على الخَدين .

وقد قال الله ـ جلّ وعز ـ لرسوله ﷺ ﴿ **وإذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا فأَعرِضْ عنهم حتى يَخُوضوا في حديثٍ غيرِه**[1] ﴾ .

وقال : ﴿ **وذَرُوا الذين اتخَذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتْهُمُ الحياةُ الدنيا**[2] ﴾ .

وقال : ﴿ **وإمّا يُنْسِينَّكُ الشيطانُ فلا تَقْعُد بعْدَ الذكرى مع القوم الظالمين**[3] ﴾ .

ولما أراد اللهُ ذمَّ الدنيا والتزهيدَ فيها وصفَها بأنها لعبٌ ولهْوٌ ليُرَغّب عنها العقلاءَ ، ويزهّد فيها الفضلاء ، فقال : ﴿ **إنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ**[4] ﴾ . ونفى عن نفسه اللعب واللهو بقوله : ـ عز وجل ـ ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبَثاً**[5] ﴾ .

---

(١) آية ٦٨ الأنعام
(٢) آية ٧٠ الأنعام
(٣) آية ٦٨ الأنعام
(٤) آية ٣٦ محمد
(٥) آية ١١٥ المؤمنون

وقال أردشير في عهده بما أخبر أن اللعب واللهو ليسا من أخلاق الملوك ، وأنهما مُضرّان بأسباب المملكة مؤْذِنان بخرابها ، مؤديان إلى تداعيها . واعلموا أنّ منكم مَن يستريح الى اللهو والدّعة ثم يديم من ذلك ما يورثه خُلُقاً وعادةً فيكون ذلك لقاح جدٍّ لا لهو فيه ونَصَبٍ لا خَفْضَ فيه مع الهُجنة في الرأي والفضيحة في الذكر .

وقال رسول الله ﷺ « المرءُ على دين خليله فيلنظُر امرؤ من يُخالِلُ[1] » . وقال : « المرءُ مع من أحبَّ »[2] .

قالوا : وكان أمير المؤمنين عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ يقول : لا يُؤاخِ المرءُ المسلمُ الماجِنَ ولا الأحمقَ ولا الكذّابَ ، أمّا الماجنُ فيزيّن لك فِعْلَه ، ويود أنك مِثلُه ، ويحسّنُ لك أسوأَ الخصال ولا يُعينُك في أمْرِ معادِك ، فمقارنتُك إيّاه جناية وقسوة ، ومَدْخَلُه إليك ومخرجُه من عندك شينٌ وعارٌ عليك .

وأما الأحمق فلا يشيرُ عليك بسدادٍ وإن أُحبَّك ، ولا يهتدي لصرف السوءِ عنك وإن أجهد نفسه لك ، وربما أراد نفعك فيضرّك ، فسكوته خيرٌ مِن مَنْطِقِه ، وبُعْدُه خيرٌ مِن قُرْبِه ، وموتُه خيرٌ مِن حياته .

وأمّا الكذّابُ فإنه لا ينفعك معه عيشٌ ، ينْقُل حديثَك وينقلُ الأحاديث إليك ، كلما نَفِدَتْ أحاديثه مطّها بأخرى ، حتى إنه ليخبر بالصدق فما يُصَدَّق .

وقد قال بعض الأدباء : على العاقل ألاّ يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس ما استطاع إلاّ الأفضل في الدين وفي العلم وفي الأخلاق فيأخذ عنه ، أو موافقاً على إصلاح ذلك فيؤيدها عنده وإن لم يكن له عليه فضل ، فإنّ الخصال

(١) رواه أبو داود في الأدب ، والترمذي في الزهد .
(٢) رواه البخاري في الأدب ، ومسلم في البر ، والترمذي في الزهد ، والدارمي في الرقاق .

الصالحة من المرء لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمقوّين والمؤيدين ، وليس لذي العقل قريب ولا حميمٌ هو أقربُ منه وأحبُّ إليه من موافقيه على صالح الخصال ، ولذلك زعم بعض الأوّلين أن صُحبة بليدٍ نشأ مع الحكماءِ أحبُّ إليه من صُحبة لبيب نشأ مع الجهّال.

قالوا : وكان أردشير الملك يقول : ما شيءٌ اضرَّ عليّ من معاشرة سخيف أو مخاطبة وضيع ، لأنه كما أن النفس تصلح على مخاطبة الشريف الأديب الحسيب كذلك تفسُدُ بمعاشرة السخيف حتى يقدح ذلك فيها ويزيلها عن فضيلتها، وكما أن الريح إذا مرّتْ بالطيب حملتْ طيباً تحيا به النفوس وتقوى به جوارحُها ، كذلك إذا مرّتْ بالنّتن فحملتْه تألمتْ له النفوس وأضرّ باخلاقها.

وقد قال في ذلك بعض الشعراء المصيبين :

وصاحبْ كلَّ ذي حَسَبٍ ودينٍ ... فإنّ المرءَ يُعْرَفُ بالقرين

وقال طرفة بن العبد:

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قرينه

فكل قرين بالمقارِن يقتدي[1]

تمحيص الرأي

فيجب على الملك وغيره ممن يحب تعلُّمَ العلوم ، ولا سيّما علم الديانة والاعتقاد ، ألاّ يقلّد أحداً في دينه ، ولا يقبل منه مذهبه إلا بعد تدبُّرٍ وتفكُّر وحُجّة ومناظرة وتبينٍ ومُباحَثةٍ ، ولا يجعل بينه وبين شيء من المذاهب عداوةً ولا ولاية إلا بعد شهود الشواهد وقيام الدلائل على صحته أو فساده . وإذا كان على مذهب قد نشأ عليه وقَبِلَه واختاره واعتقده فلا ينتقل عنه إلى غيره إلا بَعْد تبينِ المُنْتَقَلِ عنه وصحةِ المنتقل إليه ، فإذا تبين عنده فسادُ مذهَب فلا يجب أن يعاند فيه ويتعصب

(١) ليس في معلقة طرفة كما رواها ابن الأنباري في شرح القصائد السبع ونسب بعضهم هذا البيت الى عدي بن زيد.

له ، ولا ينظر فيه إلى كثرةِ أهلٍ وعددٍ وعزةِ أصحابٍ ودولٍ ، فإن هذه أسبابٌ كثيراً ما تغرُّ الأغمارَ والجهّالَ ، وتخدع العوامَّ والأغفالَ ، وهي كلها قد تنفق في الباطل كما تنفق في الحق ، ولكن الواجب أن ينظر إلى صحة المذاهب بدلائلها ويحكم لها بشواهدها التي جمُلتُها الكتابُ المأمورُ بتصديقه ، والسُّنَّةُ المندوبُ إلى اتباعهـا ، والعقلُ المجْمَعُ على تصديقه ، وإجماعُ الأُمّة المشهودِ لها بالعدالة ، لأن التمادي في الباطل مذمومٌ عند الجميع ، واللجاجُ عند ظهور الحق سَفَهٌ عند الجمهور ، ولا معنى فيهما يعقل ، ولا فائدة وراءها تُؤَمّلُ ، لأن المراد من العلم والنظرِ والتبـينِ والفكرِ إصابةُ الحق ، والبُغْية منه الظفرُ بالصواب ، فإذا أصابه فلا معنى للعنـاد والجحدِ وتضييعِ المبتغَى والمطلوب .

ولا يجوز للملِك أن يُشْعِر قلْبَه الاستنكافَ والأَنَفَةَ والتِّيهَ من الانقيادِ لخصمه والرجوع عن مذهبِه على يده ، إذا تبين خطأه وظهر فسادُه ، فإنّ مَن نظر أو ناظَرَ أو فكّر أو دبّر فاستبان له خطأُ مذهبه وبطلانُ مقالته كان أحْسَنَ ظفراً وأجْزَلَ حظّاً وأوفرَ قِسطاً ، بل كان الحظُّ كله له ، والفائدةُ بأسرْها عنده .

وقد قال أرسطاطاليس : أيُّ ملِك تمادى في رأيه بَعْد ظهور الخطأ له فهـو مُعين على نفسه سارٌّ لأعدائه . أيُّ ملِك عمل باللجاحة فهو منفردٌ بغرّته وهو من العطب قريب .

وقد احتال قومٌ من أعداء الدين ومُخالفي المِلل على ما تقدّم في كتابنا فقالوا في كتبٍ قد ألّفوها ومخاريق قد صنّفوها : إنّ الملِك السائس لا ينبغي له أن يشتغـل بالنظر في المذاهب ، ولا ينسب إلى أحدها دون الآخر ، ولا ينصر أقواها دلالـةً وأثبتها شهادة ، واعتّلوا بأن ذلك مما يفرّق عليه الجماعة وينفّر عنه قلوب أكثر الرعيّة ويشتت عليه آراءَ العامّة .

وقد بيّنّا أنها حيلة ضعيفة ومكيدة واهية سخيفة ، وكشفنا عن وجوه ما في

علم الدين من الفضائل التي تعود بصلاح المملكة والملك ، وفيما وصفوه تصريحٌ بأن الملك يجب أن يكون كافراً جاهلاً وغُفلاً غافلاً عن مصالح معاده ومعاشه ومحاسن دينه ودنياه .

وعلى خلاف هذا جرت العادة ووردت الآثار المشاهدة عن الأنبياء والخلفاء والملوك الفضلاء على مرّ الأيام وتتابع الأزمان والأعوام ، بل كان الذين ذكرناهم من الملوك ذابّين عن أديانهم ، ناصرين لملكهم ، مقاتلين عن أخلاقها ومجاهدين في سُبُلها ، داعين إليها ، مستخفّين مُنكّلين بمن أطّلعوا منه على ابتداع مذهب فاسد ومقالة ضالّة .

وقد ذكرنا فيما تقدّم من كتابنا أنّ عامّة الخلفاء كانوا يذهبون مذاهب ويقولون أقاويل ، عليها يوادّون ويُوالون ويناظِرون حتى لا يُرى منهم من خالَفَ هذا المذهب إلا قليلاً .

ومما كتب به أرسطاطاليس إلى الاسكندر: تمسّك بإثبات[1] السنّة فإن فيها كمال التقى ولا تصارم من كان على الحق ولا تحارب المتمسك بالدين . دافع عن دينك تصلح عاقبتك .

وقال : اي ملك يعصي سُنّةً وضعها مَن تقدَّمَه بلا حُجة تصحّ له من بطلان السُّنّة الأولى فهو معاند .

وقد قال أردشير في هذا المعنى كلاماً جامعاً لعامة ما ذكرنا وهو أنه لا ينبغي للملِك أن يعترف للنُّسّاكِ والمتنبئين أن يكونوا أَوْلى بالدين ولا أَحْدَب عليه ولا أغضَبَ له منه ، ولا ينبغي للملِك أن يدعَ النُّسّاك بغير الأمر والنهي لهم في نسكهم

(١) المراد بالسنّة هنا الطريقة المثلى المتّبعة

ودينهم ، فإن خروج النسّاكِ أو غير النُّسّاك من الأمر والنهي عيْبٌ على الملوك وعيبٌ للمملكة، وثُلْمةٌ تستبينها الناس بيِّنةُ الضرر للملِك ولمن بعده . وقال: واعلموا أن العاقل المحروم سالٌّ لسانَه عليكم وهو أقطعُ سيفيه ، وإن أشد ما يضركم به من لسانه ما صرف الحيلة فيه إلى الدين ، فكان بالـدين يحتـج ، وللـدين فيما يظهـر يغضب ، ويكون للدين نكاؤه وإليه دعاؤه . ثم إنه أوْجَـدُ للتابعـين والمصدّقـين والمناصحين والمؤازرين منكم ، لأن بغضة الناس موكّلةٌ بالملوك ، ومحبّتهم ورحمتهم موكلة بالضعفاءوالمغلوبين .

وقد قرأنا لبعض ملوك الهند في عهد له إلى ابنه : فإذا أشكلتْ عليك الأمورُ فليكن مَفْزعُك فيها إلى العلماء ، فإنّ أدنى غايات العقل التي يصلح عليها أمـر الوالي أن يكون عنده من الرأي ما يعرف به فضل الخطة المصيبة على الخطة المردية إذا وردت عليه . قال : ولعل رأيك يُريك أنّ أخْذك عن الناس واقتباسك منهم مُزْرٍ بك عندهم أو مسخف لأمرك في أنفسهم ، فإنْ عَرَضَ ذلك فاطّرحْـه أشـد الاطّراح ، فإن الذي تسعد به من فائدة العلم أو تشقى به من مخالفة الجهل أعظم خطراً في النفع لك والضرّ عليك من أن يعدله شيءٌ سواه .

فهذه آراءُ الفضلاء من الملوك والحكماءِ من ذوي العقول في طلـبِ العلـم وتبينِ الصواب ، وابتغاء الحق ، والتديُّن بالصدق . وهم أوْلى بالاقتداء بهم وأحقُّ وأجدرُ وأَخْلَقُ .

طريق العمل

ومما يجب على الملِك إذا علم ما ذكرناه من فنون العِلم ، وصح له اعتقاده في أصول الدين ، وقويت بالله معرفته ، وتحقّق عنده معدلتهُ وحِكمتُه ، وانتهى إلى ما أشرنا عليه به من التمسّك بالتقوى وإصابة طريق الهدى أن تكون مساعيه وأفعالُه وسيرُه وأقوالُه وآدابُه التي يتأدبُ بها وسياساته التي يجري عليها وعاداتُه التي يختار اعتيادها واقتناءَها مأخوذةً من جهتين :

إحداهما هي الاقتداء بالله ـ جل وعز ـ في أفعاله وما أظهر من دلائل حكمته

وآثار صنعته من صواب القول وصالح العمل فيما يجوز له إدراكه ويحسن به طلبُه وابتغاؤه ، وتحويه مقدرتُه ويبلغ طاقته ، فإن ذلك أرفعُ ما تسمو إليه الهمم وينتهي إليه بُعْدُ الأمل ، وهو مع ذلك حدٌّ من حدود الفلسفة ومعنى من معاني الحكمة .

والثانية - أن يأتمر له بما أمَرَ به ، شكراً له - جلّ وعز - على آلائه ، واعترافاً له بحُسْن بلائه ، لما ذكرناه متقدماً أن ذلك أوْلى به وأشْبَهُ بعلو منزلته وشرف رُتْبته .

فإذا علم وعرف وصحّ عنده ووقف على أن الله قد وَصَفَ نفْسَه بالحكمة ، ودلّت الدلائل مِن شواهده في خَلْقه على أنه حكيم - اجتهد في استحقاقِ هذا الاسم واستفادةِ هذه الصفة ، على مقدار الطاقة ومبلغ المعونة مِن خالقه وبارئه ومبدعه ومُنشئه .

معنى الحكمة

ومعنى «حكيم» يوجد في اللغة العربية على وجهين:

أحدهما - على معنى العالم ، والعليم هو الذي لا تخفى عليه الأشياء .

والآخر - أنه مُحكم لأفعاله وأقواله ، ولا تفاوت في فِعله ، ولا تناقض في خلقه ، ولا عيبَ ولا فسادَ ولا لِعبَ ولا خطأ في حُكْمِهِ .

فأما معنى العِلم فقد ذكرنا وبيّنّا ما يجب على المَلِك من اقتنائه وإيثاره واستفادته واختياره والاختصاص بأجل فنونه شأناً ، وأعظمها نفعاً ، وابْينها حُجةً وأعمّها صلاحاً .

وأما المعنى الآخر فإنا نقول : إن من الواجب على المِلك في جلالة شأنه وعلوّ مكانه أن يجتهد أن تكون أفعاله كلها جِدًّا لا هزل فيها ، وحكمة لا عبث فيها .

ولقد قرأنا لبعض الحكماء من ملوك الهند في عهده أنّ الله لم يرْضَ لنفسه من عباده إلا بمثل ما رضي لهم به منه ، فإنه رحيم وأمرهم بالتراحم ، وصَدَقهم وأمَرَهم بالصدق ، وجاد عليهم وأمرهم بالجود، وعفا عنهم ورضي لهم بالعفو ، فليس

قابلاً منهم إلاّ مثل الذي أعطاهم ، ولا آذنا لهم في غير ما آتاهم .

فاعط مَن وليت مِن عباد الله مِن رأفتك ورحمتك وجُودك ما ترغب في مثله لنفسك من ربك ، موقناً بأنك إذا أعطيت ذلك مَن أُمِرْتَ أن تعطيه أعطاكه اللهُ ، وأنك إن منعته مَنَعكَهُ الله .

الجـد والهـزل

قال : وقيل للإسكندر ما علامة دوام المُلْك؟ قال: الجِدُّ في كل الأمـور . قيل : فما علامة زواله؟ قال : الهزل . وقديماً ما قيل : إن الجد لقاح الشرف .

قالوا وكان أنو شروان الملك وجّه رسولاً إلى بعض أعدائه من الملوك ، فأمره أن يتعرف سيرته في نفسه ورعيته ، فرجع إليه فقال : أيها الملك وجدتُ الهزل عنده أقوى من الجِد ، والكذب عنده أكثر من الصدق ، والجور أوقع من العدل . فقال أنوشروان : رُزِقْتُ الظفرَ به . ثم دعا بعض قواده فقال له : سرْ إليه وليكن عملك في محاربته بما هو عنده أضعف وأقلّ وأوضع ، فإنك منصور وهو مخذول ، فسار إليه فقتله وغلبه واستولى على مملكته .

قال : وكان أنو شروان يقول : الهزلُ آفة الجد ، والكذبُ عدوُّ الصدق ، والجور مفسدة العدل ، فإذا استعمل الملِكُ الهزلَ ذهبت هيبته ، وإذا استصحب الكذب استُخِفَ به ، وإذا أظهر الجور فسد سلطانه .

قالوا : وكان نقْش خاتم رستم : الهـزل منقصـةٌ ، والكذب منغصـة ، والجور مفسدة .

الجـود والشجاعة

وإذا علم الملِك خبراً أو دلالة أن الله ـ جلّ وعزّ ـ جواد لتفضله على خلقه بالنعم الجسام والآلاء العظام ـ اجتهد في السعي لاستحقاق هذا الاسم وإدراك هذا المعنى بغاية وسعه ومبلغ جهده ، فلا يضنّ على أحد من خلق الله بموجود يجـوز الجود عليه به .

هذا على ما عرف من مدح الناس الجوادَ وذمّهم البخيل على وجه الدهر ومر الأيام ، وفي كل جيل وطبقة ، وأهل دين ونحلة ، وبكل لسانٍ ولغة .

وإذا عرف أنّ الله ـ جلّ ذكره ـ قد وصف نفسه بالقدرة ، وامتدح إلى خلْقه بصفة القوة ، ودلّ على ذلك بشواهده الظاهرة ، ودلائله القاهرة ، وعلم مع ذلك أن الله قد قلّده الانتقام من أعدائه وعُصاةِ خلْقه ، والحكمَ بينهم وإنصافَ مظلومهم من ظالمهم ـ اجتهد في إدراك هذه الصفة الفاضلة على مقدار طاقته ومنتهى قدرته . وسبيله إلى ذلك بأن يرتاض باستعمال آلات الشجاعة ، وتعلُّمِ أبواب المحاربة والمواقعة ، حتى يصير بحيث ينال هذه الفضيلة ، ويستحق هذه المنقبة ويستأهل هذه الصفة من المواقعة والمواثبة والفروسية والمراكضة والسباق والرماية وتمرين النفس على الصبر الشديد وحمل السلاح الثقيل وكل ما يُعين على ذلك ، فإن الإنسان يزيد بمثل هذه الأمور قوةً الى قوّته ويضيف قُدْرةً إلى قُدْرته ، كما أنه يتعلم العلم والاستفادة من أهل العقول والأفعال فيزيد عقلاً إلى عقله وعلماً إلى علمه .

وإن الله ـ عز وجل ـ قد أمر الملوك بقتال الكفار والبُغاةِ والفُجّار من كل طبقة من أعداء الدين ، وأخبر أنّ فيه صلاحاً للخليقة وتحصيناً للرعيّة وإعزازاً للديانة ، فقال ـ جل وعز ـ : ﴿ **وأنزَلْنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافِعُ للناس** ﴾[1] . ولا يتهيأ استعمال الحديد عند المناجزة والمقارعة لمن لم يتدرب به ولم يَعْتَدْه . وحاجة الملوك إلى القتال والمحاربة واستعمال السلاح عند الملاقاة والمواقعة أشهرُ من أن يحتاج معه إلى استدلال ، وعليه إلى إستشهاد .

الحلم والعفو

ثم إذا علم أن الله ـ تبارك وتعالى ـ مع قدرته على معاجلة العاصين من خليقته ، وقوته على مؤاخذة الغُواة من بريته ـ وَصَفَ نفسه بالحِلم ، ودلّ عليه خبراً وعقلاً ، إذ كان ولم يزل عالماً بمعاصي عبادِه له وكفرِهم به وجحْدِهم لِنِعَمِه

(١) آية ٢٥ الحديد

وافترائهم عليه ، وهو يحلم عنهم ولا يعجل بعقوبته ، ثم وصف نفسه بهذه الصفة حيث يقول : ﴿ إنّ اللهَ غفورٌ حليمٌ ﴾[1] . ويقول : ﴿ وكان اللهُ عليماً حَليماً ﴾[2] . ومدح به نبيّه إبراهيم ﷺ حيث يقول : ﴿ إنّ إبراهيمَ لأوّاهٌ حَليمٌ ﴾[3] ـ وجب[4] عليه أن يقتديَ به وبنبيّه ﷺ ولا يعجل بعقوبة المذنب ، ولا يُسرع إلى الانتقام من المجرم حتى تحقّ الكلمةُ وتُقطع المعذرةُ وينقطع الطمعُ من التوبة والإنابة ولا تحمله قدرتُه الجبروتية ومملكته الأمديّة على لؤم الانتقام وسرعة الانتصار وترك الاستثناء بالمعاقبة . وليذكرْ قُدْرَةَ الله عليه وكثرة أياديه لديه وإحسانَه إليه ، ثم كثرة عصيانه له وحِلْمه عنه ، فلا يعامل من تحت يده إلا بما يحبه من فِعْل الله ـ جل وعز ـ ، على ما يعلم مِن مدح الناسِ الحليمَ وتعظيمهم له ، وذمهم من على خلافه واستخفافهم بصاحبه .

وكذلك إذا وجد الله ـ جل ذكره ـ قد وصف نفسه بالعفو عن المذنب ، والصفح عن المجرم ، وغفران الذنوب ، فقال : ﴿ واللهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾[5] . وقال : ﴿ وكان اللهُ غفوراً رحيماً ﴾[6] . مع ما ذكرنا من كثرة معاصي العباد وأنواع عُنودهم[7]، وأصناف كنودهم ومخالفتهم لأوامره وارتكابهم لزواجره ـ وجب[8] أن يقتدي به في هذا الفِعل فيعوِّد نفسه العفو عن كثير من المذنبين ، والنظر في معاذير المجرمين فيطلب لهم مخارجهم ويقبل توبتهم ويُقيل عثراتهم ما لم يرتكبوا حدّاً يجب إقامته أو عظيمة تعود نقصاً بالشريعة ، وتنقص سُنن الملّة ، وتقدح في انتظام أمور العامّة وعمارة أسباب المملكة ، فإنّ ذلك أبلغ في المكرمة وأوْلى بذي

(١) آية ١٥٥ آل عمران
(٢) آية ٥١ الأحزاب
(٣) آية ١١٤ التوبة
(٤) جواب الشرط لقوله «ثم إذا علم» . في الصفحة السابقة .
(٥) آية ٢١٨ البقرة، وغيرها .
(٦) آية ٩٦ النساء، وغيرها .
(٧) عُنود مصدر عنِد بمعنى العناد
(٨) جواب الشرط لقوله «إذا وجد الله»

الرفعة والمقدرة ، وأقربُ من إستيفاء الصنيعة واستعطاف ذوي الحرمة . ثم لم يزل الملوك والحكماءُ والعظماءُ والفضلاءُ يمدحون ويمتدحون به ، فروي عن أمير المؤمنين عمر ـ رحمه الله ـ أنه كان يقول : متى أشفي غيظي حين أقدر فيقال لي : لو عَفَوْتَ ، أو حين أعجز فيقال لي : لو صبرْتَ ؟

وقال معاوية : إني لأستحي من عقلي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، أو يكون جهلٌ أكثر من حلمي ، أو تكون عورة لا أُواريها بستري .

قالوا : وكتب المهلَّبُ إلى الحجّاج في أمر العُصاة الذين تركوا عسكره ورجعوا إلى الكوفة : أما بعد فإنه لن يفارقني من رَجَعَ إليّ ، وانه لا مُلْك أبقَى مِن مُلْكٍ فيه عفو ، وإن الناس إذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب وراجعوا التوبة .

وقال في فصل آخر : ما شيءٌ أنهى من العفو ، وإن الرعيّة إذا وثقت بالعفو لم توحشْها الذنوبُ وإنْ عَظُمَتْ ، وإن خافَتْ شدةَ العقوبة أوْحشها الذنبُ وإنْ صَغُرَ قَدْرُه حتى يضطرها إلى المعصية .

قالوا : ومِن كَرَمِ العفوِ أنّ الله قدَّمَ العفوَ لنبيّه قبل العقاب فقال : ﴿ عفا الله عنك لِمَ أَذِنْتَ لهم ﴾[1] .

قالوا : وكان الحجاج يقول : العفو عن المقِرّ لا عن المصِرّ .

قالوا : وأَسْمَعَ رجلٌ عمرَ بن عبد العزيز كلاماً قبيحاً ، فقال : أَرَدْتَ أَنْ يستزلني الشيطانُ بعزة السلطان فأنال منك مثلَ ما تنال مني غداً[2]؟ واللهِ لأعفونّ عنك فاذهبْ راشداً .

كتمان السر وإذا وجد الله ـ تبارك اسمُه ـ مُطَّلعاً على سرائر عباده ، وعلى ما أظهروا وأضمروا ، وأعلنوا وأسرّوا من معاصيهم وفسوقهم وذنوبهم ومروقهم وفجورهم

(١) آية ٤٣ التوبة
(٢) غدا : إشارة الى القصاص يوم القيامة

وكفورهم ، فلم يفضح كثيراً منهم ولو بهتك أستارهم ، ولم يُظْهِر أسرارهم ، وقد وصف بذلك نفسه حيث قال: **﴿ عالم الغيبِ فلا يظهر على غَيْبه أحداً إلا منَ ارتضى مِن رسول﴾**[1] وقال حكاية عن نبية يعقوب ـ عليه السلام ـ انه قال ليوسف: **﴿لا تَقْصُصْ رُؤياكَ على إخْوتِك فيكيدوا لكَ كيداً إن الشيطانَ للانسانِ عدو مبينٌ﴾**[2] .

على أنه قد روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله: استعينوا على أموركم بالكتمان فإنّ كل ذي نعمةٍ محسودٌ.

وأنه كان إذا أراد سفراً ورّى بغيره ـ وجب[3] عليه في جلالة مرتبته ورفعة منزلته أن يعوّد نفسه كتمان السر فلا يطلع عليه أحداً.

وقد حكى أردشير ذلك عن نفسه في عهده حيث قال: اتقوا باباً واحداً طالما أَمِنْتُه فضرّني ، وحذرْتُه فنفعني ، احذروا إفشاء السر عند الصِّغار من أهليكم وخَدَمِكُمْ فإنه لا يَصْغُر أحدٌ عن حمل السرّ كاملاً لا يُضيّع منه شيئاً حتى يصفه ، إما سقطاً وإما غِشاً ، والسقطُ أكثرُ.

وفي رسالة ارسطاطاليس إلى الاسكندر : أيّ ملك جاوز سرُّه وزيرَه فهو في حد ضعيفي السوقة.

على أن الناس كافة لم يزالوا يمّدحون ويمتدحون بكتمان السرّ وطيِّه ، ويذمون ويتذامّون على إذاعته ونشرِه ، وقال فيه بعض الشعراء:

مـا يكتـمُ السرَّ إلاّ كلُّ ذي خَطَـرٍ
والسرُّ عِنْـد خيارِ النـاسِ مكتـومُ

(١) آية ٢٦ و ٢٧ الجن
(٢) آية ٥ يوسف
(٣) جواب الشرط لقوله «وإذا وجد الله».

والسرُّ عِنــديَ في بَيْتٍ له غَلَــقٌ
قــد ضاعَ مفتاحُــه والبــابُ مختومُ

وقال آخــر:

إذا جاوزَ الاثنــين سرٌّ فإننــي
ببَــث وتكثــير الحــديــثِ ضَميــنُ
وعنــدي له يومــاً إذا ما ائتُمِنْتُــه
مــكان ســويــداء الفــؤاد دفيــنُ

فإنْ لم يكن مِن افشاء السرّ في بعض الأحوال بُدٌّ ، ولم يجد العاقلُ مِنـه حيلةً ، اختار لسرّه أهل الخبرة والعقل والدين والفضـل والأمانة والنصيحة ومَن يهمُّه مِن إذاعةِ سرِّه ما يهمُّه ، ويعنيه من كتمانه ما يعنيه .

الصدق

وكذلك إذا وجد اللهَ ـ جلّ ذكرُه ـ قد وصَفَ نفْسَه بالصدق وأَمَر به فقال: ﴿ ومَنْ أصْدَقُ مِن اللهِ قيلاً ﴾[١] . وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[٢] . وقال : ﴿ وصَدَق المرسَلون ﴾[٣] . وقال : ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صِدْقُهم ﴾[٤] .

ونهى عن الكذب وذمَّ عليه ، قال رسـول الله صلى الله عليه وسلـم «إنّ الصدقَ يهدي إلى البِرّ وإنّ البِرَّ يهدي إلى الجنة . وإنّ الكذبَ يهدي إلى الفجور وإنَّ الفجور يهدي إلى النـار» .

في أشباه كثيرة لهذه الآيات والآثار ـ وجب[٥] عليه أن يقتدي بالله وبرسله فيهذب كلامه وحديثه عن الكذب ، ويجتنبه ولا يتدنس به .

---

(١) آية ١٢٢ النساء
(٢) آية ١١٩ التوبة
(٣) آية ٥٢ يس
(٤) آية ١١٩ المائدة
(٥) جواب الشرط لقوله «وكذلك إذا وجد الله» .

وكذلك إذا وجد الله ـ جلّ ذكره ـ قد هذب كلامه عن الخنا والفحشاء الذي تشمئز منه النفوس وتقشعرّ منه الجلود استقذاراً له، حتى عبّر عن بعض الألفاظ بالغائط، والغائط هو الأرض المطمئنة من السهل، وعن معنى آخر هو المجامعة، والنبي عليه السلام كنّى عن ذلك بالبعال والمضاجعة والمباضعة والإفضاء ـ وجب[1] على المِلك أن يتأدب بأدب الله ـ جل وعز ـ في تهذيب ألفاظه عن ارتفاع الخنا والقذع والبذاء والشتم والهُجْر والفحش الذي يوجب الحد ويسقط العدالة، ويدل على سوء العادة ولؤم المخرج والمنشأ ويوجب عذاب النار في الآخرة، ويبقى قبح الأحدوثة والقالة.

الوفاء بالعهد

وكذلك إذا رأى الله قد وصف نفسه بإنجاز الوعد والوفاء بالعهد فقال: ﴿ **إنّ الله لا يُخْلِفُ الميعادَ** ﴾[2]. وقال: ﴿ **وعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم** ﴾[3]. وقال: ﴿ **وعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ الله وعْدَه** ﴾[4].

وأمر عباده أن يُثنوا عليه ويدعوا به فقال: ﴿ **لا يُخْلِفُ اللهُ الميعادَ** ﴾[5]. وقال فيما يأمر به عباده: ﴿ **وأوْفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتم** ﴾[6]. وقال: ﴿ **وبعهدِ اللهِ أوْفوا** ﴾[7]. وقال: ﴿ **وأوْفوا بالعهدِ إنّ العهد كان مسئولاً** ﴾[8].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا دِينَ لمن لا عَهْدَ له. وقال: إنّ حُسْنَ العهد لمن الإيمان».

---

(١) جواب الشرط لقوله: «وكذلك إذا وجد الله».
(٢) آية ٩ آل عمران
(٣) آية ٥٥ النور
(٤) آية ٦ الروم
(٥) آية ٢٠ الزمر
(٦) آية ٩١ النحل
(٧) آية ١٥٢ الأنعام
(٨) آية ٣٤ الإسراء

وروى عن نبي الله داود ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لا يَعِدنّ أحدُكم أخاه عِدَةً ثم لا ينجزها[1] له فإن ذلك يورث بينهما العداوة.

هذا بعد أن أخبر الله أن خُلْف الوعد من كبائر الذنوب حيث قال: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لمَ تقولون مالا تفعلون . كبُر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾[2].

مع أن الناس لم يزالوا يمدحون ويمتدحون بالوفاء بالعهد وإنجاز الوعد، ويذمون ويتذامّون بخلافهما، فروى عن جليل من حكماء العرب أنه قال: لأن أموت عطشاً أحبُّ إليّ من أن أكون مخلف الوعد.

وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بإنجاز المواعيد وقال فيه بعض الشعراء:

إذا قلْتَ في شيء نَعَمْ فأَتمَّه
فإنّ نَعَمْ دينٌ على الحرِّ واجِبُ

شكر النعمة

ومن ذلك شكرُ النعمة ومعرفة الصنيعة، والمكافأة على الحسنة، فإنّ الله ـ عز وجل قد وصف نفسه وأمر به عباده حيث يقول: ﴿ **وكان اللهُ شاكراً عليماً** ﴾[3] ويقول: ﴿ **واللهُ شكورٌ حليم** ﴾[4].

ويقول لعباده: ﴿ **واشكُروا لي ولا تكفُرونِ** ﴾[5]. ويقول: ﴿ **لئن شَكَرْتم لأزِيدَنّكم** ﴾[6]. فيجب على الملك أن يتمثل هذا المثال الذي وصف الله به نفسه وحثّ عليه خلْقه.

(١) رواه الدارمي في الرقاق.
(٢) آية ٢ و ٣ الصف
(٣) اية ١٤٧ النساء
(٤) آية ١٧ التغابن
(٥) آية ١٥٢ البقرة
(٦) آية ٧ إبراهيم

قالوا : ومعنى الشكر لله ولمن فوقك بالطاعة ، وللنظير بالمكافأة ، ولمن دونك بالإفضال عليه والإحسان إليه ومعرفة ما يتقرب به إليك .

وكذلك إذا وجد الله ـ جل وعز ـ متنزهاً عن الفواحش ، متعالياً عن المحارم ، متقدساً عن المظالم ـ اجتهد في إدراك هذه الصفة بمبلغ طاقته وكُنْه مقدرته ، فيعف عن المطامع الدنية والشهوات المحرمة المخلقة للعِرض والمروءة ، المنهي عنها في الملة والشريعة ، فإنها عار وشنار وطريق إلى عذاب النار . والله جل ذكره ـ نفاها عن نفسه ونهى عنها عباده بقوله : ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاءِ ذي القربى وينهَى عن الفحشاءِ والمنكر والبغْي ﴾[1] . وقال : ﴿ إنما حَرّم ربي الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ والإثمَ والبغيَ بغير الحق ﴾[2] . وقد بيَّنا أن الواجب في جلالة أقدار الملوك وارتفاع شئونهم وعلوّ مراتبهم الترفعُ عنها وصيانة الأعراض عن التدنس بها .

وفيما كتب به ارسطاطاليس إلى الاسكندر : إياك والطمعَ فإن فيه فسادَ الملْك ، وقديماً ما قالوا : الطمع ذلٌّ . وقالوا : الطمع الكاذب فقرٌ حاضر .

وحكي عن أفلاطون : أنكِروا الفجور فإن فُشُوَّه يهُلك الأُمة وهو من خواص الدواب الدنيئة . قال : واعلم أنك فائز إن لم يصرعك المال والشهوات .

مخالفة الهوى

ومما أمر اللهُ به مخالفةُ الهوى ، ومتابعةُ الحق ، فإن الله ـ عز وجل ـ يقول : ﴿ وأمّا مَن خاف مَقام ربِّه ونَهَى النفسَ عن الهَوى فإن الجنّةَ هي المأْوى ﴾[3] . وقال : ﴿ ولو ا تبعَ الحقُ أهواءَهم لفَسَدَت السمواتُ والأرضُ ومَن فيهنّ ﴾[4] .

---

(١) آية ٩٠ النحل
(٢) آية ٣٣ الأعراف
(٣) آية ٤١ النازعات
(٤) آية ٧١ المؤمنون

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أخوفُ ما أخافُ على أُمتي الهوى وطولُ الأمل فإن الهوى يصُدُّ عن الحق ، وإنّ طول الأمل يُنسي الآخرة ».

وقال أمير المؤمنين عليٌّ : أخشى عليكم اثنين طول الأمل والهوى .

ولقد قرأنا لسابترم ملك الهند في عهد له إلى ابنه : واعلم أنك قد بُليت من طبائعك ومكابدة أهوائك بحرب لا حرب أنفع لك من النصر فيها ، وأضر شيء عليك الهزيمة فيها ، ولا حرب إلا سيحتاج صاحبها الى المادة ، فاستمِدّ لحِلمك من أحلام العلماء ، ولعلمك من علمهم ، ولعقلك من عقلهم ، فإن العقل الفرد لا يقوى على أمر العامة ، ولا يكتفي به في أمر الخاصة .

التواضع

ومما أمرَ اللهُ به التواضعُ وتركُ التكبّر ، فإنّ الله جل ذكره قد نهى عنه وأخبر أنه لا يحبه من عباده ، فقال : ﴿ **إنّ اللهَ لا يحبُّ من كان مُختالاً فَخوراً** ﴾[1] . وقال حكاية عن لقمان الحكيم : ﴿ **ولا تَمْشِ في الأرض مَرَحاً إنك لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تَبلُغَ الجبالَ طولاً** ﴾[2] .

وروى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله يقول: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازَعني واحداً منهما قَذفتهُ في النار[3]» .

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «مَنْ تواضَعَ لله رَفَعَه اللهُ»

على ما في هذه الخصلة من استعطاف الخاصّة والعامّة، واستمالة قلوب الكافّة ، وازدراع المحبة في الرعية ، واتباع سنن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السيرة .

وما زال العقلاء يقولون : التواضعُ من فِعل الكرام .

---

(١) آية ٣٦ النساء

(٢) آية ٣٧ الإسراء

(٣) رواه مسلم رقم ٢٦٢٠ في البر والصلة ، وأبو داود رقم ٤٠٩٠ في اللباس وقد جاء في المخطوطة محرفاً فصوبناه من هذين الكتابين .

وقال أرسطاطاليس : البذخ رأس الفشل .

وقد أشبعْنا هذا الباب في باب المواعظ بما فيه كفاية عن غيره ومندوحة عما سواه .

الرضا بالمقسوم

ومن ذلك استقامة الطريقة حتى لا يبطر بالنعمة المستفادة فرحاً ، ولا يأسى على ما يفوته منها جزعاً ،فإن ذلك مّما حث الله عليه ومدح به في قوله :﴿ **لكي لا تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفْرحوا بما آتاكم** ﴾[1] . على أنه من الأخلاق التي مدح بها الحكماءُ الرجالَ فأطنَبوا ، ووصفوه في المفاخر فأكْثَروا ، فروي عن ابن عباس ـ رحمه الله ـ أنه قال : ما انتفعْتُ بكلام أحدٍ بعد رسول الله ﷺ كانتفاعي بكلام كتب به إليّ عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو : أما بعد فإن المرءَ ليسرُّه درك ما لم يكن ليفوته ، ويَسُوؤه فوتُ ما لم يكن ليدركه فليكن سرورك بما نِلتَ مِن آخرتك ، وليكن أسفُك على ما فاتك منها ، وما نِلتَ مِن دنياك فلا تكثر به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأْسَ عليه جزعاً ، وليكنْ همُّك فيما بعد الموت .

ورُوي عن عثمان بن عفان هذان البيتان :

وإذا غَنيتَ فلا تكن بَطِراً ... وإذا افتقـرْتَ فَتِـهْ على الدهرِ
واصبِـرْ فلسـتَ بواجـدٍ خُلُقاً ... أدنـى إلى فرج من الصبرِ

وكتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر : لا تُفْرِط في الجزع على ما فاتك فإن ذلك من خواص النساء والضعفى.

وقد قال في الجاهلية لبيد :

ولا أنـا إن تأتـي طريف بفرحة ... ولا أنـا مّمـا أحْـدَثَ الدهـرُ جازعُ

وقال النابغة في مدح بني غسّان :

ولا يَحْسَبـون الخـير لا شرَّ بَعْدَه ... ولا يَحْسَبون الشرَّ ضَرْبـةَ لازب

(١) آية ٢٣ الحديد

وهذا باب جليل لا يفي به إلا الشهمُ الحُوّلُ[1] من الرجال:

وأحدُ قسمي هذه الفضيلة الصبرُ على الشدائد والمكاره ، وقد أثْنى اللهُ ـ جل وعز ـ على الصابرين وأمر بالصبر حيث يقول : ﴿ **واصْبِرْ على ما أصابك إنّ ذلك مِن عَزْم الأمور** ﴾[2] . ويقول : ﴿ **والصابرين في البأساءِ والضرّاءِ وحين البأسِ** ﴾[2] . ثم أثنى عليهم فقال : ﴿ **أولئك الذي صَدَقوا وأولئك هم المتّقون** ﴾[3] . وقال : ﴿ **الذين إذا أصابَتْهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلواتٌ مِن ربهم ورحمةٌ وأولئك هم المُهْتَدون** ﴾[4] .

وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : لا أحد أصبر على الأذى من الله .

وأطبقَ أصنافُ الناس على اختلاف مذاهبهم وتفاوت طبقاتهم وطبائعهم وتبايُنِ أحوالهم على تفضيل هذه الخلة وعدِّها في الفضائل الجليلة والمناقب الشريفة . وقد قال بعض الشعراء المُجيدين :

الحرصُ عونٌ للزمان على الفتى ... والصبر نِعْم القِرنُ للإنسانِ
لا تخْضَعَنّ فإنْ دهرَك إنْ رأى ... منك الخضوعَ أمَدَّه بهوانِ
وإذا رآك وقد قصَدْتَ لصرْفِه ... بالصبر لاقى الصبرَ بالإذعانِ

وقال آخر[5]:

أَخْلِقْ بذي الصبر أن يحظى بحاجته
ومُدْمِنِ القرْعِ للأبواب أن يَلِجا

(١) الحُوّل: ذو الحيلة وحسن التصرف في الأمور، يقال: رجل حُوّل قُلّب إذا كان حسن التصرف ذا تجربة ودراية (اللسان ـ حال)
(٢) آية ١٧ لقمان
(٣) آية ١٧٧ البقرة
(٤) آية ١٥٦ ـ ١٥٧ البقرة
(٥) هو محمد بن بشير

لا تيأسَنَّ وإنْ طالت مُطالبَةٌ
إذا استعَنْتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجا

وقال آخر[1]:

صَبِّر النفسَ عند كلِّ مُلِمٍّ إنّ في الصبر حيلةَ المحتال
لا تَضيقَنَّ في الأمور فقد تكشف غماؤُها بغير احتيال
ربما تَكرَهُ النفوسُ من الأمْـ ـرِ له فرجةٌ كحلِّ العِقال

وقال آخر:

الصبرُ أولُه مُرٌّ مذاقتُه لكنّ آخِرَهُ أحْلى من العسل

ومن ذلك الأخذُ بالحزم ، وتقويةُ العزم ، وحذرُ الإقدام على الأمور من غير تبين الفرصة ، وقلةُ الاغترار بمن يدعو إلى التوكل وهو واجدٌ إلى الاحتياط سبيلاً وعلى وجه الرأي دليلاً ، فإن ذلك مما يؤدي إلى الهلاك ، والله عز وجل يقول : ﴿ ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾[2] .

أخذ الحيطة

وقد أمرَ اللهُ ـ جل وعز ـ بتغيير شكل الصلاة وهي عماد الدين عند ملاقاة العدوّ ومخافة القتل والدنوّ فقال : ﴿ وإذا كُنْتَ فيهم فأَقَمْتَ لهم الصلاةَ فلْتقُمْ طائفةٌ منهم معك وليأْخُذوا أَسْلِحَتَهم فإذا سَجَدوا فليكونوا مِن ورائكم ﴾[3] . إلى آخر الآية .

وروى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [أنه قال] : « إعقِلْها وتَوَكَّلْ » . وكان إذا مرّ بهدف مائل أسْرَعَ المشي . على ما فيه[4] من عادة التفكر والتدبّر ومجانبة التغافل والتهوُّر [في الأمور] واستخراج تأويل أواخرها ومعرفة عواقبها بمبادئها ،

(١) هو عبيد بن الأبرص
(٢) آية ١٩٥ البقرة
(٣) آية ١٠٢ النساء
(٤) الضمير يعود على الأخذ بالحزم وما بعده

وأُفولها بطلوعها وما فيها من سرور ذوي الرأي بالإصابة ومخايل السلامة وإبلاء المعذرة عند النفس.

على أن الناس لم يزالوا يذمّون المتهوّر المقدام على غير بصيرة ورَوِيّة.

وأحدُ قسمي الحزم سوءُ الظن، وتوهُّمُ الأمورِ على أشدّ ما تسبق إليه النفوس ويجوز كونُه في العقول، ولذلك ما جُعل في أخلاق الملوك أن لا يُعرف لهم مبيت ولا مقيل.

وحكي في سيَر ملوك آل ساسان من أردشير وسابور وبهرام جور ويزدجرد وأبرويز وأنوشروان أنه كان يفرش للملك منهم أربعون فراشاً ليس منها واحد إلا وإن تأمّله متأمّلٌ ونظر إليه من البُعد ناظرٌ ظَنَّه فِراش المَلِك خاصّة، ولعله أن لا يكون على واحد منها، بل ربما توسّد ذراعه ونام في ناحية لا يوقف عليه ولا يسبق الوهمُ إليه.

وقد أمر اللهُ نبيّه - عليه السلام - بهذا الباب حيث غاب عن فراشه عند نزول الوحي بما هَمَّ به المشركون ودبّروه عليه وأرادوا به.

والثاني - مشاورة أهل الرأي والفضل والعلم والعقل والدين والأمانة والعِفّة والتجربة ومَن يخصّه مِن الأمر المستشار فيه ما يخص المستشير، ديناً كان أو دنيا. وقد أمر الله نبيّه - صلى الله عليه وسلم - بعدما قدم إليه من التوفيق والتأييد والتقوية والتسديد، وضَمِن له من الإظهار والنصرة وإعلاءِ الكلمة والعصمة بقوله: **﴿ والله يَعْصِمُكَ من الناس ﴾**[1]. - بالمشاورة فقال: **﴿ وشاوِرْهم في الأمر فإذا عَزَمْتَ فتوكّلْ على اللهِ ﴾**[2].

---

(١) آية ٦٧ المائدة

(٢) آية ١٥٩ آل عمران

ومدح أقواماً بذلك فقال : ﴿ وأقاموا الصلاة وأمرُهم شورى بينهم ﴾[1] . وكانت هذه سيرة النبي ﷺ في عامة أيامة ، ولذلك ما قال فيما روي عنه : لي وزيران في السماء ووزيران في الأرض . وقال: لو كنت مستخلفاً أحداً من غير مشورة لاستخلفت ابن أم عبد[2] .

ثم لم يزل أهل العقولِ يفزعون إلى الشورى في كل ما يقع بينهم ويمدحون فاعله ويذمّون المستبد برأيه والمرتكب لأهوائه ، وقد قال فيه أحد الشعراء:

خليليّ ليس الرأيُ في صدْر واحدٍ　　　أشيرا عليّ اليوم ما تريانِ

وكان عبدالله بن المعتز يقول : المشورة راحة لك وتعب على غيرك .

وفي بعض كُتب الهند: مَن وَصَل عقول العقلاء بعقله استبان بها من الأمور مثل الذي يستبين في الظلمة نور المصابيح .

ولا يجوز للملِك أن يُغفِل هذه الخلة ويضرِب عنها صفحاً مع جلالة موقعه وعلوّ مرتبته وعِظم الخطر في كثير من أموره ، على ما فيه من الائتمار بأمر الله والاقتداء بنبيّه ﷺ .

العدل والتوسط في الأمور

ومن هذا الباب العدلُ في السيرة وسلوك الواسطة وتجنُّبُ أطراف الفضائل ومجاوزة الحدود، والميلُ إلى ترك الإفراط والتفريط فإنّ الطريقة المحمودة [هي] بينهما ، والشجاعة بين التهور والتحرّز ، والعبادة بين التهتُّك والتبتُّل ، والحزم بين الاستقصاء والإهمال ، والجود بين التقتير والتبذير ، والحِلم بين الطيش والتذلل ، والتواضع بين التملق والتكبر ، والغِنَى بين الإكثار والإقتار .

وقد بينّ الله ذلك في كتابه فقال لنبيّه ﷺ : ﴿ ولا تجعلْ يدَك مغلولةً إلى عنُقِك ولا تبسُطْها كُلَّ البسْطِ فتَقعُدَ مَلُوماً مَحْسوراً ﴾[3] . وقال :

---

(١) آية ٣٨ الشورى

(٢) رواه ابن ماجه ١١ المقدمة

(٣) آية ٢٩ الإسراء

﴿ والذين إذا أنْفَقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَواماً ﴾[1].
وقال فيما نقل عن لقمان في مواعظه لابنه : ﴿ ولا تُصعِّرْ خَدَّكَ للناس ولا تمْشِ في الأرض مَرَحاً ﴾[2]. ولقّن الله عباده الدعاءَ بالجمع بين حُسنى الآخرة والأولى فقال : ﴿ ومنهم مَن يقولُ ربَّنا آتِنا في الدنيا حَسَنةً وفي الآخرة حسنة ﴾[3]. وقال الله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[4].

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعبدالله بن عمرو بن العاص حين بَلَغَهُ أنه يصوم النهار ويقوم الليل. «إنك إذا فعلتَ ذلك هَجَمت عيناك ونهكت نفسك ولكن قُمْ ونَمْ وصُمْ وافطر[5]». وقال: «خيرالناس النمطُ الأوسط الذي يرجع إليه الغالي[6] ويلحق به التالي». وقال«إن هذا الدين متين فأوغِلوا فيه برِفْق».

وفي كتاب أمير نامه : لا تعظّم صغيراً ولا تُصَغِّرَنّ عظيماً ، ولا تَنْسَ القصد والقدر في أمورك كلها فإنّ مَن جاوز القدر مذموم وإن كان أوّلُه محموداً .

وكانت العرب تقول : أَحْبِبْ حبيبك هَوْناً ما عسى أن يكون بَغيضَك يوماً ما ، وابغضْ بغيضَك هوْناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما . والآثار في هذا الباب كثيرة ، وتفسير الضرر العارض في كل باب منه في المملكة والعمارة والسياسة والديانة ـ عسيرٌ ، ومن رام النظر فيه أمْكَنَهُ الوقوف عليه ، ومُتّبِعُ العدل فيه غريبٌ ، والآخذُ نفسه بالمذهب المرْضِي فيه عزيز . والملِك الفاضل أوْلى الناس وأحراهم باقتناء هذه الفضيلة واجتناب هذه الرذيلة .

الحسد

ومن هذا الجنسِ الحسدُ ، فإن الله ـ جل وعز ـ ذمَّ الحسدَ في غير موضع من

(١) آية ٦٧ الفرقان
(٢) آية ٣٧ لقمان
(٣) آية ٢٠١ البقرة
(٤) آية ١٦ التغابن
(٥) رواه البخاري ومسلم والنسائي في الصوم
(٦) الغالي : اي المتجاوز للحد . ومضارعه يغلو (مختار الصحاح)

وأعظم الله المنة على نبيّه ـ عليه السلام ـ حين رفع ذِكره فقال: ﴿ وَرَفَعْنَا لك ذِكْرَك[1] ﴾ .

ولم يزل العقلاءُ من ملوك العالمين والفضلاء من المؤمنين يسعون لهذه الخلة ويجتهدون في نيلها ويشترونها بالأبدان والأموال والأرواح والأملاك ، ورأوا أنّ بقاء الذكر بقاءٌ للمذكور حتى احتال لذلك كثيرٌ من الملوك والحكماءِ بأنواع الحيل ، فمنهم من طَلَبَه بابتناءِ الأبنية العجيبة الوثيقة ، والتصاوير الأنيقة المنقورة في الجبال والصخور ، والمنقوشة في الأبنية والدور ، الباقية على مر الدهور . ومنهم مَنْ طَلَبه بتأليف الكتب وتصنيف العلوم التي يبقى له نفعها ويحيا به ذكرها على وجه الزمان ومر السنين والأعوام . ومنهم من طَلَبَه بإظهار السياسات العادلة وبناء المحامد الفاضلة ، ومنهم من طَلَبَه بالعبادة والتدبر والدعوة إليه فنال به الدنيا والآخرة .

وهذه الخصلة من أجلّ الخصال الدالّة على بُعْد الهمّة من طلب البقاء لأن صاحبها يسمو بهمّته إلى بقاء الأبد والنعيم السرمد . فإذا لم يجد ذلك في هذه الدار الفانية والحياة المنقضية الماضية احتال القويُّ العزم لنيله ذلك في دار القرار .

وذَكَرَ الناسُ جميعاً ابراهيمَ ـ عليه السلام ـ إذ قال : ﴿ واجْعَلْ لي لسانَ صِدْقٍ في الآخِرين . واجْعَلْني مِن وَرَثَة جَنّةِ النّعيمِ[2] ﴾ .

ولقد ذكر ذلك اردشير في عهده، وجعله من خاص فضائل الملوك حيث قال « واعلموا أنّ لِباسَ المِلِك ومطعمه مُقارِبٌ للباس السوقة ، والأحرى أن يكون فرحهما بما نالا من ذلك واحداً وإنما فضل الملك على السوقة لقدرته على ابتناء المحامد ، وقوّتِه على استفادة المكارم ، وأن الملِك إذا شاءَ أحْسَن ، وليس للسوقة ذلك .

(١) آية ٢ الانشراح
(٢) آية ٨٤ ـ ٨٥ الشعراء

أنه قال: إذا أردْتَ أمْراً فتدبر عاقبته فإنْ كان رشداً فامضِه وإنْ كان غياً فانْتهِ.

وحكى عن قثم بن جعفر بن سليمان قال: حدثني حسنٌ الخادمُ قال: أشهد بالله لكنتُ من الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة بحيث يمسُّ ثوبي ثوبه ويدي يده وهو يقول في مناجاته ربه اللهم إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى، ثم قَتَلَه بعد ذلك بخمس سنين أو ست.

فالواجب على المِلِك الفاضل أن لا يخرج له فعلٌ إلاّ بعد التدبر والتفكر في رشده وغيِّه، وخيرْه وشرّه فيجتني خيره ويدَع شرّه، فإن عزم على فعل الشر لا محالة أخرّه، وإنْ عزم على فعل الخير عجَّلَه، لأن الشر إذا فاته لا يضرّه وربما نفعه، والخير إن فاته ضرّه ولم ينفعه، بل ربما عَظُمتْ عليه ندامته وكثُرتْ حسرتُه. ثم إن واقَعَ خيراً وعَمِلَ حسنةً حمد الله على حُسْن توفيقه له ومعونته عليه وهدايته إليه، وإن واقَعَ سيئةً وفَعَل شرّاً نَدِمَ عليه واستغفر الله ـ تبارك وتعالى ـ وتاب إليه منه فإن الله لم يعد لأحد من عباده المغفرة إلاّ بالاستغفار وترك الإصرار، ولا المثوبة والرحمة إلا بعد توبته من المعصية له. وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.»

الأعمال المخلدة للذكر

ثم إذا سنحت الآراءُ المختلفة وتزاحمت عليه الأمور المتماثلة فالواجب أن يبدأ بالذي يتقدم له أجْرُه ويبقى له ذُخْرُه، ثم يثني بالمكارم التي يبقى له ذكرُها ويطيب له نشرُها، ولا ينبغي أن يرغب عما يُبقي له الذكر الحسن والثناء الجميل، فإن الله ـ جل وعز ـ مع علوّه عن أن تلحقه المنافعُ والمضارّ والآلامُ والملاذ رغب في الشكر من خلْقه واستدعاه منهم وأوجبَه عليهم فقال: ﴿ **واشكُروا لي ولا تكفُرونِ**[1] ﴾. وقال لنبيّه ﷺ: ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدّثْ**[2] ﴾.

---

(١) آية ١٥٢ البقرة
(٢) آية ١١ الضحى

وأعظم الله المنة على نبيّه ـ عليه السلام ـ حين رفع ذِكره فقال: ﴿ **ورَفعْنا لك ذكْرَك**[1] ﴾.

ولم يزل العقلاءُ من ملوك العالمين والفضلاء من المؤمنين يسعون لهذه الخلة ويجتهدون في نيلها ويشترونها بالأبدان والأموال والأرواح والأملاك ، ورأوا أنّ بقاء الذكر بقاءٌ للمذكور حتى احتال لذلك كثيرٌ من الملوك والحكماءِ بأنواع الحيل ، فمنهم من طَلَبَه بابتناءِ الأبنية العجيبة الوثيقة ، والتصاوير الأنيقة المنقورة في الجبال والصخور ، والمنقوشة في الأبنية والدور ، الباقية على مر الدهور . ومنهم مَنْ طلَبه بتأليف الكتب وتصنيف العلوم التي يبقى له نفعها ويحيا به ذكرها على وجه الزمان ومر السنين والأعوام . ومنهم من طَلَبَه بإظهار السياسات العادلة وبناء المحامد الفاضلة ، ومنهم من طَلَبَه بالعبادة والتدبر والدعوة إليه فنال به الدنيا والآخرة .

وهذه الخصلة من أجلّ الخصال الدالّة على بُعْد الهمّة من طلب البقاء لأن صاحبها يسمو بهمّته إلى بقاء الأبد والنعيم السرمد . فإذا لم يجد ذلك في هذه الدار الفانية والحياة المنقضية الماضية احتال القويُّ العزم لنيله ذلك في دار القرار .

وذَكَرَ الناسُ جميعاً ابراهيمَ ـ عليه السلام ـ إذ قال : ﴿ **واجْعَلْ لي لسانَ صِدْقٍ في الآخِرين . واجْعَلْني مِن وَرَثَة جَنّةِ النّعيمِ**[2] ﴾ .

ولقد ذكر ذلك اردشير في عهده ، وجعله من خاص فضائل الملوك حيث قال « واعلموا أنّ لِباسَ المِلِك ومطعمه مُقارِبٌ للباس السوقة ، والأحرى أن يكون فرحهما بما نالا من ذلك واحداً وإنما فضل الملك على السوقة لقدرته على ابتناء المحامد ، وقوّتِه على استفادة المكارم ، وأن المِلِك إذا شاءَ أحْسن ، وليس للسوقة ذلك .

(١) آية ٢ الانشراح
(٢) آية ٨٤ ـ ٨٥ الشعراء

وقال ارسطاطاليس للاسكندر : واعملْ على [أن يكون مديحهم] في عقبك ، وإنّ مديحهم أطول عمراً منك .

فلا ينبغي للملِك الفاضل أن يرغب عن هذه الخصلة الشريفة والمنقبة الجليلة ، ولكنه يجب أن يرغب منها في أفضلها وأعلاها وأجلّها وأبقاها ، ويجتهد في أن يجري له الذكر الحسن على أَلْسِنة الصادقين الذين لا يظن بهم الكذب ، والفضلاء الذين يسْمون بأنفسهم ولا يعرفون باللعب ، ولا يجعلون المدح والثناء أسواقاً يطلبون منها الأرباح ، ويبغون بها قضاء الحاجات كالمخانيث والمساخر والملهين ، فإن مدائح أمثالهم على الحقيقة مذامّ ، وممادحهم ملاوم لأنهم يمدحون المذموم إذا أعطاهم ، ويذمّون الممدوح إذا حرمهم ، ثم لا يقبلون معذرة ولا يُقيلون عثرةً ، ولا يغفرون زلة ، ثم ليس لهم في كتاب الله قسط ولا في مال الله سهمٌ ، فإذا أعطاهم الملِكُ ما أرضاهم به أسخط اللهَ - جل ذكره - ، واستذمّ الفضلاءَ وأهل الدينَ .

وقد قال النبي ﷺ «إذا رأيتم المدّاحين فاحْثوا في وجوههم التراب[1]» .

ولقد أحْسَنَ عمرو بن بحر[2] - رحمه الله - في فصل من كتابه حيث قال : واعلم أن نشر المحاسن لا يليق فيك إلا إذا كان القول على أَلْسِنة أهل الدرايات وذوي الصدق والوفاء ، ومن ينجع قوله في القلوب ، ومن يشتاق إلى قوله ويصدق خبره ، وممن إذا قال صدق ، أو مدح اقتصد بأن يثني بقدر البلاء ، فإن إسراف الثناء على قدر النعمة يولد في القلوب التكذيبَ ، ويدل على طلب الزائد . المداحون

فأما ثناء المادحين لك في وجهك فإنما تلك أسواق أقاموها ، فإن ساهلوك في المبايعة ولم يكن عليهم في الثناء كلفة لكساد أقاويلهم عند الناس فأولئك الصادّون

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة في الزهد والأدب

(٢) هو الجاحظ ، وكنيته أبو عثمان ، نشأ بالبصرة وتوفي سنة ٢٥٥ هـ وألف نحواً من مائتي كتاب منها البيان والتبيين والحيوان والبخلاء .

عن طرق المكارم والمثبّطون عن ابتغاء المعالي ، فارْتَدْ لنفسك مغرساً تنمو فيه فروعُها وتزكو ثمرتُها ، ولا تذهب نفقتك ضياعاً إلا لأجل تقدّمه ، أو لعاجل من ثناءٍ يُنتفع به .

ثم إذا قابلْتَ الأمور وازدحمتْ واستوت في هذه الأبواب فالواجب أن تشتغل بأعظمها خطراً وأجلّها قدراً ، وأكثرها إن فات ضرراً ، فإن الاشتغال بصغار الأمور على كبارها إضرارٌ بالكبار والصغار جميعاً ، وإضاعةٌ وإهمال . فإن استوت في هذا الباب فبأقربها متناولاً وأرجاها دركاً ، فإن مزاولة تبعيد القريب وتقريب البعيد صعبٌ شديد ، وخرق عتيد ، وتضييعٌ وإهمال .

وهذه جملة كافية في باب المساعي والأفعال وموازنة الأعمال ، وملابسة الأشغال ، وفيها تمام أبواب الفضائل النفسانية وأصولها ، وعوامّ ما لا بد منه من فروعها ، قد ذكرناها ودللنا عليها وحررنا ما يعرض للملوك وغيرهم في هذا الوقت ، إذ لا نهاية لها ولا يمكن حصرها .

الكتاب والسنة ملاذ

وليس شيء يحتاج إليه الملوك والرعايا والرؤساء والمرؤوسون في دين أو دنيا إلا وجدْتَ له في كتاب الله عز وجل وسُنّة الرسول ﷺ وسيره وأخباره أصلاً محكماً ، وأثراً بيّناً إما نصاً لا مخالف له ولا شبهة فيه ، وإما دلالة يسهل استخراجه أو مجملاً يمكن شرحه وتفسيره . وكيف لا يكون كذلك والله ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ ما فرَّطنا في الكتاب من شيءٍ[1] ﴾ .

ويقول : ﴿ وأَنزلنا عليك الكتاب تِبْياناً لكل شيءٍ[2] ﴾ .

فكل من ادّعى حكمةً أو علماً يخالف ما في كتاب الله أو يضادّه أو ينافيه ويدافعه ـ فهو جهل محض ، وعيْب بَحْتٌ لا حكمة معه .

---

(1) آية ٣٨ الأنعام
(2) آية ٨٩ النحل

وقد أمر اللهُ خلْقه بكل خير وبرّ وفضيلة ، ونهى عن كل شر وإثم ورذيلة ، فقال ـ جل وعز ـ : ﴿ **وافعلوا الخيرَ لعلكم تفلحون**[1] ﴾ . وقال : ﴿ **إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القربى وَينْهَى عن الفحشاءِ والمنكر والبغي**[2] ﴾ . وقال : ﴿ **ولا تَقْرَبوا الفواحشَ ما ظَهرَ منها وما بطن**[3] ﴾ . وقال : ﴿ **وَمَن يَعْملْ من الصالحاتِ وهو مؤمنٌ فلا كُفرانَ لسعيه**[4] ﴾ . وقال : ﴿ **ومَن يعْمل سوءاً يُجْزَ به**[5] ﴾ . فحثَّ جل ذكره على كل خير ، ودل مجملاً على كل فضل ، ثم نثر كثيراً منها على لسان رسوله ﷺ ، وكل ما صح عن النبي ﷺ من أخباره ، وثبت على ألسنة الرواة من آثاره ـ فإنما هو مما نصَّ اللهُ عليه على هذا الترتيب ، لأنه قال : ﴿ **وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**[6] ﴾ . وقال : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمر منكم**[7] ﴾ .

فإذا تتبّعْنا بأمر الله آثار نبيه ﷺ وسيره ومغازيه ـ وجدنا فيها كل حكمةٍ بالغة ، ومنقبة جليلة ، وشرف وفضيلة ، وأدب حسن وقول متقن وأصل من أصول الدين قوي ، وعلْم بين .

ثم دل النبي ﷺ على طلب الحق في إجماع أمته ، وعند علماء صحابته فقال: لا تجتمع أُمّتي على ضلالةٍ[8] . وقال: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر[9] . وقال: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم[10]». وفَضّل كلا من

---

(١) آية ٧٧ الحج
(٢) آية ٩٠ النحل
(٣) آية ١٥١ الأنعام
(٤) آية ٩٤ الأنبياء
(٥) آية ١٢٣ النساء
(٦) آية ٧ الحشر
(٧) آية ٥٩ النساء
(٨) رواه ابن ماجه في الفتن
(٩) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد
(١٠) رواه ابن عبد البر عن جابر بإسناد ضعيف .

أصحابه بما خصَّه اللهُ به من الفضيلة ، وآتاه من المآثر الجليلة ، فدلّنا النبي ﷺ على أخذ العلم من بعده ـ منهم ، والاقتداء فيما أصابوا بهم .

وإذا تتبَّعْنا أخبارهم واقتفينا آثارهم وجدْنا فيها كل حكمةٍ وزهد وعبادة وسيرة فاضلة ، ومنقبة شريفة .

ثم لم يزل في ملة الإسلام ـ ولله الحمد ـ علماءُ يعلمون كتابها ويفسرون مُشْكِلَها ، ويفرّعون أصولها ، ويستخرجون حوادثها ، ويحُامون عنها بالحجج الظاهرة والدلائل القاهرة .

والملوك ـ وإن كان فيهم مَن مالَ إلى الدنيا واغترّ بزبرجها وزخرفها ـ لم يَدعُوا الذبَّ عن أثلتها[1] ، والدفاع عن بيضتها ، والحمل على ظواهر شريعتها ، ولهم سيرٌ عجيبة وآثار غريبة ، فإذا تتبّعها الملِكُ المعنيُّ بصلاح مملكته ، وعرفها الداعي المهتم بأمور رعيته ـ وجد في كل باب من هذه الأبواب ما يحتاج إليه من احكام سياسته ، ورياضة نفسه وإصلاح مملكته . ويجمع له مع ذلك تقْوى ربه والفوز في عاقبته وحُسْن الأُحدوثة في حياته وبعد وفاته بعون الله ومشيئته وحوْلِه وقُوّته .

* * *

(١) أثلتها : أثلة كل شيء : أصله . وتأثيل المجد : بناؤه (اللسان ـ أثل)

البَابُ السَّادِسُ
فِي سِيَاسَةِ الخَاصَّةِ

وإذ قد ذكرنا ما يجب على الملك الفاضل من سياسة نفسه ورياضتها على تقوى الله ـ جل ذكره ـ ، والاقتداء به في أفعاله ، والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن زواجره ، والتأدب بآدابه التي يستجمع بها الخصال الفاضلة الشريفة ، والخلال المستحسنة الجيدة ـ فإن أوْلى الأشياء بنا أن نصف له سياسة خاصته وخدمه وحاشيته .

فنقول إن مما يجب على الملك الفاضل أن تكون عنايته بأمر خاصته أقْدمَ واكثر وأعمّ وأوفر حتى يروضهم رياضة لا يكون في أهل مملكته وضمن ولايته مَن هو أسرعُ إلى طاعته وأبعَدُ من معصيته وأقوى عزماً في نُصرته وأحسنُ أدباً في خدمته منهم اقتداءً بالله ـ جل وعز ـ واحتذاءً على مثاله في خلقه .

اصطفاء الملائكة والرسل

وذلك أن الله ـ عزّ وجل ـ لمّا خلق خلقه وأوجب في حكمته أمرهم وزجرهم ، وتعبدهم بما هو أصلح لهم وأنظم لأمورهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم وأولاهم ـ اصطفى منهم ملائكة جعلهم جنودا على خليقته موكلين بأمور بريّته ، وأعوانا لأهل دعوته ، وجعلهم أقرب الخلق إليه منزلة ، وأدناهم من كرامته مرتبة ، واجتباهم ممن علم أنهم لا يعصونه ما أمرهم ، بل يسبّحون له الليل والنهار وهم لا يسأمون ولا يفترون ، وجعلهم مع ذلك أطْولَهم بقاءً ، وأقواهم على طاعته قوّة ، وأوسعهم على تنفيذ أوامره وتبليغِ رسالاته في أرضيه وسماواته ـ قدرةً .

ثم اصطفى من الناس رسلاً صيرّهم أمناء على خلقه ، فجعلهم ممن عَلِم أنهم أقوى الخلق عزيمة ،وأبعدهم بصيرة، وأكثرهم له طاعة، وأقلهم له بعد الملائكة معصية ، وأنهم لا تكون منهم كبيرة يخرجون بها من ولايته ، ويُزَنُّون بعداوته ، أو يُتَّهمون بها في أداء رسالته وتأسيس ملته وديانته وشريعته ومنعته ، بل جعلهم أمناء نجباء حكماء علماء فضلاء أبراراً اتقياء كراماً أقوياء ، على ما بينّ من ذلك في كتابه ، وأوضحه من خطابه حيث قال : ﴿ **الله أعلم حيث يُجْعل رسالتَه** ﴾ .[1] ويقول : ﴿ **اللهُ يصْطفي من الملائكةِ رُسُلاً ومِن الناسِ**[2] ﴾ . ويقول : ﴿ **لن يستْنكِفَ المسيحُ أن يكونَ عَبْداً لله ولا الملائكة المُقَرَّبون**[3] ﴾ . ويقول : ﴿ **كِراماً كاتبينَ يَعْلمَونَ ما تفعلون**[4] ﴾ . وقال : ﴿ **يُسبِّحون الليل والنهارِ لا يَفْتُرون**[5] ﴾ . وقال : ﴿ **بأيدي سَفَرةٍ كرام بَررَة** ﴾[6] . وقال : ﴿ **إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مَكين . مطاع ثَم أَمين** ﴾ . وقال في صفة أنبيائه من البشر : ﴿ **ـــ وإبراهيمَ الذي وَفىَّ** ﴾[8] . وقال : ﴿ **واتخذ الله إبراهيمَ خليلا** ﴾[9] . وقال في صفة موسى : ﴿ **وأنا اخترتُكَ فاستمع لما يُوحَى** ﴾[10] . وقال : ﴿ **إنّ خيرَ مَن استأجَرْتَ القَويُّ الأمينُ** ﴾[11] .

---

(١) اية ١٢٤ الأنعام .
(٢) اية ٧٥ الحج .
(٣) اية ١٧٢ النساء .
(٤) اية ١١ ـ ١٢ الانفطار .
(٥) اية ٢٠ الأنبياء .
(٦) اية ١٥ ـ ١٦ عبس .
(٧) اية ١٩ ـ ٢١ التكوير .
(٨) اية ٣٧ النجم
(٩) اية ١٢٥ النساء .
(١٠) اية ١٣ طه .
(١١) اية ٢٦ القصص .

وقال في يوسف : ﴿ اجْعلني على خزائنِ الأرضِ إنّي حفيظ عليمٌ ﴾[1] .

.وقـال في صفـة عيسى : ﴿ وَجَعَلني نبياً . وجعَلَني مبـاركاً أينما كنـتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمتُ حياً . وبراً بوالدتي ولـم يجعلني جباراً شقياً ﴾[2] .

وقال لمحمـد ﷺ ﴿ وإنـك لعلـى خُلُـقٍ عظيمٍ [3] ﴾ . وقـال : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً[4] ﴾ .

ثم أمدّهم جميعاً بتوفيقه وعَصَمَهم بتسديده ، وقوّاهم بأسـره ، وأعزّهـم بنصره ، وأيد بصائرهم بفضله وطوْله .

سياسة خاصة الملك

فكذلك يجب على الملك أن يروض عليه ويُسوس به خاصتّه على مقدار طاقته ومنتهى قوّته ، ثم أن يحُلّ خاصته على مقدار طاقته ومنتهى قوته ـ محل الآلـة من الصنائع التي لا يجوز له تنفيذ شيءٍ من صناعاته وإراداته إلاّ بها ، لأن الآلة إذا فسدتْ فسد العقل وتعذر إنفاذه وإبرامه وإتقانُه وإحكامُه . ثم لأن جُلّ أمـوره مفوّضة إليهم ومعصوبة بهم ، وهم منسوبون إليه ومشبهون به ، يُستدل بآدابهم على أدبه وبأخلاقهم على خلقه وبدينهم على دينه ، ويُحكم له أو عليه بما يُشاهد منهم .

وليس ذلك كذلك في أمر العامّة لأن لكل واحد منهم راباً[5] ووالداً ومؤدّباً ومعلّماً ومثقفاً يكفي أمره ويخدمه على ما يحتمله حاله وتبلغه طاقته واختياره وهمتُه وإيثارُه وتدبيرُه في الرياضة والسياسة .

وقد أمر اللهُ ـ جل ذكره ـ بتأديب الخاصة نصاً في كتابه ، فقال : ـ جل وعز ـ

---

(١) آية ٥٥ يوسف .
(٢) آية ٣٠ ـ ٣٢ مريم .
(٣) آية ٤ القلم .
(٤) آية ٤١ النساء .
(٥) الراب: المربّي

﴿ وأْمُر أَهلَكَ بالصلاةِ واصْطَبِرْ عليها[1] ﴾ . وقال : ﴿ وأْمُر قومَك يأخذوا بأحْسنِها[2] ﴾ . وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا قُوا أنْفسَكم وأهْليكم ناراً وَقودُها الناسُ والحجارة[3] ﴾ . وقال لنبيّه في أول ما أمره بالإنذار : ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾[4] فجمع النبي ﷺ عمومته وبني عمومته من عبد مناف فقال « يا بني عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم من الله شيئا » .

وأثنى اللهُ على نبيّه إسماعيل ـ عليه السلام ـ بذلك فقال : ﴿ وكان يأمرُ أهْلَه بالصلاةِ والزكاةِ[5] ﴾ .

وقال النبي ﷺ : لا ترفع عصاك[6] عن أهلك .

تربية الأولاد

وقال : علِّموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعا ، واضربوهم عليها إذا بلغوا عَشْراً .[7] وسَنَّ النبي ﷺ تأديب الصبي وتقويمه بالختان وتعليم القرآن .

ورخّصَ العلماءُ في ضرب الصبي على البطالة والغرامة قبل وجوب الأحكام عليه ولزوم وظائف الدين له .

وروي أنّ آخِر ما أوصى به النبي ﷺ أن قال : الصلاة وما مَلَكَتْ أيْمانكُم . وأمَر بإخراج زكاة الفطر عن الصبي . ورخّص العلماء في إخراجها من مال اليتيم تأديباً له وتقويماً على الخير والدين .

---

(١) آية ١٣٢ طه .
(٢) آية ١٤٥ الأعراف .
(٣) آية ٦ التحريم .
(٤) آية ٢١٤ الشعراء .
(٥) آية ٥٥ مريم .
(٦) لم أجده لكن الأمر بتأديب الأهل وارد قال تعالى فيمن يخاف منهن النشوز : . . . واضربوهن
(٧) رواه الترمذي في المواقيت .

واختار الله لصحبة نبيه ﷺ أقواماً وجعلهم له أنصاراً وأعواناً فأمره بتأديبهم وتقويمهم وتعليمهم وترغيبهم وتخويلهم بالموعظة وتعهدهم بالتذكرة حتى كانوا أفضل أمته فضيلة ، وأبعدهم في الفضل غاية وأرفعهم درجة ، فصاروا أمناء أتقياء علماء حكماء أبراراً عُبّاداً أخياراً ، أمّارين بالمعروف زجّارين عن المنكر ، مجاهدين في الله ، مقتدين بأنبياء الله ، رحمة الله عليهم ، كما قال الله : ﴿ **محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أَشِدَّاءُ على الكفارِ رُحَماءُ بينهم تَراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبْتغون فَضْلاً من اللهِ ورِضواناً سِيماهم في وجوههم من أَثَرِ السجود**[1] ﴾ . وقال : ﴿ **لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤْمنين إذ يُبايعونك تحْتَ الشجرة فَعَلِم ما في قُلوبهِم فأنزل السكينةَ عليهم وأثابَهُم فَتْحاً قريباً** ﴾[2] .

وقد دلّ على جهة الصلاح في ذلك أرد شير الملك في عهده حيث قال : إنّ لكل مِلك بطانةً ،[3] ولكل رجل من بطانته بطانة حتى يجتمع في ذلك جميع أهل المملكة ، فإذا أقام بطانته على حال الصواب أقام كلُّ امرىء منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على ذلك عامّةُ الرعيّة .

وقال أرسطاطاليس للاسكندر: أَلْزِم خدَمَك الذي ترضاه لنفسك . وقال : زَيِّنْ أمْرَك في العامة ، وتفقَّدْ جُنْدَك واعمل على أنهم أعضاؤك والبابُ الذي تنال منه مذلة عدوك وتحترسُ مِن مَضرَّته ، أَصلحْهم لأنفسهم فإنّ في صلاحهم صلاحاً للرعية ودركاً للغلبة ، قَوِّ ضعيفهم يَقْوَ أَمْرُك ، واجْبُر فقيرهم يشدّ ساعِدَك .

فالواجب على المِلك الفاضل الائتمارُ بأمر الله في سياسة خاصته وأهله وحاشيته وجنوده وأعيانه ، والاقتداءُ بنبيّه ﷺ .

---

(١) آية ٢٩ الفتح .
(٢) آية ١٨ الفتح .
(٣) بطانة : خاصة وحاشية مقربون مأخوذ من بطانة الثوب لأنها تلتصق به .

طبقات الخاصة

وخاصة الملك الذين عنينا بهم في هذا الموضع - على طبقات رُتبت ، بعضهم أخص من بعض ، فأخصُّهم به ولده وخدمه من قرابته وخاصته ، ثم عبيده ومماليكه وخاص فتيانه وغلمانه ، ثم وزراؤه وكتابه وكُفاة أشغال حضرته، ثم جنده وقواده واساورته ومُقاتِلتُه، ثم عماله الذين يستعين بهم في إصلاح مملكته النائية عن بابه وداره ، والخارجة عن مركزه وقراره .

اختيار الزوجة

فمين أوّل حقّ الولد أن ينتقي أُمَّهُ ، ويتخير قبل الاستيلاد منهن الجميلة الشريفةَ الديِّنةَ العفيفة العاقلة لأمورها ، المرضية في أخلاقها ، المجربة بحسْن العقل وكمالِه ، المواتية لزوجها في أحواله ، قال الله - تبارك وتعالى - في جملة هذه القضايا : ﴿ **عسى ربُّه إنْ طلَّقكُنَّ أن يبد له أزواجاً خيراً منكنّ مُسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيِّباتٍ وأبْكاراً**[1] ﴾ .

ثم وصف - عز وجل - ما رغب فيه عباده المؤمنين من الحور العين بالحُسْنِ التام مجملاً ومفصلاً ، وبالبكارة والستر والعفة فقال : ﴿ **إنّا أنشأناهن إنْشاءً فجَعَلْناهنّ أبكاراً عُرُباً أتراباً**[2] ﴾ .

وقال : ﴿ **وحُورٌ عِينٌ كأمثالِ اللؤْلؤ المكنون**[3] ﴾ . وقال : ﴿ **فيهنّ قاصراتُ الطرْف لم يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبْلَهم ولا جان**[4] ﴾ . وقال : ﴿ **حُورٌ مَقْصوراتٌ في الخيام**[5] ﴾ .

فبينَ أنّ الرغبة من النساء في أهل هذه الصفات .

ثم قال فيما يخالف هذا : ﴿ **الزاني لا يَنْكِحُ إلاّ زانيةً أو مُشْرِكةً**

(١) آية ٥ التحريم .
(٢) آية ٣٥ - ٣٧ الواقعة .
(٣) آية ٢٢ - ٢٣ الواقعة .
(٤) آية ٥٦ الرحمن .
(٥) آية ٧٢ الرحمن .

والزانيةُ لا ينكِحْها إلا زانٍ أو مشركٌ وحُرِّمَ ذلك على المؤْمنين(١) ﴾ .
وقال فيما أدب به النساء : ﴿ **وقُلْ للمؤْمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهنَّ ويَحْفظْنَ فَروجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينتَّهُنَّ إلاّ ما ظَهَر منها وليضْرِبْنَ بخُمُرِهنَّ على جُيوبِهنَّ**(٢) ﴾ . وقال : ﴿ **ولا تَبَرَّجْنَ تَبرُّجَ الجاهلية الأولى**(٣) ﴾ .

وجعل النبي ﷺ كُلَّ ما يكون من المرأة من رمْزٍ بعينٍ أو إشارة بيد أو سيرٍ أو إظهار زينة أو تبرج من أبواب الزنى. ثم قال : تخيرَّوا لنطفكم . وقال : تنكح المرأة لأربع : لما لها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك .(٤)

وقال : إياكم وخضراء الدِّمَن ، فقيل : يا رسول الله وما خضراءُ الدمن ؟ قال : المرأة الحسناءُ في منبت السوء .(٥)

وقد جرت العادة في أهل كل دين وملة وجيل وأهل نحلة بطلب الكُفاةِ في باب النكاح والإنكاح ، وجعل الدينُ هذا شريعة من الشرائع ، كل ذلك طلباً لنجابة النسل ، وتخيراً للطروقة والفحل ، وضنا بالنجابة التي في النِّجار(٦) أن تنتقل إلى غيره ، وهرباً من تدنيس النسب .

والملكُ في جلالة شأنه وعلوِّ مكانته ـ أحق الناس بابتغاء هذه الفضيلة ، واطلاب هذه المنقبة لولده ، لعله يوصل ويرجو أن يسد مسدّه ويأخذ مكانه ، ويملك جماعة من أهل جنسه وحرمه وخدمه لا يحصيهم إلا الله ، ويرشّحه لعمارة

(١) آية ٣ النور .
(٢) آية ٣١ النور .
(٣) آية ٣٣ الأحزاب .
(٤) جاء هذا الحديث في المخطوطة مضطرب اللفظ ولم أعثر في كتب الحديث على ما يؤيد تلك الرواية . وقد رواه كما ذكرناه هنا البخاري ٩ / ١١٥ ، في النكاح ، ومسلم رقم ١٤٦٦ نكاح ، وأبو داود ٢٠٤٧ نكاح ، والنسائي ٦ / ٦٨ انظر جامع الأصول ١١/ ٤٢٩ .
(٥) لم اعثر على هذا الحديث في أمهات كتب السنة رغم شهرته على ألسنة الناس .
(٦) النجار: الأصل؛ والحسب . وهو بكسر النون وبضمها.

بلاد الله وسياسة عباده وحماية دينه ، فأذا فعل ذلك فالواجب عليه أن يطلب الولد على ما جاءت به السنّة ووصفه أهل الحكمة ، ويتجنب المضاجعة في حال السكْر والغفلة والتناوم والاسترخاء ، وأن ينوي في ذلك كله نيّة الولد ، وأن يتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم ، وينوى في الولد أن الله لعله يرزقه من يعبد الله ويُوَحده ويجرى على يديه صلاح الخلق وإقامة الحق وتأييد الصدقِ ومنفعة العباد وعمارة البلاد .

وروي عن عمرو بن عبيد أنه قال لامرأته ـ وهي ترضع ابناً لها ـ : لا يكوننّ رضاعُك لولدك كرضاع البهيمة ولدها قد عطفت عليه من الرحمة بالرحم ، ولكن ارضعيه تتوخين ابتغاء ثواب الله ، وأن يحيا برضاعك خلق عسى أن يوحّد الله ويعبده .

حق الولد على أبيه

فإذا وُلد المولودُ فإنّ من أوّل كراماته له وبرِّه به أن يحُلِّيه باسم حَسَن وكنية لطيفة شريفة ، فإنّ للاسم الحَسَنِ موقعاً في النفوس مع أوّل سماعه . وكذلك أمَرَ الله عباده وأوْجَبَ عليهم أن يَدْعُوه بالأسماء الحسنى فقال : ﴿ **ولله الأسماءُ الحسنى فادْعوه بهاوذَروا الذين يُلْحِدونَ في أسْمائه** ﴾[1] . وأمر أن يصفوه بالصفات العلى فقال : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء[2] الحُسْنى** ﴾ .

واختار النبي ﷺ أسماء أولاده اختياراً ، وآثَرَها إيثاراً ، ونَحَل محمد بنَ الحنفية اسمه بعد ذلك ، تشريفاً له وإجلالا وإكراماً وإفضالاً .

ونهى عليه السلام أن يجمع أحدٌ من المسلمين بين اسمه وكنيته ، وقال « أحبُّ الأسماءِ عند الله عبد الله وعبد الرحمن »[3] .

(١) آية ١٨٠ الأعراف .
(٢) آية ١١٠ الإسراء .
(٣) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود .

وإنما جهةُ الاختيار لذلك في ثلاثة أشياء : منها ـ أن يكون الاسم مأخوذاً من أسماءِ أهل الدين ، من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ينوي بذلك التقرّبَ إلى الله ـ جل اسمه ـ بمحبتهم وإحياءِ أساميهم والاقتداء بالله جل اسمه في اختيار تلك الأسماء لأوليائه ، وما جاء به الدين ، كما قد روينْا عنه في أن احب الأسماء إلى الله عبد الله وأمثاله .

ومنها ـ أن يكون الاسم قليل الحروف خفيفاً على الألسن ، سهلاً في اللفظ سريع التمكن من السمع ، قال أبو نواس في هذا الاسم :

فقلنا له ما الاسم قال سموءَل ... على أنني أُكنى بعمرو ولا عمراً
وما شرَفتني كُنيةٌ عربيةٌ ... ولا أكسبْتني لا ثناءً ولا فخراً
ولكنها خفّتْ وقلّتْ حروفها ... وليست كأخرى إنما جُعِلتْ وقرا

فأخبر ـ كما ترى ـ أنه اختارها على بغضة لأهلها عنها ـ لقلة حروفها وخفّتها على اللسان وفي السمع .

ومنها ـ أن يكون حَسَنا في المعنى مُلائماً لحال المسمى ، جارياً في أسماء أهل طبقته ومِلّته وأهل مرتبته .

ثم الوجه في رضاعه أن ترضعه أُمُّه ، لأن ذلك أبلغُ في الرضاع وأوقر ، وابعد من ممازجة الأخلاط ، وأوقر لقول الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ **والوالداتُ يُرْضِعْنَ أوْلادَهن حوْلين كامِلين**[1] ﴾ . فإنه أول ما ذكر الله ، وهو مع ذلك الأمر الطبيعي للإنسان وسائر الحيوان .

فإن منع من ذلك مانعٌ فالواجب أن يُبالغ في اختيار الظئر مبالغته في اختيار الوالدة ، ويختار أن تكون صحيحة مِن زَمانَة[2] موئدة ، وعلة عادية عارضة أو

(١) اية ٢٣٣ البقرة .
(٢) زمانة موئدة : آفة مثقلة مضعفة

لازمة ، نظيفة الجلد صحيحة الجسم من داءٍ كامن وعِرق دنيء وخلق سيء ، فإن اللبَن هو الذي يغذي الطفل وينبت له اللحم وينشيء العظم ويفيد المزاج الذي يوجب اختلاف الغرائز والأخلاق .

وقد قال النبي ﷺ : « لا تُرضِع لكم الحمقاءُ فإن اللبن يُفسِدُ النسب » .

والوجهُ أن يبلغ بالرضاع تمامه ، ولا يجاوز به أيامه ، فإن الله ـ جلّ وعز ـ قد حدّ لذلك حداً ووقف عليه وقفاً ، فقال : ﴿ **والوالداتُ يُرضعن اولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يُتِم الرضاعة** ﴾ . فكل ما بَعد التمام فسادٌ ودخول في غير ما يحتاج إليه .

ثم يؤخذ بعد ذلك في التربية والتأديب ، ويلبس من الثياب ما يشبه ثياب الملوك قبله وفي ناحيته ، ويختار له أصلح الثياب وأرفعها للوقوف ما دام حازماً أو متأدّباً ، وللوثوب والركوب الذي لا بدّ له من الارتياض بها .

تعليم اللغة العربية

فإذا بلغ مبلغ التأديب والتعليم فالوجه أن يبدأ ـ في هذه المِلّة خاصة ـ بتعليم القرآن مع اللغة العربية ، لأنها اللغة التي أنزل الله بها كتابه وخاطب بها في شرائع دينه وفرائض مِلّته ، وبها بلّغ رسول الله ﷺ سُنّته ، وبها أُلِّفَتْ الكتبُ الدينية والحكمية والجديّة والهزلية ، وبها تكتب رسائلهم والصكوك التي جعلها اللهُ وثائق بينهم . فلا بد للناشيء في هذه المِلّة ـ مِن تعلّمها وإلاّ كان جاهلاً بالدين منقوصاً في الملل .

مع أن لهذه اللغة من الفضيلة ما ليس للغة من اللغات ، من الفصاحة والبيان والطلاوة على اللسان ، والحلاوة في الأسماع والآذان ، وكثرة التصاريف واحتمال المقاييس النحوية ، وسعة الألفاظ وتوسّطِ الحروف بينْ القِلّة والكثرة وأشباه هذه الخصال ما لو تُعُلِّمَتْ تجمُّلاً واستفيدت تأدباً ، لكانت لذلك موضعاً .

ولهذا كان ملوك العجم يتعلمونها ، فإن كثيراً منهم يستعملهـا في أوقـات حفله ومجالس زينته .

والوجه في تعليم اللغة أن يُقصد إلى الأخف فالأخف من كُتُبها والأسهل فالأسهل من مُؤلَّفاتها ومُصَنَّفاتها ، وأن لا يشغل أولاد الملوك بالغريب الـوحشي والنادر الأجنبي ، ولا بدقائق النحو ودواوين العروض ، فإن ذلك مما يشغله عن المعاني ، وإنما تُتعلَّم الألفاظ قصداً إلى معرفتها ، فإذا أفنى الإنسان عمره في تعلم الألفاظ فاتته المعاني ، إلاّ أن يكون ذلك لمن يجعله صناعةً ، مثل الأدباء والمؤدبين والمعلمين من النحويين ويحتاج في الاستعانة على تعلُّم اللغة إلى رواية أشعار العرب وأيامها وأخبارها ، والصواب في تدبير ذلك أن تُروى له ويُعلَّـم ويُحَفَّـظ الأشعار الحكيمة التي ضمت الحكمة والتـوحيد والـدين ، والبعـث على العلـم والزهـد والشجاعة والجـود مكارم الأخـلاق ، دون التـي يذكر فيهـا الزنى والتجميش[1] والعشق والفحش والأهاجي التي فيها قذف المحصنات وذكر العورات ، لينشأوا على معرفة الفضائل ومحبة نيل المادح نشوءا ، ويعتادوها عادة ، فيجتمع له في ذلك فائدة الفصاحة والبيان ومعرفة المبتذل من الكلام وكثير من الغريب ، والوقوف على المعاني الفاضلة .

كتب الاخبار

ويجب أن يحفظ من الأخبار أخبارَ المغازي والسير ، وآثار الخلفاء دون آثار العشاق وكتب الافسانقات من كتاب سيدباد وهرار أفسان وأشباهها .

إنه بهذه الكتب[2] يستأنس ، وبها يبلغ مرتبة العلماء ، ويحل في دينه محل الفقهاء ، ويتقدم في أهل مملكته ومِلّته ، ويبرّز في سياسته ، وليس ينال من تلك الكتب[3] في هذه الأبواب إلاّ قليلاً . ولعلـه يتصـور ما في تلك الكتـب من

(١) التجميش : المغازلة والملاعبة بقرْص (اللسان ـ جمش) .
(٢) أي كتب المغازي والسير وآثار الخلفاء .
(٣) اى كتب العشق والفسق .

الافسانقات[1] صدقاً ، ويظنه حقاً ، فيكون ذلك منه غباوةً وجهلاً ، ويبقى بأصول دينه جاهلاً ، وعن فضائل مِلّته ومحاسنها غافلاً ، ثم لا تنفعه تلك الكتب والأسمارُ في سياسته وحكومته ، ولا يجد منها معونة على مناظراته في دينه ، ومباهاته في محافِلِهِ ، ونظرِه في مظالم رعيته .

وقد قال بعض أهل التفسير في معنى قول الله ـ تعالى ـ ﴿ **ومِنَ الناس مَنْ يشتري لهو الحديث ليُضِلَّ عن سبيل الله بغيرِ عِلم**[2] ﴾ أن شأن هذه الآية أن الحارث بن كلدة اشترى كتاب كليلة ودمنه فكان يجمع الناس ويقرؤه عليهم ويزعم أن هذا الذ وأحسن مما جاء به محمدﷺ من أساطير الأولين ، فأنزل الله ـ جل وعز ـ للرد عليه هذه الآية .

وقال النبيﷺ في رواية الشعر :«إنّ مِن الشعر لحكمةً[3] ، وإنّ من البيان لسِحْراً . وقال : «الشعرُ ديوانُ العرب». وقال: «إنّ من الشعرِ لحكماً».

قالوا : وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده : ارْوِ لهم الشعر يَسْخُـوا ويمجدوا . وحكي أنه قال : عجبتُ لمن روى لعنترة اربعين بيتاً كيف لا يكون من أشجع الناس ، وعجبت لمن روى لحاتم الطائي أربعين بيتاً كيف لا يكون من أسخى الناس ، وعجبت لمن روى للبيد أربعين بيتاً كيف لا يكون مِن أحكم الناس .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : من روى عني أربعين حديثاً بُعث فقيها عالماً[4] .

---

(١) الافسانقات : هكذا وردت هذه الكلمة في الأصل ولم اعثر لها على معنى ، ولعل صوابها الافساقات اى الكتب الداعية الى الفسق .

(٢) آية ٦ لقمان .

(٣) رواه البخاري وأبو داود،والترمذي وابن ماجة .

(٤) لم أجده لكن ذكره النووي في «الاربعين حديثا النووية» وضعفه .

ولا بدّ لأولاد الملوك من الرياضـة بالثقافـة والرمـاية والرماحـة والفـروسية والسباق والمراكضة ، حتى إذا بلغ العلم والتفقّه ابتدأ فيهـا على التـرتيب الـذي ذكرنا .

اختيار المعلم للولد

ثم يجب أن يجتهد في اختيار المعلِّم والمؤدِّب له اجتهـاده في اختيار الوالـدة والظئر بل أشد منه ، فإن الولد يأخذ من مؤدبه من الأخلاق والشمائـل والآداب والعادات أكثر مما يأخذ من والده ، لأن مجالسته له أكثر ، ومُدارسته معه أطول ، والولدُ قد امر حيث سُلِّم إليه بالاقتداء به جملةً ، والأئتمار له دفعة ، وإذا كان هكذا فيجب أن لا يقتصر من المعلم والمؤدب على أن يكون قارئاً للقرآن وحافظاً للغة أو راوياً للشعر ، حتى يكون تقياً ورعاً عفيفاً ديِّناً فاضل الأخلاق أديب النفس نقيّ الجيب عالماً بأخلاق الملوك وآدابهم ، عارفاً بجوامع أصول الدين والفقه ، وافياً بما ذكرنا أنه يحتاج إلى أن يعلمه على الترتيب . فإن فاته شيء مما ذكرنا فلا يفوته التقى والدينُ والفقه وكل أدب تحت هذه الخصال على ما بيّنّاه في البـاب المتقـدم لهـذا الباب .

ولو أن الغلام ينشأ عُطْـلاً(١) عن آداب الملـوك مؤدبـاً بهـذه الخصـال كان استفادته لآدابهم وتعلُّمُه لأخلاقهم وتعوُّدُه لعاداتهم أسْهَلَ عليه من انتزاعـه من عادته السيئة بخلاف هذه الخصال .

ويجب أن يُنهي غاية النهي ويُمنع أشدَّ المنع عن مواقعة الرِّيَب ومجالسة أهلها من المضحكين والمساخرين ومن لا أدب له من الصبيان وأن لا يشتم بين يديه وفي مجلسه وبحضرته أحد ، ولا يتكلم بالخنا والكذب والفحش والقذع ، ومن فعل شيئاً من ذلك أدِّب بحضرته وعوقب عليه ليعتبر وينزجر عنه .

ثم لا يفتن كل التفتين ولا ينعّم كل التنعيم حتى تسترخي مفاصِلُه وتضعف

---

(١) عطلا : خاليا .

مُنّته ، بل يصلب وتخشن أطرافه ويؤمر بتعرية اليدين والوجه ، وإن أمر بالسباق والعدو خُلِّيَ بينه وبين ذلك في الوقت بعْد الوقت ، ويضرب الصولجان راجلاً وراكباً ليس به بأس ، فإن ذلك مما يخفف بدنه ويصححه ويهيج في جسمه الحرارة الغريزية التي تذيب الرطوبة وتنفي كثيراً من العلل الزمانية ، ويدفع عنه عادة العجز والدعة

ويؤدب مع ذلك في جلسته وركبته ولبسته ورزانته ، ويُراض بالرياضات التي ذكرناها في باب سياسة النفس ، ويحسَّن عنده ويؤمر به .

وفيما يعرفه الملك ويتكلفه من هذه آداب حسنة وأبيات محمودة وكان يقال : مَن أدّب ولده أدباً حسناً أرغم أنْفَ عدوّه .

وقال بعض الحكماء لولده : يا بَنِيَّ تأدبوا فإنكم إن كنتم ملوكاً برزتم ، وإن كنتم أوساطاً قُدّمتم على الناس ، وإن كنتم فقراء عشتم بفضل أدبكم ، ثم انشأ يقول :

ما يأكل النـاسُ شيئـاً مِن مآكلهم ... أحْلى وأطيب عقباناً من الغضب[1]
ومـا تلحّف إنسـانٌ بملحفةٍ ... أبهْـى وأزْين مِن دينٍ ومـن أدبِ

آداب المعلم

وما أحسن ما صدّر به صاحب كليلة ودمنة كتابه حيث قال : إن أفضل ذخائر الأحداث الأدبُ الصالح ، واقتناؤه في الحداثة والحفظ واع والقلبُ فارغٌ غُنْمٌ ، والمستفاذ في الصغر باق كالنقش في الحجر .

وروى عن عتبة بن أبي سفيان كلاماً تقدّم فيه إلى مؤدب ولده ، لو لم يكن في هذا الباب غيرُه لكان فيه كفايةٌ عن غيره ، ومَنْدوحةٌ عما سواه ، إذ قال له يا عبد

(١) الغضب : هكذا جاءت في الأصل . وهو خطأ واضح ولم اعثر على صوابه فأبقيته كما هو . ولعل صوابها النصب بمعنى التعب في سبيل المعالي . ومعنى عقباناً عاقبة .

الصمد : ليكن أوّل ما تبدأ به من إصلاح بَنِيَّ إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، علّمْهم كتاب الله ولا تستكرههم عليه فيملّوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، وروّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يُحكِموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مَضَلّةٌ للفهم ، وتهدَّدْهم بي ، وأدّبْهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذي لا يضع الدواء إلاّ بعد معرفة الداء ، وروّهم سير الملوك وجَنّبْهم محادثة النساء ، ولا تتكلنّ على عذر مني فإني اتكلت على كفاية منك ، واسْتَزِدْني بزيادتك إياهم أزِدْكَ إن شاء الله .

الأدب الصالح

ووجدنا في بعض كتب العجم : يُكْتَسَبُ من الأدب الصالح العقلُ النافذُ ، ومن العقل النافذ حُسْنُ العادة ، ومن العادة الحسنة الطباع المحمودة ، ومن الطباع المحمودة العملُ الصالحُ ، ومن العمل الصالح رضا الرب ، ومن رِضا الرب الملك الدائم . قالوا : ويكتسب من الأدب السوء فسادُ العقل ، ومن فساد العقلِ سوء العادة ، ومن العادة السيئة رداءة الطبع ، ومن الطباع الرديئة سوء العمل ، ومن العمل السيء سوء القالة وغضب الله ، ومن غضب الله وسخطه الذلُّ الدائمُ .

وقالوا : الأدبُ زينة الأشراف ودليلٌ في اعتيادهم على شرفهم ، وعُدّةٌ لمن سواهم ، وآلةٌ للأعمال وعون للملوك الذين لا غنى لهم عنه .

وقال عبد الله بن المعتز : الأدب زينة عقلك ، فزيِّنْ عقلك كيف شِئتَ .

وكذلك القول في كل مَن يُعنى الملكُ برياضتهم هذه العناية ويريد لهم هذه الرياضة ، ويرشحهم للملْك من أقاربه وخاصّته .

صلة الأرحام

وأما جملة الأقارب وذوي الأرحام فإنّ الله ـ جلّ وعز ـ أمر بصلتهم وتقريبهم

والرأفة بهم وبرهم في غير موضع من كتابه ، فقال : ﴿ وأولو الأرحام بعضُهم أوْلى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ﴾[1] . وقال : ﴿ والذين يَصِلون ما أمَرَ اللهُ به أنْ يُوصَلَ ﴾[2] .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « صلة الرحم زيادة في العمْر » . وقال : « بُلّوا[3] أرحامكم ولو بالسلام » .

وروي عن أبي ذرّ رحمه الله قال : أوصاني رسولُ الله ﷺ أن أصِل رحمي .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « صلة الرحم وبرُّ الوالدين وحُسْنُ الخُلُق تعمر الديارَ وتكثر الأموال وتزيدُ في الآجال ، وإن كان القوم فجاراً[4] » .

فالواجب على كل مسلم أن يصل رحمه وقراباته بالبشر والتقريب والبرّ والترحيب والمواساة والمعاونة .

فأمّا الملوك خصوصاً فإنهم أحق الناس باقتناء هذه الفضيلة واجتناء هذه المكرمة . ولم يزل الفضلاء منهم والعقلاء يأمرون به ويفعلونه ويوصون به ويمدحونه ويعدّونه كرماً وعزاً ومفخرة وذكراً ، ومباهاة للمناوئين ، واعتضاداً على المخالفين ، ويرتفعون عن ظلمهم وضيمهم ، ويعدُّونه لؤماً ودناءة وسوء تدبير ، وقال في ذلك حاتم الجود :

وما من شيمتي شتمُ ابنِ عمّي ‏ ‏ ‏ ‏ وما أنا مخلِفٌ من يرتجيني

---

(1) آية ٦ الأحزاب .
(2) آية ٢١ الرعد .
(3) بلّوا : من البلل ، كما عُبّر عن القطيعة بالصلابة .
(4) لم أجد حديثاً بهذه الألفاظ في كتب الحديث ولكن هناك أحاديث بمعناه .

وقال آخر[1] :

أخـاك أخـاك إنّ من لا أخـا له | كسـاعٍ إلى الهيجـا بغـير سلاح
وإنّ ابـنَ عم المرءِ فاعْلـمْ جناحُه | وهـل ينهضُ البـازي بغـير جناح

وقال بعض قرابات المهلّب يستبطئه ويستزيره :

جفانـي الأمـير والمغـيرةُ مثله | وأمسى يزيد لي قد ازورّ جانبهُ
وكلهـم قد نال شِبْعـاً لبطنه | وشِبْـعُ الفتـى عارٌ إذا جاع صاحبُه
فيا عمّ مهْـلاً واتخذْنـي لنبْوة | مِـن الدهـر إنّ الدهـرَ جمٌّ نوائبهُ
أنـا السيفُ إلاّ أنّ للسيف نبْوةً | ومثلي لا تنبـو عليك مضاربهُ

وقال الشافعي لبعض قراباته مستزيراً له :

إذا كان ذو القربـى إليك مُبَعّداً | ونـال الـذي يهْـوَى لديك بعيدُ
تباعـد عنـك الأقربـون لشأنهم | واشفقـت أن تبقـى وأنـت وحيدُ

وقال بعض قرابات يحيى بن خالد وكان قد ناله منه إعراض وجفوه:

تصـول على الأدنـى وتجتنـب العدى | ومـا هكذا تبنـي المكارم يا يحيى
وكنـتَ كفحـلِ السـوء يبـدأ بامِّهِ | ويتـرك باقـي الخيل سائمـة ترعى

العناية بالخدم

فأمّا حاجة الخدم والحشم فلا بد من أن يكون في دور الملوك من المؤدِّبـين والمعلمين مَن يعلّم الغلمان والخدم والفِتيان والحشم ما يحتمله حال كل واحد منهم من القرآن والدين ، ويذكرهم في الوقت بعد الوقت بالله ، ويعرفهم أصول الدين

(١) هو مسكين الدارمي ، واسمه ربيعة بن عامر بن أنيف من بني دارم توفي سنة ٨٩هـ .

والشرائع وإقامه الصلوات بتمام طهورها وركوعها وسجودها ، ويفسر لهم نوافلها وفروضها ويعرفهم محاسن الأخلاق ومحامد الأفعال ، ويعظهم ويذكره ويخوفهم بالنار ويدعوهم إلى الجنة ودار القرار ، ويحثهم على الجهاد . ثم منعهم من الفساد وسوءالأدب وارتكاب ما حرّم الله من الكبائر كالزنى والقذف ، فمن ارتكب منهم ذنباً على السهو والغفلة فالوجه فيه الاعراض والتغافل ، ومن ارتكب صغيرة دون ما يجب فيه لله حَدٌّ أو يعود على المملكة والدين بفساد ، فالوعظ والنكير والترغيب والتنفير ، فإن تاب عنه وتركه وأناب فالصفح والعفو عنه ، فإن عاد فالعقوبة والتنكيل على اللجاج والإصرار ، على مقدار الجناية والذنب .

وإن كان الملك ممن يحتسب في أمر الدين خاصّة فإن الواجب في السياسة أن يكون معه وبحضرته وفي داره من أهل التوحيد والفقه في الدين ـ من يعلمهم أصوله ويقف بهم على أقواله وجوامعها ، ويزيد مَن رأى في طبعه قبولاً للزيادة ، ويرجو منه صلاحاً للاستفادة .

ويجب أن يستعان على تقويم كافة الخاصة بخصال عشر :

تقويم امور الخاصة

أوّلهنّ أن يظهر لهم ـ خاصّهم وعامّهم واقصاهم وأدناهم ـ أن لا يرضى منهم إلاّ ما يرضاه من نفسه من الأخذ بهذه الخصال المعدودة المذكورة ، أو ما تَبْلُغُه منها طاقة كل واحد منهم .

والثانية ـ أن يُدِرَّ عليهم أرزاقهم وجراياتهم ووظائفهم وعطيّاتهم حتى لا تتأخر عن أوقاتها ، ويوسعها عليهم توسعةً تغنيهم عن حيف الرعية والطمع في أموالها ، ويكفيهم مُهمّهم من أمر دوابّهم وخيلهم وخدمهم وسلاحهم وكراعهم ، ويكون تقديرهم في ذلك تقديراً حسناً متوسطاً بين الاسراف والتقتير ، فإن في ذلك أبواباً من الصلاح والخير تعود بانتظام أحوال المملكة وراحة الراعي والرعيّة .

الرجل المناسب في المكان المناسب

والثالثة ـ أن لا يقدّم أحداً منهم قَفْزاً ، ولا يرفع منهم وضيعاً ، ولا يؤخر

أحداً ولا يضع له قدراً إلا على استحقاق في قديمه أو بلاء في نفسه أو كفاية أو غَناء، لا ميْلاً إلى هوى ولا حَيْفاً على أحد ، فإنهم إذا عرفوا ذلك تنافسوا في أبواب القُرْبة ، وتشاحّوا على حُسن الطاعة ، وتسارعوا في البلاء والكفاية ، ولا يستزيد المبْلي منهم زيادةً على قدر بلائه ، ولا يُطمِع مقصّراً فيما ليس له ، فإذا كانا عاقلين صار الكل من الملِك راضين وبمراتبهم قانعين .

مراقبة العمال

والرابعة ـ أن لا يسوّغ لأحد منهم شيئاً من ظُلْم الرعية قَلَّ أو كَثُر ، ويعلمهم الملك ذلك من رأيه كتاباً وشفاهاً واستعمالاً ، ويُعرّفهم أنه لا فرق بينهم وبين سائر الرعية في أحكام الله وقضاياه ، وأنّ ذلك فرض من الله لا يحتمل تغييراً ولا تبديلاً .

ولا بدّ في الدين من بذل النصفة والمعدلة والتسوية بين الشريف والوضيع ، والأقصى والأدنى ، فإن ذلك مما يردعهم من ظلم الرعية واضطهادها ، وإن في ظلم الرعيةِ العقوبة في الدنيا والآخرة ، وقُبْحَ الأحدوثة ، وازدراءَ العداوة والبغضاء في ضمائرهم ، وتخريبَ المملكة وإخْلاءَها مَن أَهْلِها ، وإطماعَ العدوّ فيها ، واستبداد كثير من الخاصّة بالمملكة والولاية ، وفي ذلك سقوط المهابة وتفرق الكلمة .

مع أنه إذا جرت هذه العادةُ في خدم الملوك صعُبَ انتزاعها منهم إلاّ بتدريج وترتيب وعناية شديدة ورفق كثير واستبدال بهم جملةً ، وفيه خطر عظيم .

والخامسة ـ أن يستعمل فيهم العفو عن صغائر ذنوبهم وما يقع سهواً وغفلةً وخطأً من جرائمهم ، ولا يعمل على أن يأخذ بكل زلّة ، أو يعاقب بكل علة ويشفي كل غيظ ، فإن ذلك أبلغ في المكرمة وأوْلى بذوي الرفعة والمقدرة ، وأبقى للإحسان والصنيعة ، وأقربُ من ازدراع المحبة ونفي الوحشة والبُغضة ، واستعطاف ذي الحرمة .

وأحقُّ من استعمل فيهم الملك هذه الخلّةَ خَدَمُه الذين يصول بهم على أعدائه ، ويرتبط بهم لصلاح الرعية وعمارة مملكته ، ويأتمنهم على مُهْجته .

وتمام هذا الباب في خلال ست :

أولها ـ أن يبحث عن مذهب الخاصّة وما يرتكبون من الذنوب والمعاصي ، ويطلع عليهم حتى يعلم .

والثانية ـ أن يتغافل عماّ يجوز التغافل عنه ، كأنه لا يعلم .

العفو يسبق العقوبة

والثالثة ـ أن يقتصر بالعقوبة على أدنى ما يكتفي به منها ، ويُرجى معه الردع والتقويم .

والرابعة ـ أن يحتال ليعفو ، ولا يحتال ليعاقب ، ما لم يبلغ ذلك كبيرة في الدين أو فساداً في الملك .

والخامسة ـ أن يستأني بالعقوبة ويؤخرها ، ما لم يجُرّ ذلك إهمالاً وإضاعة وتخريباً وإهداراً ، ليتوب مذنب أو يثوب مجرم ، أو يُدْلي متهمٌ بحُجة ، أو يأتي بريء بمعذرة .

والسادسة ـ أن لا يحُابي في حَدٍّ من حدود الله إن ارتكبه مُرتكِب أو استوجبه مُستوجب حتى يعاقبه به ويُقيمه عليه .

وإن ذلك كله من أدب الله الذي أدّب به خَلْقَه ، وأوصافه التي وَصَفَ بها نفسه ، يقول الله ـ جل وعز ـ في أول هذه الفضائل : ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيدٌ . ما يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ** ﴾.[1] ويقول : ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها** ﴾ .[2] ويقول

(١) آية ١٧ ـ ١٨ ق .
(٢) آية ٤٩ الكهف .

لنبيه ﷺ : ﴿ خذ العفو وأمر بالعُرْفِ واعرضْ عن الجاهلين ﴾[1] .

ويقول : ﴿ وليَعفُوا وليصفَحوا ألا تُحبون أن يَغفِرَ الله لكم والله غفورٌ رحيمٌ ﴾[2] . ويقول في العفو عن صغائر الذنوب وما يقع منها على غير تعمدٍ : ﴿ إنْ تجتبنوا كبائر ما تُنهَونَ عنه نُكفِّرْ عنكم سيئاتِكم ﴾[3] . ويقول : ﴿ لا يؤاخِذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كَسبت قلوبكم ﴾[4] . ويقول في تأخير العقوبة : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها مِن دابة ولكن يُؤخرهم إلى أجلٍ مُسمى ﴾ .[5]

وقال النبي ﷺ ادْرأوا الحدودَ بالشُّبُهاتِ . ويقول الله ـ عز وجل ـ ﴿ يَعْلَمُ خائِنةَ الأعين وما تخفي الصدور ﴾[6] . ويقول : ﴿ فإنه يعلم السر وأخفى ﴾[7] . ويقول : ﴿ ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسهم ﴾[8] .

ويقول في المعاقبة عند تحقيق الكلمة وظهور المفسدة: ﴿ فلمّا آسفونا انتقَمْنا منهم ﴾[9] . ويقول : ﴿ ففسقوا فيها فحَقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً ﴾[10] .

فالواجب على الملك الفاضل الاقتداءُ بالله ـ جل ذكره ـ في هذه الخلال

---

(١) آية ١٩٩ الأعراف .
(٢) آية ٢٢ النور .
(٣) آية ٣١ النساء .
(٤) آية ٢٢٥ البقرة .
(٥) آية ٤٥ فاطر .
(٦) آية ١٩ غافر .
(٧) آية ٧ طه .
(٨) آية ٧ المجادلة .
(٩) آية ٥٥ الزخرف . واسفونا أي أغْضَبونا .
(١٠) آية ١٦ الإسراء .

كلها ، والائتمار بأمره في هذه الخصال ، ما لم يرتكبوا الحدود أو قاموا بما يعود العفو عنه بفساد الدين والمُلْك ، فإذا فعلوا ذلك فالواجب عليه إقامة الحدود ، وإمضاءُ القصاص والقَوَد والإحالةُ على الله ـ جل ذكره ـ وعلى الديانة ، فإن في ذلك إبْلاءَ المعذرة ، وقطع أطماع الخاصّة والعامة والحاشية ، والدواهي العارضة .

ولا يمْنعنّ الملِكَ من ذلك إبقاءٌ على خَدَمِه وقرابته ، أو محاباةٌ لخاصته وحاشيته ، فإن الابقاءَ عليهم في ذلك ترْكٌ للاتقاء ، وإصلاحُهم بترك الحدود الواجبة إفسادٌ ، يقول الله جل وعز : ﴿ **ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب** ﴾ .[1]

وقد ضرب عمر بن الخطاب ابْنَه الحدَّ على شرْب الخمر[2] فمات فيه ، ثم دخل عليه في مرضه عائداً فقال : يا ابت قَتَلْتَني ! فقال : إذا لقيتَ ربَّك فأخبره بأنّ عمر يقيم الحدودَ . وقد قال في ذلك بعض الشعراء فأجاد :

وإنّ يداً بالداء قد طالِ سُقْمُها ... وقد خيفَ منها الداءُ أن يتقدّما
لمحقوقةٌ بالقطع كي لا تغمّه ... ويُفلت من آفاتها متسلما

وقد قال في ذلك بعض الملوك الحزَمة : واعلموا أن الوالي قد يُفسِد بعضَ الرعيّة من حرصِه على صلاحها ، وقد يُغلظ عليها من شدةِ رِفْقِه بها ، ويقتل منها مِن حِرْصه على حياتها .

وفيما كتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر : اجْرِ الحلم على الخاصة والعامة بالسّواء ، واعلمْ أنّ في صلاح الخاصّة صلاح العامة . وقال : كنْ رؤوفاً رحيماً ، ولا تكن رأفتك ورحمتك فساداً لمن يستحق العقوبة ويصلحه الأدبُ . وقال : أيُّ مِلك سوّى في الحكم بين أصحابه حُمِدَ وسَلِم .

وحكى عن بعض قدماء الملوك قال : إني لا أجهل فضْلَ العفوِ ولكن ليس على الحدود .

---

(١) آية ١٧٩ البقرة .

(٢) وقيل إن هذا الحد كان على الزنى وان ابن عمر مات قبل أن يكمل الجلد مائة ، وهذه الرواية هي المشهورة .

وفي كتاب كليلة ودمنة من هذا الباب كلماتٌ كافية ، قال في بعض قصصها : إن الملك قد يموتُ من قبل هذا المجرم ووجل أن يكون قد شبّه عليه ورأى الفحص عنه ، فمن كان عنده من ذلك علم فليذكره ولا يكتمه ، لخصال ثلاث : منها الشهادة لله بما علمتم ، فإن الكاتم لعلْمه في مثله مشترك في موته . ومنها أن عقوبة المجرم بجُرْمِهِ مقمعةٌ لأهل الريبة ، ومصلحة للملك والرعيّة . ومنها أن نفي الأشرار من الأرض زيادةٌ في عز الدين وبهاءِ المُلْك ، وصلاحٌ للرعية ، ومَحْقٌ للأحقاد . وأن يكون القضاء في ذلك على الحق واليقين ، لا على الهوى والظنون .

الفراغ مفسدة

والسادسة ـ[1] أن لا يدعهم أياماً طويلة وأوقاتاً متتابعة فُراغاً لا شُغل لهم غير الراحة والأكل والشرب والدَّعَة ، حتى يصرفهم في شُغْل تحمد عاقبته ، وتجدي عائدته على المملكة والديانة بجهة من الجهات ، من غزو أو جهاد أو مثاقفة أو سباق أو رماية أو رِشاق ، أو خدمة ، أو تعلّم شيء من الأدب والخير ، فإن الراحة الطويلة والخفْض والدّعة والإكباب على النعمة يرخي مفاصلهم وينعم أبدانهم ويثقل أجسامهم ويعوّدهم العجز والفشل والضعف والكسل. ثم عند الفراغ الطويل يذكرون فنوناً من الفساد ، من الشرب والعربدة والقتل والجرح والشتم ، وقديماً ما قال الشاعر :[2]

إنّ الشبابَ والفراغَ والجِدَه ... مَفْسَدَةٌ للمرءِ أيّ مَفْسَدَة

وقد قيل : لا ينبغي للعاقل أن يفني عمره إلا في إحدى ثلاث : مَرَمَّةٍ لمعاشِهِ[3] ، أو خطوةٍ لمعادِهِ ، أو لذّةٍ في غير مُحَرَّم .

على أن الحكماء الحزمة من كل فرقة قد استخفّوا بالضرب الثالث[4] وذمّوا مَن

(١) من التقسيم الذي ذكره بقوله : « بخصال عشر »

(٢) هو أبو العتاهية واسمه اسماعيل بن القاسم توفي سنة ٢١٣ هـ في خلافة المأمون العباسي .

(٣) مرمّة المعاش : السعي فيه بما يصلحه ويقيمه ، فعلها رمّ ومنه ترميم البناء

(٤) اي اللذة

جعل اللذة اكبَر همّه واكثر شُغْلِه ، حتى قال الشاعر في ذلك :

إنــي وجــدت من المكارم حَسْبَكم ... أنْ تلْبَســوا خَزَّ الثياب وتَشْبَعوا
فإذا تُذوكرت المكارمُ مَرّةً ... في مجلسٍ أنتــم به فتقنَّعوا[1]

وقال آخر :[2]

دعِ المكارمَ لا ترحــلْ لبغْيتها ... واقعدْ فأنت لعمري الطاعم الكاسي

وقالوا : إنما يحتاج من المطاعم والمناكح إلى ما يقيم القوة ويبقي النسل ويجب أن يكون الفضل مصروفاً إلى القسمين الباقيين .

واستخفّ الزهادُ المتبتلون بحرمة المعاش إلا إذا كان فيها خطوةٌ للمعاد ، وإلاّ أوجبوا أن يكون السعيُ كله لدار البقاء والقرار دون دار النُّقْلةِ والزوال . وقد قيل لبعض الحكماء : ما الفرق بينك وبين العامّة ؟ قال : أنهم يعيشون ليأكلوا ، وأنا آكل لأعيش . ولذلك ما صدّر به صاحب كليلة ودمنة كتابه بأن قال : تقسَّمت الناسَ أَرْبعٌ : الرغبة في المال ، والشهوة للـذات ، والطلـب للـذكر ، والعمـل للمعاد . والثلاث وشيكة الفناء باقية التبعة ، والرابع ينتظم الثلاث بلا تبعة . ولا غنى كالرضا ، ولا لذة كالتقوى وما يعجل من فرح البشرى ، ولا ذكر أشرف من طاعة الله التي أخافتْ مَن صاحَبَها كلَّ شيء ، وخاف من عدمها كل شيء .

اختيار الأعوان

والسابعـة ـ أن يسـتخصّ مِن بعضهـم خواصّ لمشاورتـه ، ويشركَهـم في وزارته ، يكونون واسطة بينه وبينهم ، وأعواناً له على باقيهم وعُيوناً عليهم إنْ أحْدث مُحْدِثٌ أو كَاد كائدٌ . ثم لا يفعل ذلك بمن فعل به منهم إلا بَعْد امتحان وتجربة وابتلاءٍ وظهور نصيحة وشفقة وعفة وأمانة ومساهمة ومشاركة وكتمان للسرّ

---

(١) تقنّعوا : أي البسوا أقنعة واستخْفُوا فلستم أهلاً للمكارم .

(٢) هو الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر ، والمعنى : لا تطلب المكارم فإنما يكفيك أن تأكل وتلبس .

ووفاء له ولمن تقدمتْ صحبتُهم له ، فعلى هذا جرت السنّةُ واستمرت العادة في كل نبوّة وديانة ومملكة وعمارة احتيج في إقامتها إلى جنود وجيوش ، ولا يستقيم شيءٌ منها إلاّ بعْد تدريج وترتيب وتحويل من درجة إلى أقرب الدرج منها ، فإن ذلك أشْبهُ بأدب الله وادل في الأخذ عنه في مواترته العصم والتوفيق والمثوبة والتأييد .

والمعرفة بما لا يصلح المرفوع والمريد ويصلح به ، فقد قال الله في أول هذه القضية : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾.[1] وقال : ـ ﴿ ولقد أَخَذَ اللهُ ميثاقَ بني إسرائيل وبَعَثْنا منهم اثني عَشَر نَقيباً﴾ .[2] وقال ﴿ واختّارَ موسى قومَه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ .[3] وقال: ﴿ يا موسى إني اصطفيتُك على الناسِ برسالاتي وبكلامي﴾ .[4] .

واختار النبيُّ ﷺ من صحابته لوزارته ومشاورته جماعةً ، واختار لبيعة الرضوان نفراً من أصحابه ، ولخدمته جماعة ، ولقيادة الجيش جماعة ، ولرسائله وكتابته عدّة ، ولاستخلافه على الأعمال جماعةً ، واختار للإمامة بَعْده نفراً قد سماّهم فقال :«إن استخلفتم أبا بكر وجدتموه قوياّ في دينه ، ضعيفاً في بدنه ، وإن استخلفتم عمر وجدتموه قوياً في دينه قوياً في بدنه ، وإن استخلفتم علياّ وجدتموه هادياً مهدياً .» .

وقد فضّل اللهُ مع ذلك بعض ملائكته على بعض ، فبالله وملائكته ورسله قُدْوةٌ وأسوةٌ .

إنكار المنكرات

والثامنة ـ أنْ يتعهّد فُشُوَّ الفسوق وشرب الخمور [ولعب] الميسر في عسكره ، فيغيرّ من ذلك ما كان مكروها في الدين ، فقد أمَرَ اللهُ به في غير موضع من كتابه ، وقد تلوْنا منها آياتٍ فيما تقدم من كتابنا ، وروينا عن النبيﷺ أنه قال :

(١) آية ٧٥ الحج .
(٢) آية ١٢ المائدة .
(٣) آية ١٥٥ الأعراف .
(٤) آية ١٤٤ الأعراف .

«ما مِنْ قومٍ يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي وقدروا أن يُغيرّوا فلم يُغيرِّوا إلاّ عمّهم الله بعذاب». وقال: «لتأمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهوُنَّ عن المنكر أو ليُسَلِّطنَّ اللهُ عليكم شرارِكم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم[1] ».

هذا بعد قول الله ـ تبارك اسمه ـ : ﴿ **لُعِنَ الذين كَفَروا من بني إسرائيل على لسانِ داو د وعيسى بن مريمَ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعْتَدُو ن. كانوا لا يَتناهَوْن عن مُنكرٍ فَعَلَوه لبئْسَ ما كانوا يفْعلو ن** ﴾.

وفيما كتبه أرسطاطاليس إلى الاسكندر : انكرْ الفجور فإن فشوَّه يهلِكُ الأمَّةَ ، وهو من خواص الدواب الدنيّة . وقال : تفقدْ ظهور الفجور والسكر في عسكرك فإن هذين مفتاح الضعف ، وفيهما هتك القوة .

وأقول: قد جرّب هذا المعنى في غير واحد من عساكر الملوك فوُجِد الأمرُ على ما قال، أعني أن ظهور الفجور كان أمارة لوَشك البوار وقرب الهلاك.

لين الجانب

والتاسعة ـ هي أن يُلينَ جانبَه ويخْفِض جناحه في بعض الأوقات لهم ، ويبسط كنفه لأقصاهم وأدناهم وخاصهم وعامّهم ، ويسهّل لهم الإذن في الدخول عليه ، ورفع الحوائج في الوقت بعد الوقت إليه ، ولا يحتجب عنهم احتجاباً يورث الوحشة ، ولا يتطاول عليهم تطاوُلا يوجب البغضة ويدل على الخيلاء والجفوة .

تعهد الضعفاء

والعاشرة ـ أن يتعهد مَرْضاهُم وزَمْناهُم وأيتام موتاهم وورثتهم الضيَّع ، وإبدال ما ينفق في وقائعه من دوابهم ويتلف فيها من كراعهم وسلاحهم وأموالهم ، فإنهم إذا عرفوا ذلك ووثقوا به جادوا بأنفسهم وما معهم من ذلك ، وإذا وثقوا بخلاف ذلك ضنُّوا بما حصل في أيديهم ، وتأخروا عن مهالكهم شفقة على أهليهم وأولادهم .

وهذا أدبٌ من أدَب الله ـ عزّ وجل ـ ، وفيه قُدْوةٌ به ، لأن الله ـ تعالى ـ

(١) رواه الطبراني عن أبي هريرة . انظر مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٦ وجامع الأصول ١/ ٣٣٢

(٢) آية ٧٨ و ٧٩ المائدة .

يقول : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نَصَبٌ ولا مخمَصَةٌ في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفارَ ولا ينالون من عَدُو نيلا إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالح إنّ الله لا يُضيعُ أجر المحسنين . ولا يُنفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحْسَنَ ما كانوا يعملُون ﴾[1] .

فليس أحدٌ عندنا ينفق نفقة أو يسعى في سبيل الله سعْياً صغيراً أو كبيراً إلاّ عجّل الله له ثواباً من الخلف والمدح والتوفيق واللطف ، واجزل له ثواباً من المغفرة والرحمة ، ويعتاض الجنة ما لم يحبط أجره بجريرة من كفْرٍ أو كبيرة .

وكان النبي ﷺ يقول في خطبته : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من تَرَكَ مالاً فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضَياعاً فعليّ وإليّ » .

ولقد قال خطيب وفد لسليمان بن عبد الملك : لقد حببت إلينا الحياة وهونت علينا الموت فإنا نرجوك لمن نخلف من أعقابنا . وكذلك ما قال بعض الشعراء :

لولا أُميمةُ لم أجْزَعْ من الهرم ... ولم أُقاس الدجى في حِنْدس[2] الظُلَمِ
وزادني رغبةً في العيش معرفتي ... ذُلَّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أُحاذِرُ الفقرَ يوماً أَنْ يُلِمَّ بها ... فيهتك الستر عن لحم على وَضَم[3]

وقد قال في ذلك أرسطاطاليس : وأبذَلُ الأموال عند الحاجة من يحتاج إلى معونة .

توزيع المسئوليات

ثم لا بدّ للملِك مع ذلك من الاستعانة بالأخصّ الأخصّ من خدمه في مهمات أعماله ، من جباية أموال المملكة وتفريقها على الجيوش وفي سبيل

(١) آية ١٢٠-١٢١ التوبة.
(٢) حِنْدِس : بكسر الحاء والدال مع تسكين النون ، : شدة الظلام.
(٣) وَضَم : الوضم ما يوضع عليه اللحم من خشب ونحوه يوقى به من الأرض والمراد أن اليتيمة مطموع فيها كما يطمع في اللحم على الوضم .

الحقوق ، ولا بدّ في إقامه المملكة والولايات العظيمة من وزراء وخلفاء وكتّاب وأصحاب جيوش وعارضين وأصحاب شرَط ونُقباء وأصحاب حرس وأصحاب أخبار وولاه وقُضاة .

فليجتهد الملِكُ في اختيار هذه الطبقات من أهل الكفاية والاستقلال والشهامة والأمانة والعفة والديانة والعقل والأصالة . فمن هذه الخصال ما يحتاج إليه في بعض دون بعض . فمن الخصال التي يحتاج إلى أن تعم الجميع ـ الدينُ والعقلُ والأمانةُ والكفايةُ والاستقلال بما يُعْصَبُ به ويفوَّض إليه ، لأن منهم مَن يأتمنه الملِكُ على دمه وروحه ، ومنهم من يأتمنه على خدمه وحرمه ، ومنهم من يأتمنه على سرّه ومشورته العظيم خطرُها الجليل قدرها ، ومنهم من يأتمنه على دينه وآخرته ، ومنهم من يأتمنه على امواله وخزائنه .

فمن لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب الخيانة كانت الأمانة منه معلقة برغبة حاضرة أو رهبة معجلة ، ولا يبعد أن تزول معهما إذا زالتا ، وتميل معهما إذا مالتا ، وربما حَمَلَهُ سوءُ العادة على مخالفة شرائط الرغبة والرهبة ، وتعدّي حدودها ، والاستخفاف بها ، وإذا لم يكن له أمانةٌ خان ، وإذا خان في مثل هذه الأمور فربما عاد بضرر شامل أو فساد مستأصل .

وإذا لم يكن عاقلاً فربما أراد أن ينفع فيضرّ ، وأن يحفظ فيُضيِّع ، ويزين فيشين ، ويحسن فيقبح .

وإذا لم يكن فيه كفاية بما فوّض إليه وعُصِب به ـ ضاع الأمرُ وانتشر .

ثم مِن هؤلاء مَن يجب أن يكون الغالبُ عليه في أبواب فضائله الأصالةَ وحُسْنَ التدبير والتقدير وجودة القريحة والبديهة وحسن الاستدلال بالشاهد على الغائب ، وبالماضي على الآتي ، وهم لكل باب من الرسوم السلطانية .

ومنهم من يحتاج منه إلى فضل معرفة بالأدب واللغة وحسن الخط ، والبيان

في اللفظ ، وسهولة اللقاء وجودة القريحة ، وهو الكاتب .

ومنهم من يحتاج منه إلى فضل معرفة بالحساب وعمل الدخْل والخَرْجِ ، وهم الوَكلاءُ وجُباةُ الأموال من الكُتّاب .

ومنهم من يحتاج منه إلى شجاعة وجلاده وشهامة وبسالة ودربة بالوقائع ، وممارسة لها ، وهم الأساورة وأصحاب الجيوش .

ومنهم من يجب أن يكون الغالب عليه العلمُ والفقهُ والديانةُ والعفّةُ والأمانةُ والدرايةُ والعدالةُ والصيانةُ والمعرفةُ بالأحكام والحدودِ والفرائِض والشروط ، وهو القاضي .

فعلى حسب ذلك يجب أن يختار الملِكُ وُلاةَ أعماله وجُباة أمواله . وليعلم أنه ليس يجد من يكمل بكل فضيلة ، ويبرز في كل منقبة ، ولكنه يختار لكل عمل مَن هو أصلح له وأسد لمسدّه وإن كان فيه تخلّفٌ أو تقصيرٌ من جهات أُخر ، فإنه لا يجد مهذباً لا عيب فيه ، وكاملا لا نقص معه ، وإذا لم يستعمل ذوي المعايب ضاعت الأمور وتعطّلتْ .

سبل التقويم

ثم ينبغي للملِك أن يستعين على تقويم هؤلاء بعد حسن الاختيار والأصالة في الاستعمال ـ بخصال خمس :

أوّلُها ـ أن يتقدم إليهم جميعاً بالعدل والإنصاف ولزوم فرائض الشريعة وحدود المِلّة ، وتقديم الوعيد بالنار على من تعدّى فيه أو ظلم أو ضام أو غشم ، كما يتقدم إليه باستيفاء ما يجب له على الرعية ، والاستقصاء عليها ، ولا يطلق لأحدٍ كسرها ، ولا يسوغ لأحد منهم أخذ دِرْهمٍ واحدٍ من غير حقه ، فإنه إذا أطْلَق ذلك له أطْلَقَ هو لمن تحت يده ، فإنّ لكل عاملٍ عاملاً ، ولكل صاحبٍ صاحِباً يطمع منه في مثل ما طمع هو فيمن فوقه . فإذا كان كذلك صار القليل من ذلك كثيراً ، فأضرَّ ذلك بالرعيّة ولم ينفع الراعي بل ربما ازداد ذلك حتى يكثر فيحيف بها

فتهلك ، ويكون في هلاكها هلاكُ ملِكِها وواليها ، لأن بيوت الرعـايا وأبدانهـم معادن ومزارع لبيوت أموال الرعاة وأصول لها ، فإذا خرب الأصل خرب الفرع ، وإذا انقطعت المادة من المعدن والأصل ذهب ما في بيوت الأموال وفني .

ومثّلوا ذلك مثال جداول تُفْضِي إلى بِرْكةٍ ، فإذا انقطع ماؤها لم يلبث ما في البركة أن يقلّ ويفنى ، ولا سيما إذا كان الخروج منها دائماً والمستقون كثيرين .

ولا شيء أقطعُ لسيل الأموال من الخزائن وبيوت الأموال من الجور والظلم وتعدّي الحق والرسم .

وقد وقّع بذلك عبدُ الله بنُ طاهر فقال : الخراج عماد المُلْك ، فما استُدِرَّ بمثل العدل ، ولا استُنْزِرَ بمثل الجور .

وفيما أوجب الله ـ جل وعز ـ على عباده من الزكوات والصدقات أعظمُ شاهدٍ وأبْينُ دليل وأحْسَنُ مثال ، لأنّ الله جل وعز لم يوجب عليهم مما ملّكهم من الأموال إلا جزءاً من أجزائها:العُشر من ثمرة الأرضين التي لا يكلفهم سقياها ، ونصف العشر مما يلزمهم كُلْفةٌ فيها أو الخراج الخفيف في رقاب الأرضين ، وربع العُشَر من صوامتهم[1] ، وقرما[2] من سوائمهم القليلة العدد، فإذا كثرت فعُشر أو ما يقرب منه من الأغنام وغيرها.

ثم لم يوجب ذلك إلا في مال مثمّر أو ممكن التثمير ، ولذلك أوجب الله الجزية على أعدائه من كفار أهل الذمّة ، إلا أنه لم يوجبها إلاّ على معتمل قوي أو موسرٍ غنيّ ، ثم أمهلهم في ذلك مدة يمكنهم فيها الزيادة والتثمير والنماء والتكثير ، كل ذلك إبقاء لمواد الأموال في أيديهم ، ولأصولها في أملاكهم ، ونظراً لهم ورأفة بهم وتخفيفاً عنهم.

وقد بينّ ذلك سابور بن أردشير في عهده حيث قال : إنما تكون استقامة

(١) الصوامت: جمع صامت ، وهي الذهب والفضة

(٢) القرم : البعير يترك للركوب فالعوامل لا زكاة فيها .

الخراج ورجاؤه بعمارة البلاد والاستكثار من الغلاّت ، ولن يسهل السبيل إلى المبالغة في ذلك وبلوغ الغاية فيه إلا باستصلاح أهله والعدل عليهم والانصاف لهم والرفق بهم ، والعون لهم على ما هم بسبيله ، والترغيب لهم فيه بالتوسعة عليهم في المعايش ، والتخفيف عنهم في المؤونات ، فإن بعض الأمور لبعض أسباب وعوامُّ الناس بخواصّهم عُدَّةٌ ، ولكل صنف منهم إلى الآخر أبْيَنُ الحاجة .

وقال أنوشروان : الملِكُ بالجنود ، والجنود بالأموال ، والأموالُ تستخرج من الأرضين ، والأرضون تزكو بالعمارة ، والعمارةُ لا تتمّ إلا بالعدل .

ولمثل هذه الأسباب ما جعل فُضَلاءُ الملوكِ دورانَ المال في أيدي الملوك والجنود والرعيّة في السَّنَة الواحدة على ثلاثة أقسام ، فقسم يكون في بيت المال ، وقسم في أيدي الجند والقوّاد ، وقسم يكون في أيدي الرعية .

وليعلم الملِكُ المهتمُّ بعمارة مملكته والمعنيّ بأمر ولايته ـ أنه لا عَدُوَّ أعدى له وأقوى عليه وأشدَّ تمكناً من مَقاتله ، مِن عامِلِه إنْ كان جائراً غاشماً ، وخليفتِه إذا كان متعدياً ظالماً ، لأنه الذي لا يقدر عليه أحدٌ من أعدائه إلا عامله وخادمُه ، ثم يورثه لؤم الأحدوثة الذي يشين به عِرضه ويقبّح اسمه على مر الأيام ويفسد عليه رعيته ، وهذا هو الذي ربما يحتال له العدوُّ بكل حيلة فلا يقدر عليه ، ثم يقطع عنه سبل دخْله ويخرب عليه معادن وفره وينابيع ماله ، ثم يُطمع فيه أعداءَه الأبعدين ومنابذيه الأجنبين فلا يبالي بهذا كله لرئيسه وسلطانه بعد أن يتعجل طفيفاً من المال ونزراً من الحرام.

فلا ينبغي للمِلك الحازم أن يقرّ أحداً منهم على ذلك ، ولا يبقى عليه فيه .

مراقبة الولاة

والثانية[1] ـ أنّ من عَثَر منه على شيءٍ من هذا الباب عزله واستبدل به بعد

(١) من الخصال التي ذكرها بقوله : بخصال خمس

تبينِ الحق مِن أمْره، من غير عجلة أو غِلظة ، وعاقَبَهُ عقوبة تحتملها صورةُ حاله ومبلغ جنايته ، واستردّ منه ما أخذ من ظلم ، وردّه على صاحبه ، فإن مضض العدل على الظالم أبْلَغُ وأشَدُّ من مضضِ الجور على المظلوم ، إذا كان المظلوم ينتظر به أجراً ورحمة ، ولا يخاف لذلك وِزْراً ووبالاً ، والظالمُ يخاف عقوبة ويلتزم شيْناً ويستحق عذاباً ونكالاً .

هذا على أن الله ـ جل وعز ـ قد أخبر عن نفسه في كتابه فقال : ﴿ **لا ينال عهدي الظالمين**[1] ﴾ . وأنه لا يتخذ المضلين عَضداً .

فيجب على الملِك الذي يتعرف من الله جليل النعمة في نفسه ومُلكه أن لا يخالف أمْر اللهِ في مُلْكِه ، ولا ينازعه في سلطانه فيُنيل عهدَه مَن أخْبَرَ اللهُ أنه لا ينال عهده ، ويتخذ في عباده عضداً مَن أخبر اللهُ أنه لا يتخذه يداً .

نظام المباحث

والثالثة ـ أن يجعل على كل منهم عيوناً ومشرفين وأزِمَّةً ، سرّاً وعلانية ، من أمناءِ الناس ومشايخ الكوَر[2] وعلمائها وصلحائها وأهل العفة والعفاف منها ، يتبعون آثاره ، وينهون إليه أخباره ، ويكون سبيلُ الأمناءِ والعيون سبيلهم ، ومجالهم مجالهم إذا أخلّوا بما هم بسبيله أو ضيّعوا منه شيئاً ، أو طابقوا أحداً من العمال على ظلم أو جناية أو فاحشة أو ريبة . على أن لا يعجل في ذلك حتى يستبرىء ويملي ويصح عنده ثمار الأخبار أسباباً .

والناس عامّتهم مطبوعون على الحسد والبغضاء ، موكّلون بسوء الظن والفعل ، إلا من عصم اللهُ من الفساد ، ووفّقه للرشاد . والله لم يأمر بالقضاء إلا بعد تبيّن الحق وظهور الصدق ، فليتّقِ الله امرؤٌ في الحكم ، ولينظر فيما يفعل ويقول .

الولاية تكليف

والرابعة ـ أن يجعل الولايات التي يوليها قضاءً بحقّ الخِدمة ، ولا يطمع في

(١) آية ١٢٤ البقرة.

(٢) الكور : جمع كورة وهي المدينة

أحد من عُمّاله لأجل تقليده إيّاه ، بل يُدِرُّ عليه رِزقه المرسوم بالمعروف إذا وجّهه إليه ، وليقدّر عنده أنه إنما ينفعه ليعمل ولا يستعمله لينتفع ، فإن في كلتا الحالتين فساداً كثيراً ، لأن العامل إذا علم أن ولايته قضاءٌ بحق خدمته ومكافأةٌ له عليها أطمع نفسه في الرعية ومطمعه كان في الراعي ، وظن أن كل ما تحت يده ثمرة خِدْمته وجدوى عمله .

وإذا طمع المِلِكُ في عامله طمع هو فيمن تحت يده ، ولم يرْضَ إلاّ بأن يأخذ من رعيته - التي ذكرنا أنها عمارة مُلكه ومعدن خزائنه - أضعافَ ما يبذله له ، ولا يسعه غير ذلك في مذهبه لأن لكل واحد من هؤلاء مؤناً غير ذلك وأغراضاً في تحصيل المال واستيفائه هو يغترضها[1] ، وآمالاً هو يرجوها ، ومطامع لعطلة إن وقعت ، والادخار لمدة إن طالت.

فإذا اجتمعت هذه الأسباب صار ما يؤخذ من الرعية أُضعاف ما يحصل لبيت المال ، وقد بيّنّا ما في ذلك من الفساد.

التضخم الوظيفي

والخامسة - أن لا يستكثر من العمال ولا يستخلف على الرعية منهم إلا العدد الذي لا يجد منهم بُدّاً ، فإنّ في الاستكثار منهم فوق الحاجة ضروباً من الفساد.

أوّلُها - أنهم إذا كثروا كثرتْ أرزاقهم ومؤنهم على بيت المال ، فشَغَلَتْ المالَ عن الأوْجب الأُوْلى والأحقّ الأحرى ، وأضرت ببيت المال.

والثاني - أنهم إذا كثروا كثرت مكاتبتهم وكُتُبُهم وكُتُبُ الأُمناءِ عليهم والشكاياتُ منهم والرجائعُ عليهم ، فشغل ذلك الملك عن كثير مما هو أوْلى وأحقُّ وأجْدَرُ وأخْلَقُ.

والثالث - أنهم إذا كثروا كانوا من اتفاق كُلِّهم على الرشد والفلاح والأمانة

---

(١) يغترضها : أي يجعلها له غرضاً

والصلاح والعفة والعفاف ـ أبْعَدَ ، لأن الأمناء المختارين والكُفاة المقدَّمين في كل عصر وزمان ووقت وأوانٍ ـ أعِزّةٌ قليلون فلا بدّ إذا كثروا من اختلاف أحوالهم في هذه المعاني والخصال التي يحتاج إليها فيهم ومنهم .

فالواجب أن يشتغل منهم ما أمكن وتيّسر وراج بهم العمل وتقدر ، وفي هذا موضع اقتداء بالله من جهة التأسي به ، وذلك أن الله لم يبعث رُسله إلا واحداً بعد واحد في الأيام المتطاولة والمدد المتراخية ، وعند امتساس الحاجة الضرورية من الخلق جميعاً إليه ودُثور الشريعة ووقوع الفترة .

ولم ينصبْ الرسولُ ﷺ لهم في كل عهد إلاّ إماماً واحداً ، وقال لهم : إذا بويع لأميرين فاقتلوا آخرهما .

فهذه خلالٌ مَن راضَ بها خاصّته ، وساس بها حاشيته ، واستعملها في عُمّاله ـ رجوتُ أن يكون قد أدّى حقهم من التأديب والتقويم وحق اللهِ فيهم ، وأصلحهم وأصلح بهم إن شاء الله ، وبه القوة والحوْل والمنةُ والطوْلُ.

* * *

البَابُ السَّابع

في سِيَاسَةِ العَامَّة

قد ذكرنا فيما تقدّم من كتابنا ما يجب على الملك الفاضل والسائس الكامل من الاقتداء بالله فيما للعبد إدراكه ، على مقدار الجهد ومبلغ الوسع ، والائتمار بأمره ، والرغبة فيما رغب فيه ومدح عليه .

وقد وصف الله نفسه بالرحمة بخلقهِ والعدل عليهم ، فقال : ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾(١) . وقال : ﴿ **فاعْلموا أنَّ اللهَ غفورٌ رحيمْ** ﴾(٢) . وقال : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾(٣) .

ثم مدح النبيَّ ﷺ بهذه المديحة ، وفضّله بهذه الفضيلة فقال : ﴿ **حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ** ﴾(٤) . وقال : ﴿ **محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بينهم** ﴾(٥) . وقال : ﴿ **فبما رحمةٍ من اللهِ لِنْتَ لهم** ﴾(٦) . وقال : ﴿ **إنّ اللهَ يأمرُ بالعدْلِ والإحْسانِ وإيتَاءِ ذي القُربى وينْهَى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغْيِ** ﴾(٧) . وقال : ﴿ **ولا يجْرِمَنَّكم شنآنُ قوْمٍ على أَنْ لا تَعْدِلوا اعْدِلوا هو أَقْرَبُ للتَقْوى** ﴾(٨) .

---

(١) آية ٤٣ الأحزاب
(٢) آية ٣٤ المائدة
(٣) آية ٣ الفاتحة و١٦٣ البقرة
(٤) آية ١٢٨ التوبة
(٥) آية ٢٩ الفتح
(٦) آية ١٥٩ آل عمران
(٧) آية ٩٠ النحل
(٨) آية ٨ المائدة

وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامينَ بالقِسْطِ شُهَداءَ للهِ ولو على أنفسكم أو الوالديْن والأَقْرَبِينَ ﴾[1] .

وقال ـ جل وعز ـ فيما وصف به نفسه من العدل ، ونفى عنه من الظلم والجور: ﴿ ونَضَعُ الموازِينَ القِسْطَ ليوم القيامةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وإنْ كان مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ اتيْنا بها وكفى بنا حاسِبِينَ ﴾[2] . وقال: ﴿ وما ربُّكَ بِظَلاَّمٍ للعبيدِ ﴾[3] . وقال: ﴿ وما ظَلَمَهم اللهُ ولكن كانوا أنْفُسَهمْ يَظْلِمون ﴾[4] . وقال: ﴿ وما اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً للعِبادِ ﴾[5]

وروي عن النبيﷺ أنه قال : « ما مِن والٍ يلي جماعةً إلا جاء يومَ القيامة ويداه مغلولتان أنجاه عدله وأهلكه جوره »[6] .

وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه كان إذا بعث عمّاله خرج معهم ماشياً وهم رُكّاب ، فإذا أراد أن يفارقهم قال : اتقوا الله فإنا لا نؤمركم على دماءِ المسلمين ولا على أموالهم ولا على أبشارهم ولا على أعراضهم ، ولكنا نؤمّركم لتصلّوا بهم الصلاة لوقتها وتجاهدوا بهم على عدوّهم ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل. ألا لا تضربوا العرب فتذلّوهم ، ولا تمنعوهم حقهم فتحرموهم ، ولا تجمُرّوهم[7] فتفتنوهم .

قال : وكان نبي الله داود عليه السلام يقول : اذكر الجائع إذا شبعت ، واذكر العريان إذا اكتسيت .

---

(١) آية ١٣٥ النساء
(٢) آية ٤٧ الأنبياء
(٣) آية ٤٦ فصلت
(٤) آية ٣٣ النحل
(٥) آية ٣١ غافر
(٦) مسند أحمد ٢ ، ٤٣١
(٧) تجمّروهم: تجمير الجيش جمعهم في الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهليهم.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : إن كنت أميراً أو وزير أمير أو داخلاً على أمير أو مُشاور أمير فلا تجُاوِزْ سُنّتي فإنه أيّما أمير أو وزير أمير أو مشاور أمير أو داخل على أمير خالف سُنّتي وسيرتي فإنه تأخذه النار يوم القيامة من مكان ثم يصير إلى النار .

وقال القاسم بن عبد الرحمن : كان عمر إذا بعث عمّاله قال : إني لم أبعثكم جبابرة وإنما بعثتكم أئمة ، لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تحرموهم فتظلموهم ، ولا تجمّروهم فتفتنوهم ، وادرأوا لحق المسلمين ، يعني العطاء .

ووجدنا في بعض عهود الهند أنّ العدل ميزان الله في الأرض يؤخذ به للضعيف من الشديد ، وللمُحِقّ من المُبْطِل ، فمن أزال ميزان الله عما وصفه الله من القيام بالقسْط بين عباده فقد أعوز أشد الإعواز ، واغتر بالله أشد الغِرّة . فاستعن على العدل بخصلتين هما طلب الهدى والتثبُّت في الأمور.

ثم ما أوجب الله للمؤمنين بعضهم على بعض إذ قال: ﴿ إنّما المُؤمِنونَ إخوةٌ فأَصْلِحوا بينْ أخَوَيْكم ﴾[1] .

وقال النبي ﷺ :«المؤمن أخو المؤمن لا يخذله ولا يظلمه[2]» .

وقال: « أُمِرْتُ أنْ أُقاتِل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فإذا قالوها عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقها وحسابُهم على الله »[3] .

وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً[4]» .

---

(١) آية ١٠ الحجرات

(٢) رواه أبو داود في الأدب ٣٨

(٣) رواه البخاري في الإيمان ١٧ ، ٣٨. وأبو داود في الجهاد ٩٥. والترمذي، تفسير ٨٨ وابن ماجه، فتن ١ ، ٣. والدارمي، سير ١٠ . واحمد في المسند ٤ ـ ٨.

(٤) رواه البخاري في الصلاة ٨٨. أدب ٣٦، مظالم ٥. ومسلم في البر ٦٥، والترمذي، بر ١٨. والنسائي، زكاة ٦٧. وأحمد في المسند، ٤ ـ ١٠٤ و٤٠٥ و٤٠٩

فيجب على الملِك المشارك في الإيمان لرعيته أن تكون صفته معهم هذه الصفة ، ومعاملته إياهم هذه المعاملة .

وقد روينا فيما مضى من كتابنا عن النبي ﷺ أنه قال : « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيّته »[1] . وعلمنا أن الراعي والرعيّة والسائس والمسوس هما اسمان من أسماء الإضافة لابقاء لأحدهما إلاّ بالآخر ، وأنه ليس حاجة الراعي إلى الرعية بأقل من حاجة الرعية إلى الراعي وكذلك الملك.

ولذلك ما مثّل الناس الرعية بالبدن ، والراعي بالرأس ، وقالوا إن الرعية إذا هلكت هلك الراعي ، وإذا فسدت فسدت حال الراعي ، وكلما دخلها نقص في أموالهم ودمائهم رجع ذلك النقص عليه .

إصلاح الرعية

وقال بعض الملوك المتقدمين : وبُعد الوالي من القدرة على استصلاح نفسه مع استفساد الرعية كبُعْد الرأس من البقاء بَعْد هلاك الأركان ، غير أن الوالي أجدر بإصلاح الرعية الفاسدة وإفساد الرعية الصالحة من الرعية بإصلاحهم الوالي وإفساده ، لفضل قوّته عليها ، ووهن قوّتها عليه .

ومما يجب أن يكون معلوماً أن زينة الملك بصلاح الرعية ، والرعية كلما كانت أغنى وأسرى وأجلّ حالاً في دين ودنيا ، ومملكته كلما كانت أعمر وأوسع كان الملك أعظم سلطاناً وأجل شأناً ، وكلما كانت أوضع حالاً وأخسّ بالاً كان الملِك أخسّ مملكة وأنزر دَخْلاً وأقلّ فخراً .

فلا ينبغي للملِك السائس أن يبتغي عمارة منزلته بتخريب منازل الرعية ، ولا توفير خزائنه وبيوت أمواله بإخلاء بيوت العامة وإقلالها ، فإنه ليس زينته

---

(١) رواه البخاري في الأحكام ومواضع أخرى. ومسلم وأبو داود في الإمارة. والترمذي في الجهاد. ومسند أحمد ٢ـ ٥ ، ٥٤ ، ٥٥ وغيرها.

ومباهاته بعمارة المملكة وكثرة دخلها ووفور أغنيائها ومشايخها ودهاقنتها[1] وعلمائها وفقهائها وذوي آرائها وسرواتها[2] وحكامها ونسّاكها وحكمائها وأصناف ذوي المراتب والمناقب منها ـ بأقلّ من زينته بعمارة قصوره وفضول دُورِه وكثرة خيوله وجنوده وخدمه وأثاثه.

وليس عزته على أعدائه برعيته السامعة المطيعة المحبة له الذّابّة عنه بأوهى من قوّته بأعوانه وجنوده.

ولا خوفه من أعدائه الخارجين من مملكته المخالفين له في مِلّته وأُمّته بأشد من خوفه من مخالفة قلوب رعيته.

بل ما يأتيه من هذه الأبواب كلها من جهة رعيته أبلغ وأرفع وأعظم وأقطع.

ثم إن الرعية والراعي يجمعهما قرب المجانسة والمناسبة ومشاكلة الطبيعة والصورة، والحامّة[3] والمناسبة توجب الشفقة والمايلة ويجب لهم مع ذلك حق المِلّة والذمّة.

وقد جعل الله المؤمنين إخوة، والذمّة أمانة. وإنما يجب عليهم الطاعة بشريطة المعدلة والوفاء بالعهد والرأفة والرحمة.

فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ لقريش عليكم حقاً ما إنِ استُرحموا رحموا، وإن حكموا عدلوا، وإن عاهدوا وَفَوْا، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً»[4]

---

(١) الدهاقنة: جمع دُهْقان بضم الدال وكسرها وتسكين الهاء، وهو رئيس الإقليم، والكلمة من أصل فارسي.

(٢) السروات: الأشراف وهي جمع الجمع لكلمة سري، والفعل سَرُوَ والجمع سرَاة.

(٣) الحامّة: خاصّة الرجل من أهله وولده.

(٤) مسند أحمد ٣/ ١٢٩ و١٨٣ وغيرها.

وقال: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[1] .

وقال: « إنما الطاعة في المعروف »[1].

على أنه لا بد لكل صانع وساع في العلم من معرفة بصناعته ، من حذق بها وآلة يستعملها ، ومادة يؤثر ما يغترضه[2] فيها ، وغرَض يغترضه في ثمرة عمله.

فصناعة الملك السياسة ، وعِلْمُه حِذقُه بها ، ومادّته فيها وآلته جُنده وأعوانه وعماله وخدمه ، ومادته رعيته ، وثمرة عمله ما يحصل له من ثواب الله العظيم في دار النعيم في الآجل ، وحسن الأحدوثة عنه في الغائب والشاهد والآتي والحاضر ، وزينة عمله وحُسنه الدال على حذقه بصناعته وتقدُّمه فيها عمارة مملكته وصلاح حال رعيته.

فعلى حسب هذا يجب أن يعمل الملِك ويدأب ويجتهد ، فإنه إن خالف هذه الطريقة وتنكبها وفارقها وعدل عنها أفسد رأس ماله الذي هو المادة وأبطل ثمرة عمله ، ودل على جهله بصناعته ، وذلك أبين الخسران.

وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « عدْل ساعة خير من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها ، وجور ساعة في حكم أعظم عند الله من معاصي ستين سنة »[3] .

وكذلك روى عن كثير من ملوك العجم أنهم كانوا يقولون : حقيق على الملك الصالح أن يدعو للرعية الصالحة ، وليس بحقيق للرعية أن يدعوا للملك الصالح لأن أقرب الدعاء إلى الله دعاءُ الملك الصالح.

---

(١) هما حديث واحد رواه مسلم في الإمارة وأبو داود في الجهاد، والنسائي في البيعة، وابن ماجة في الجهاد. ومسند أحمد ١/ ٩٤ وغيرها.

(٢) اغترض الشيء جعله غرضاً يسعى إليه.

(٣) لم أجد هذا الحديث فيما تيسر لي من كتب السنّة .

ولقد قرأنا في بعض سير الهند أنه ليس أحد أصلح لعباد الله ولا أسعد برضوان الله من الولاة إذا صلحوا، ولا أفسد لهم ولأنفسهم إذا فسدوا ، لأن الوالي من الرعية بمكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به ، وبموضع الرأس من الأركان التي لا بقاء لها إلا معه.

وبالوالي -مع فضل منزلته- من الحاجة إلى إصلاح الرعية مثل ما بالرعية من الحاجة إلى صلاح الوالي ، لأن قوة بعضهم زيادة في قوة بعض ، ووهن بعضهم سريع إلى إيهان بعض.

من واجبات الراعي

فمن حق الرعية على الإمام إذا أمرهم بالطاعة والنصيحة والمؤازرة وأداء الأخرجة والمؤنة وجزية أهل الذمة وزكاة أهل الملة - أن يعز دينهم وأن يحملهم على مناهجه ومعالمه ، ويقيم فيهم الصلوات من الأعياد والجمعات والمواسم ، وأن يحمي حوزتهم ويسد خلّتهم ويقاتل عدوّهم دونهم ، ويعمر بلادهم ويؤمن سبلهم ويحفظ ذمتهم وينصف مظلومهم من ظالمهم ، وضعيفهم من قويهم ، ويحفظ عليهم أموالهم وأشعارهم وأبشارهم ، ويقيم حدود الله فيهم التي حدّها لهم وعليهم ، بلا هوادة ولا ميل ولا حيف ، ويوفر حقوقهم من بيت المال على ما جاءت به السنّة وأوجبته لهم الشريعة.

فمن لم يوفر حقهم عليهم وطالبهم بحقه كان أول ظالم وأظلم غاشم.

وقد جعل الله - عز وجل - السلطان حكماً بينهم يمنع بعضهم من بعض ، فكيف بمن يظلم ويضيم؟!

وقد قال الحسن البصري : إنما جعل الله السلطان ناصراً لدينه فكيف بمن استحل به الظلم؟

ونحن نجمع ما يجب عليه من ذلك ونفسره وندل عليه ونبين عن وجه الصلاح فيه في عشر خصال:

منها ما لا فرق بين الخاصّة والعامة فيه ، لأن خاصة الملك على مقدار التقارب من غيرهم عامة ، إذ قد يتفق أن لا يكون في البلد الواحد من البلدان أكثر مما في جملة الملوك من عبيده وخدمه ولا مثل عددهم.

ومنها ما يفرد به العامة دون الخاصّة.

فمما يشمل الخاصة والعامة ما ذكرناه من الحمل على ظاهر الشريعة والحث عليها والترغيب فيها ، وإظهار كرامة المتدينين عليه ، وجلالتهم عنده.

القضاء على الفساد والمفسدين

والمنع من إظهار الفساد والفجور من الميسر وشرب الخمور وإظهار السكر والفسوق والقذف والنياحات الفاحشة على الموتى ، وكل محرم ومكروه في الدين ، وما يدخل في أبواب الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثانية ما ذكرنا من حماية بيضتهم وصيانة حوزتهم ، ومجاهدة أعدائهم والباغين عليهم ، وكفايتهم ذلك ، حتى تدر معايشهم ويأمنوا معرة أعدائهم ، ويشغلوا بمكاسبهم ومساعيهم ، ويتهيأ لهم عمارة المملكة ، ويسهل عليهم توفير الأخرجة والوظائف والصدقات والضرائب على بيت المال ، ويكثر أهلها ويعظم سوادها من المقيمين والطارئين ، وبالتناسل والتوالد.

وإن ذلك من أدب الله ـ جل وعز ـ وخاصة الأنبياء والأئمة والملوك .

وبلغنا عن الخليفة هارون الرشيد أنه كان يسري في بعض أسفاره وغزواته وقد ألحّ عليه الثلج فآذاه ، فقال له بعض أصحابه : أما ترى يا أمير المؤمنين ما نحن فيه من الجهد والرعيةُ وادعةٌ؟ قال: اسكت للرعية المنام وعلينا القيام ولا بد للراعي من حراسة رعيته . فقال أبو محمد التيمي في ذلك:

غضبتْ لغضبتك القواطعُ والقنا لمّا نهضْتَ لنُصرة الإسلام
ناموا إلى كنف لعدلك واسع وسهرْتَ تحرس غفلة النُّوّامَ

والثالثة ـ قمع ذعّارهم وأهل العيث والفساد فيهم ، وشغلهم عنهم بقتل أو صلب أو نفي أو حبس أو قطع ، على ما جاءت به الشريعة في الكتاب والسّنة ، وأن لا تحمله الرّقة لهم والميل إلى بعضهم على المحاباة فيها، فإن المحاباة لهم ترك المحاباة نفسه وفي الإبقاء عليهم في هذا الباب إهلاك لهم.

وقد وصف الله ـ جل وعز ـ نبيّه ﷺ وفضلاء أصحابه بالرحمة والرأفة، ثم قال لهم : ﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفةٌ في دينِ اللهِ إنْ كنتم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ** ﴾[1] فكانوا على ما قال وأمر ، منتهين عما نهى وزجر.

وقال فيما وصف به نفسه : ﴿ **اعْلَموا أَنَّ الله شديدُ العقابِ وأنَّ الله غفورٌ رحيمٌ** ﴾[2] .

فالاقتداء بالله ورسوله أولى بالعبد وإن شق عليه .

ثم يجب عليه أن لا يتعدى حدود الله وما أمره به تعظيماً للعقوبة وتفخيماً لها ، فإنه لا عقوبة أهيب في النفوس ، ولا أهول في العيون ، ولا أولى بالردع ، ولا أحرى بأن لا تورث المعاقَبَ حقْداً وعداوةً وموجدةً من عقوبة يحُال بها على الله وعلى دينه الذي يقرّ به المعاقَب .

على أنّ مَن تعدّى في الزيادة تعصباً وحميّة يوشك أن يحابي وينقص رضاً وميْلاً ، ويعفو عن الجريرة في بعض الأوقات ، وفي ذلك تعطيل للحدود وإهمال للرعية وإحراج لأهل المملكة .

ومع أن الاسلام قد قيّد الفتك ومنع من المثلة وحرمها فمن حق الملك أن لا يعاقب تعصباً ولا تغضباً ، وإنما يعاقب تأديباً وتديّناً ، فالوجه أن لا يخالف حكم دينه فيها ، ثم ينظر في إقامة هذه الحدود وتأديب أهل الجنايات منهم ، ويبحث

(١) آية ٢ النور
(٢) آية ٩٨ المائدة

عنها ويستقصي فيها ، ولا يقدم على أحد في شيء من العقوبات إلا بعد البيان والبرهان.

معاملة السجناء

فأما من يوجب عليه الحبس منهم فالواجب أن يتفقد أحوالهم ويبحث عن أمورهم في ثلاثة مواضع :

أولها: أن لا يحبس أحداً إلا بعد وجوب الحبس عليه .

والثانية : أن يتعهدهم في حبوسهم في مآكلهم وملابسهم فإنهم قوم قد منعوا من التصرف لأنفسهم والسعي لها ، وليس لكل منهم مال ينفقه وولي يتعهده ، فكفايتهم وتعهدهم على الإمام الذي هو ولي المسلمين ، والسلطان ولي من لا ولي له.

والثالثة : أن يعرضهم في الوقت بعد الوقت ، فلعله أن يثوب مذنب أو ينيب مجرم ويعرف محق من الخصوم أو يندم مبطل ، وأن يكون[1] فيهم من يضيع عياله الذين كان مُعَوَّلهم على كدحه ، واعتمادهم على كده ، ومعاشهم من كسبه.

والمريض[2] الذي لا ممرض له يمرضه ولا طبيب يحضره .

ثم إن الحبس من عظيم العقوبات ، وإنما يجب أن تقع العقوبات على مقادير الذنوب ، فلا يجوز أن يساوي بين ذوي الجرائم صغارها وكبارها في التخليد والإخراج والتقييد والإطلاق ، إلا المصرّ الذي وجب عليه الحبس من فساد في الأرض ثم لم يقلع ولم يتب.

والرابعة أن يحكم بينهم في مظالمهم ودعاويهم وسماع بيناتهم وشهاداتهم بكتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة نبيه ﷺ وما يوجبه الحق والحكم ، ويجتهد في

---

(١) أي ولعله أن يكون في المحبوسين من يضيع عياله بحبسه
(٢) إي ولعله أن يكون فيهم المريض.

اختيار الحكام حتى لا يولي إلا الدّين العفيف ، والعالم الفقيه ، والأريب الأمين الوقور الرزين على ما ذكرناه في الباب المتقدم لهذا الباب.

ويتقدم إليه بالاستقصاء في البحث والنظر والأخذ للضعيف من القوي ، وأن لا يعجل أمْرا قبل تمام البحث والاستقصاء ، ولا يماطل به بعد ثبات الحجة وقيام البينة ، فإن في كلتا الحالتين إهمالاً وتضييعاً ، وإنه لم يحكم بالميل وحاف عن العدل على المحكوم عليه ، ولكنه حكم له على نفسه ، وجعله خصمه يوم القيامة عند من لا يظن به الميل ولا يقع في قضاياه الضيم .

ولم تزل تلك وصية الله لأنبيائه ، وأوامره الملقاة إلى أوليائه إذ قال: ﴿ يا داودُ إنّا جعَلناك خليفةً في الأرضِ فاحْكُمْ بين الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبع الهَوى فيُضلَّكَ عن سبيلِ اللهِ﴾[1] .

ثم مِلاك أمر القاضي والحاكم أن يعينه الوالي بما يدر عليه من الأرزاق السنية الواسعة الهنية ليتنزه عن أموال الرعية والطمع فيها ، فإن الحرص على الدنيا لا سيما في زماننا هذا قد صار عادة للعلماء ، وعلى غير هذا كان يجب أن يكونوا ، فقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال :«ما ازدادَ أحدٌ عِلماً فازداد به على الدنيا حرصاً إلا ازداد من الله بُعداً وازداد الله له بغضاً» .

ولأرسطاطاليس في هذا الباب فصل جامع إذ قال : الحاكم سيد على من وليه فتفقد من الحاكم أربع خصال وهي أن يكون حيّياً ، وأن يكون ورِعاً ، وأن يكون عالماً ، وأن يكون غير عجول .

واعلم أن الحاكم يزين الحكم [باستقامته] ، ويوسخه لوسخه ولزومه غير الطريق . قال:واحذر أن يكون الحاكم مشتهياً للكلام فإن الحكومة لا يصلح لها من كان كذلك.

(١) آية ٢٦ سورة ص

وكمال أمره أن يغنيه عن أموال الرعية ويوسع عليه أرزاقه ، ويقتصر عليه عندما تظهر منه النصيحة ، ولا يسرع في شهرته .

وإن أنكرت عليه شيئاً من أمور الرعية ففتشه كما يفتش الحاكم بالسنة القائمة ، واحمله على خطة الحكومة وإن كان مرضياً في الناس وأنكرت عليه في أمرك خاصة فاستره واشهر غيره بحسن الحال والمعرفة ، فإذا صار عند الناس مشهوراً معيناً لهم عن الأول فاصرع الأول بما لك عليه من الحجة الظاهرة القوية .

ويجب أن لا يغفل القاضي عن استعمال ما تضمنته رسالة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري فإنها من أوائل علم القضاء ، كتب اليه :

رسالة عمر في القضاء

أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أُدلي إليك ، فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لا نفاذ له . وواس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع في حيفك شريف ، ولا يخاف جورك ضعيف . البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر ،والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً .

لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعتك الحق خير من التمادي في الباطل .

الفهمَ الفهم عندما يتلجلج في صدرك بما ليس في القرآن والسنّة . واعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها إلى الحق فيما ترى .

واجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينة أخذت بحقه وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أجلى للعمى وابلغ في العذر.

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً حدّاً ومجرباً عليه شهادة زور

وظنيناً[1] في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولي منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات .

ثم إياك والضجر والقلق والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فإنه من يخلص نيته لله فيما بينه وبينه ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس.

ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلافه يشنه الله ، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزق الله وخزائن رحمته؟! والسلام.

قالوا وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان:

أما بعد فإني كتبت إليك بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً ألزم خمس خلال ، افهمها يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك:

إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة واليمين القاطعة ، وادْنِ الضعيف حتى يشتد قلبه ويبسط لسانه ، وتعاهد الغريب فإنك إن لم تتعاهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع حقه من لم يرفع به رأساً .

وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء.

انزلوا الناس منازلهم

والخامسة أن يعرف طبقات الناس ومراتبهم من أبناء الملوك والأشراف وذوي الأحساب والأنساب وأولادهم ، والعلماء والنساك وذويهم ، وأرباب الضياع والأرضين والتجار والصناع والمهنة وأصحاب الأقدار منهم ، ويرتبهم مراتبهم وينزلهم على منازلهم فيوفر على كل طبقة منهم حقهم على مقادير أسبابهم ومراتبهم من البشر والتقريب والإرفاق والترتيب ، فإن ذلك مما يحرضهم على التسابق في طلب الخير ، والتباهي في نيل الفضل فيما هم فيه ، فيكون ذلك سبباً لانتظام أمورهم واتساق أحوالهم وطيبة أنفسهم.

(١) الظنين: الذي هو موضع ظن

وإذا عوملوا بخلاف ذلك أداهم إلى الحنق على السلطان وإضمار السوء له ، لأن من رأى في نفسه فضلاً من شرف أو علم أو نجدة أو مجد أو بلاء أو كفاية فجهل حقه وحرم منه ما يستأهله ويستحقه أحفظه ذلك إحفاظاً وأحقده إحقاداً ، وخيّل إليه أنه قد مُنع حقاً واجباً وديْناً لازماً ، وظُلم ظلماً عظيماً . ومن قدر في نفسه ذلك اختار في دفعه عنها إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، وإن لم يجد كانت طاعته طاعة مُكْرَه مجبور مضطهد مقهور ، لا طاعة محب مختار.

وقد أوجب الله ذلك في كتابه ، وبيّنه لنبيه عليه السلام ، وجعله من دينه حيث قال: ﴿ واخْفِضْ جَناحَك لمن اتّبَعَك من المؤْمنين ﴾[1] .

ويقول: ﴿ لا يَسْتَوي منكم مَنْ أنْفَقَ مِنْ قَبْل الفتْح وقاتَلَ أولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الذين أنْفَقوا مِنْ بَعْدُ وقاتلوا ﴾[2] .

وقال: ﴿ لا يسْتوي القاعدونَ مِن المؤْمنينَ غيرِ أُولي الضررِ والمجاهدون في سبيلِ اللهِ بأموالهم وأنفسِهم فَضّلَ اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً ﴾[3] .

وقال : ﴿ قل هل يَسْتوي الذين يَعْلَمونَ والذّينَ لا يَعْلَمونَ إنما يتذكرُ أولوا الألبابِ[4] ﴾ .

وقال : ﴿ لا يستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنّةِ[5] ﴾ .

وقال : ﴿ أمْ حَسِبَ الذين اجْتَرَحوا السّيئاتِ أن نَجْعَلَهم كالذّينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ سواءً مَحْياهم ومماتُهم ساءَ ما يَحْكُمونَ[6] ﴾ .

(١) آية ٢١٥ الشعراء
(٢) آية ١٠ الحديد
(٣) آية ٩٥ النساء
(٤) آية ٩ الزمر
(٥) آية ٢٠ الحشر
(٦) آية ٢١ الجاثية

وقال النبي ﷺ : «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم»[1]. وبسط رداءَه لقيس بن عاصم المنقري وقال : إذا أتاكم كريم قوْم فاكرموه.

وقال يوم الفتح : مَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ .

وقال : كل الصيد في جوف الفَرا .

وأعطى يوم حُنين كثيراً من المؤلفة قلوبهم أكثر مما أعطى كثيراً من فضلاء المؤمنين .

ثم مدح كل قوم بما فيهم ، ودعا لكل واحد بما يستحقّه ، وفضّل كلاً من أصحابه بما استوجَبه ، واصطفاه لما هو أهله.

فبالله قدوة ، وفي رسوله أسوة . وهذا باب من السياسة كثيرة منفعته ، عظيمة مضرته .

وروي عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري :

أما بعد ، فإنه لم يزل للناس وجوه يذكرون بحوائج الناس ، فاكرم وجوه الناس قِبَلَك ، فبحسب المرء الضعيف المسلم أن ينصف في العدل والقسم .

ولم يزل الملوك يتواصون بالمحافظة على هذه الخلة، والمثابرة على تعهدها ، فإذا تتبعت كتبهم وعهودهم لم تجد عهداً جامعاً ولا كتاباً كاملاً يخلو منها . وقد قال أردشير في عهده :

اجعلوا حديثكم لأهل المراتب ، وحباءكم[2] لأهل الجهاد ، وسيركم لأهل الدِّين.

---

(١) تكملة الحديث: . . . «إلا الحدود» أي لا إقالة ولا عفو عنهم في الحدود. رواه أبو داود في الحدود، واحمد ٦/ ١٨١.

(٢) الحباء: بكسر الحاء وبفتحها، العطاء

وفيما كتب به أرسطاطاليس إلى الاسكندر : دافع عن أهل المروءات ومن كان له قديم في الخير ، وإن تضعضعت أحوالهم فإنّ أسلافهم فخر لك ، كفاك شرفاً أن تميل إليك أبناء الملوك .

وقال : لا تكشف أستار أهل الأقدار والأنفة ، فإنّ عيب ذلك راجع على ملكك .

قالوا : وقد قال اردشير : عامِلوا أحرار الناس بالمودة محضاً فإنهم لا يحتملون الهوان ، وعامِلوا العامة بالرغبة والرهبة ، وعامِلوا السفلة بالرهبة صُراحاً . فأخذ هذا المعنى بعض المحدثين فقال شعراً :

إذا كنتمُ للناسِ أهْلَ سياسةٍ ... فسُوسوا كرامَ الناسِ بالرفْق والبَذْلِ
وسُوسوا لئام الناسِ بالذّل يصْلحوا ... على الذل إنّ الذلّ يصلحُ للنذْلِ
وكونوا لأوْساطِ الرجال كمازجٍ ... زُعافاً[1] وماذيّا كأحلى جَنَى النحلِ
ولينوا لهم طوْراً بِبَسْط كرامةٍ ... وخَلُّوهُمُ طوْراً قياماً على رِجْلِ

وكتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر: قدّمْ مَن كان مشهوراً بالورع ، واقض حوائج العامة بهم .

والسادسة أن يمنع العامة ظلمه وظلم أصحابه وحاشيته ويقطع طمعه وأطماعهم عن أموال المسلمين وفروجهم وأشعارهم وأبشارهم ، وينصف لهم من نفسه ، فقد بيّنا ما في الظلم من الفساد ، وما في خلافه من الصلاح ، وإن هذا أوْلى الأمور بالملك تكرماً واستصلاحاً ورأياً وأصالة ، لأنه قادر عليهم وظلم الإنسان من تحت يده وملكه لؤم ودناءة .

ثم إن الرعية إن ظلم بعضها بعضاً كان السلطان هو المفزع والمستغاث

---

(١) الزعاف: السم القاتل، ومثله الزعاق. والماذي: العسل الأبيض

والملتجأ والمُسْتَعْدَى ، وإذا هو ظلم لم يكن فوقه يد قابضة ، فيصير ذلك عادة يصعب انتزاعها ، وذرية[1] يتعذر تركها .

على ما في هذه الخلة يعني العدل من الائتمار بأمر الله والاقتداء به ، والإستنان بسنن الصالحين من أنبيائه وأوليائه وسلوك سبيل الحكماء المبرزين .

على ما وعد الله العادلين من جزيل الثواب وكريم المآب ، وأوعد به الجائرين من أليم العذاب وشديد العقاب .

وقد قال النبي ﷺ وقد تقاضاه يهودي فأساء التقاضي وأغلظ في القول : دَعُوه فإنّ لصاحب الحق يداً ولساناً .

وتحاكم أمير المؤمنين عمر إلى زيد بن ثابت ، وعرض على خصمه اليمين حتى اصطلحا .

وتحاكم أمير المؤمنين إلى شريح قاضيه ، وحكم الحكمين واحتمل ما لزمه بعد التحكيم من الضيم .

وقال النبي ﷺ : «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة[2]» .

وقال : «من غَصَب شيراً مِن أرضٍ طُوِّقه من سبع أرضين[3]» .

وقد قرأنا لبعض ملوك الهند في عهده إلى ابنه : واعلم أنك مَن نِلْت منه مظلمة أو أفرطت عليه في عقوبة فإنّ الذي أتيت به إلى نفسك أشد مما أتيته إليه ، فإن كلوم[4] الدنيا تعفو وتبيد آثارها ، وكلوم الآثام لازمة للنفوس حتى يأتي عليها القصاص .

---

(١) في اللسان أذ راه بالشيء أولعه به
(٢) رواه مسلم في البر ٥٦ و٥٧
(٣) رواه البخاري في المظالم ، ومسلم في المساقاة
(٤) كلوم: جروح

بعض عدل ملوك الفرس

وكذلك لم تزل الملوك الحزمة يتواصون به ويأمرون به في عهودهم ، ويحشون به كتبهم ، ويرسلونه آثاراً في سيرهم ، فقد كان ملوك آل ساسان الذين بقيت آثارهم على وجه الزمان ، لهم في السنة يومان في النيروز والمهرجان ، يظهرون فيهما للخاصة والعامة فلا يحجب عنهم في هذين اليومين أحد من صغير ولا كبير ، ولا شريف ولا وضيع ، وكان يأمر الملك منهم بالنداء في مملكته قبل قعوده بأيام ليتأهب الناس ليوم المحفل ، فيُعِدُّ المظلومون حججهم ويكتبون قصصهم ويحضرون خصومهم ، وربما اصطلح كثير من أهل المظالم قبل ذلك اليوم خوفاً من الفضيحة والتنكيل والعقاب الشديد ، فردوا ظلاماتهم وأصلحوا تبعاتهم .

فإذا كان ذلك اليوم أمر الموبذان وهو قاضي قضاتهم أن يوكل رجلاً من ثقات أصحابه فيقف بباب العامة فلا يمنع أحداً من الدخول على الملك ، وينادي مناديه من حبس رجلاً عن رفع مظلمة فقد عصى الله وخالف سُنة الملِك ، ومن عصى الله فقد آذن بخزي منه ومن الملك .

وأمر الملك أن يؤذن للناس ، ويأخذ رقاعهم ويتأمل ، فإن كان فيها متظلّم من الملك بدىء به أوّلاً وقُدّمت على كل مظلمة . ويحضر الملك الموبذ الكبير ورأس سدنة بيوت النيران ، ثم يقوم مناد فينادي ليعتزل المتظلمون من الملك ، فيعتزلون ، ويقوم الملك مع خصومه حتى يجثو بين يدي الموبذ ، فيقول : أيها الموبذ ، إنه لا ذنب عند الله أعظم من ذنب الملوك وإنما خولها رعايا لتدفع عنها الظلم وتذب عن بيضة الملك ظلم الظالمين وجور الجائرين ، فإذا كانت[1] هي الظلَمةَ الجائرة فيحق لمن دونها هدم بيوت النيران ، وسلب ما في النواويس من الأكفان . ومجلسي هذا منك وأنا عبد ذليل شبيه مجلسك من الله غداً ، فإن آثرت الله آثرك ، وإن آثرت الملك عذّبك ، فيثني عليه الموبذ خيراً ويقول له جميلاً ،

(١) اي الملوك

وربما قال : إن الله إذا أراد سعادة عباده اختار لهم خير أهل الأرض ، وإذا أراد أن يعرفهم قدرته أجرى على لسانه ما أجرى على لسانك.

ثم ينظر في أمره وأمر خصمائه بالحق والعدل ، فإن صح على الملك شيء أخذه به ، وإلا حبس من ادعى عليه باطلاً ونكل به ونادى عليه هذا جزاء من أراد شين المملكة والقدح فيها بالباطل.

فإذا فرغ من مظالم الملك قام فسجد لله طويلاً وحمد الله كثيراً على ما رفع عنه من المظالم وحط عنه من الأوزار ، ثم وضع التاج على رأسه ، وجلس على سرير الملك والتفت إلى قرابته وخاصته وحامّته[1] ، فقال : إني لم ابدأ بنفسي فأنصفت منها إلا لئلا يطمع طامع في حيفي ، فمن كان قِبَله حق فليردّ إلى خصمه منه ، إما بصلح وإما بغيره .

ثم كان اقرب الناس إلى الملك في الحق كأبعدهم ، وأقواهم كضعيفهم . قالوا فلم تزل الناس على هذا من لدن عهد اردشير إلى أن ساسهم يزدجرد الأثيم ثم غير هذه السيرة في المعدلة وقتل أباه وكان من أمره ما كان .

ثم عاد بهرام جور إلى بعض السيرة في المعدلة والنصفة وإن كان قد غلب عليه في أكثر أحواله اللهو واللعب.

وقد كتب الحكيم إلى الاسكندر: خير لك يا اسكندر أن تجلس للعامة كافة في اختلاف السنة ، وتلزم سنّة الهند فإنها ممدوحة، وتفقّدْ ما انتهى إليك وجدّ في البحث عنه ، وواتر عليهم المواعظ ، وحدد الأوقات في اجتماعهم . ونقول إنها سيرة حسنة لولا تراخي المدة بين المجالس ، فإنه إذا وقع مثل هذا فيما بين السنين والشهور ارتكب الناس الجور والظلم مطمئنين ساكنين إلى وقت المجلس ، فكم

---

(١) الحامّة: الأهل والقرابة

من مظلوم يموت قبل إمكان طلب حقه ، وظالم يفوت . وكم من ضعيف يعجز، وصحيح يمرض ، وغريب يؤوب إلى وطنه فيضيع حقه .

ولكن يجب على الملك أن يفعل ذلك فيما بين الأسابيع والجمعات والشهور ، وفيما بين ذلك يستكفي من يكفيه بعد أن يقوي يده وعزمه ، ويقدم إليه بالوعيد الباتّ ، ويعلمه ذلك من رأيه إن اطلع منه على إضاعة أو فتور أو حيف أو ميل على ما بيّناه في موضعه من الكتاب .

ومن مأثور آثار العجم في هذا الباب أن كسرى لما بنى الإيوان بالمدائن وقع لعجوز ضعيفة في زاوية من زواياه بيت يمنع من إقامة تربيعه ، فطلبوه منها بأضعاف ثمنه حتى بلغوا به أن يفرش وجه ذلك البيت بالدنانير ، فأبت وقالت إن جوار الملك أحب إليّ من جملة هذا المال ، فبنوه منكسر التربيع ، فلما استوى البنيان جاءت إلى الملك فقالت : إني لم أفعل ما فعلت بخلاً على الملك ولا محبة لإيحاشه ، ولكني فعلت ذلك محبة مني لأن يبقى للملك في احتماله عني وإنصافه لي ورفقه بي منقبة تؤثر وفضيلة تُنْشرَ على غابر الأيام ووجه الزمان ، فيكون أحسن به وأبقى لذكره من هذا البنيان على جلالة خطره وبعد سمته ووثيق أساسه وقوي أركانه ، فشكر لها ذلك وعدّها لها صنيعة وأمر بإكرامها وحسْن جوارها .

وذكر قحطبة بن حميد قال: كنت واقفاً على رأس أمير المؤمنين المأمون وقد جلس للمظالم ، فلم يزل جالساً حتى كادت الشمس تزول ، فأقبلت امرأة عليها أطمار بالية تعثر في أثوابها ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : فنظر إلى يحيى بن اكثم ثم قال : وعليك السلام، تكلمي رحمك الله ، .فقالت:

يا خيرِ منتصف يهُدي له الرشدُ ويا إماما به قد اشرق البلدُ
تشكو إليك عقيدَ المُلْكِ أرملةٌ عدا عليها ـ فلن تقوى به ـ أسد
فابتزّ مني ضِياعي بعد منعتها طُراً وفارق مني الأهل والولد

قال فأجابها المأمـون :

في دونِ ما قلْـتِ عيـل الصـبـرُ والجلَـدُ
وأحْـرِق اليــومَ منـي القلْـبُ والكَبِـد
هذا أوانُ صلاة الظـهـر فانصـرفي
ثـم احضري لي في اليوم الـذي أعِد
والمجلس السبـت إن يُقْـضَ الجلـوس لنـا
أنْصِفْـكِ منـه وإلاّ المجلسُ الأحَـدُ

قال : فولّت ، فلما كان يوم الأحد جلس المأمون ، ولم يرد الجلوس إلا من أجلها ، فكان أول من دعا به المرأة ، فأقبلت في ذلك الزيّ ، فسلمـت ، فرد عليها المأمون ثم قال : أين الخصم؟ فأومأت إلى ابنه العباس ، فقال : يا أحمد ، يعني ابن أبي خليد ، خذ بيده فاجلسه معها حتى يتناظرا ، فجعلت المـرأة ترفع صوتها على صوت ابن أمير المؤمنين ، فقال يحيى بن اكثم : مهلا لا ترفعي صوتك على صوت ابن أمير المؤمنين ، فقال : دعها فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه.

ثم إن المأمون حكم برد ضيعتها ، ولام العباس بظلمه لها ، وقال يا أحمد اكتب برد ضيعتها عليها ، واكتب إلى العامل هناك بارفاقها وحسن معونتها ، وادفع إليها ما تتحمل به إلى أهلها.

للراعي عيون وآذان

والسابعة هي أن يجعل على الرعية عيوناً ممن يداخلون طبقاتهم وجواسيس يتجسسون أخبارهم ويتتبعون انباءهم ولا سيما في مواضع الظنه والتهمـة ، كما يفعـل ذلك مع المنابـذين له من الملـوك والنظراء والمجـاورين له من الأضـداد والأعداء ، وفي كل وقت وزمان .

ويجتهد في أن يحمل ذلك على السر من يأمن ناحيتهم ويعلم أمانتهم ، فإن

ذلك من محكم التدبير وبليغ التقدير وصواب السياسة ، وفيه التأدب بأدب الله ، والاحتذاء على رسوم أفعال الله ، وقد ذكرناه فيما تقدم من كتابنا بدءاً ، وكررناه تأكيداً وتأييداً .

إن الله ـ جل وعز ـ وهو المنفرد بعلم الغيوب الذي لا يشركه فيه سواه ،ولا يدّعي أحد بلوغ مداه ـ جعل على عباده من ملائكته كراماً كاتبين وحفظة يعلمون ما يفعلون ، ويكتبون ما يمكرون ، فقال ،حاكياً عن عباده أنهم يقولون في موقف القيامة وعند معاينة الأعمال المقدمة : ﴿ **يا ويْلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووَجدوا ما عَمِلوا حاضراً ولا يظلمُ ربُّك أحداً** ﴾ .[1]

وقال : ﴿ **ما يلفظُ مِن قَوْلٍ إلا لديه رَقيبٌ عَتيدٌ** ﴾ .[2]

فكيف يجوز لعبد ذليل لا يسمع إلا بآلة ضعيفة ، ولا يعلم إلا بتعليم واستفادة وهو قد كلفه[3] الله سياسة عباده ـ أن يغفل هذه الخلة ويأمن الحوادث التي يجوز حدوثها من إهمال هذه الخلة .

على أن النبي ﷺ مع اختلاف الملائكة إليه ونزول الوحي عليه ، واطلاع الله إياه على ما شاء من مكنون الغيوب وضمائر القلوب ـ لم يَدَعْ هذا الباب .

فأما عن خلفائه الراشدين فحكي عن عمر رضي الله عنه أمور عجيبة وسياسة محكمة ، حتى كانوا يقولون إن علمه بما يأتي عنه من أقطار عمله كعلمه بما يأتي منه ، حتى ان العامل من عماله ليتهم أقرب الخلق إليه أن يرفع عليه .

وكان معاوية من الملوك كذلك ، وهذا كان أحد الأسباب المعينة له على ما بلغه وانتهى إليه .

---

(١) ية ٤٩ الكهف .

(٢) آية ١٨ من سورة ق .

(٣) كلفه : أي أن الله كلف الملك .

واقتفى أثره في ذلك زياد بن أبيه ، فإنه ذكر عنه أن رجلاً دخل إليه في حاجة له فكلمه فيها ، وظن أنه لا يعرفه ، فتعرف إليه بأبيه وقومه ، فتبسم زياد وقال : تتعرف إليّ ؟! إني لأعرفك وأباك وأمك وجدّك وجدّتك ، وأعرف هذا البُرد الذي عليك ، وهو لفلان بن فلان . فبهت الرجل وأرعب حتى ارتعد .

وكذلك كان عبد الملك بن مروان من بني أمية .

وكان من خلفاء بني العباس أبو جعفر المنصور والرشيد والمأمون ، فإن لكل واحد من هؤلاء في هذا الباب آثارا كثيرة واخبارا يطول بذكرها هذا الباب ، حتى حكي عن كثير منهم أنه كان يخرج متنكراً فيطوف في الأسواق ويخرج في جوف الليل فيسمع أصوات خدمه في قصوره ودوره .

وكان عبد الله بن طاهر بخراسان كثيراً ما كان يخرج إلى الطريق فيسأل من لقي من المارة عن سيرته وسيرة عماله فيهم .

وكذلك حكي عن أردشير من ملوك العجم ، فإنه كان إذا أصبح علم كل شيء بات عليه أحد في قصبة مملكته وضمن داره من عامته وخاصته ، وإذا أمسى علم كل ما أصبحوا عليه حتى كان ربما يقول لأوضع خدمه وأرفعهم: كان عندك البارحة كذا وكذا ، وكنت تفعل كيت وكيت ، فكان كثير منهم يقول إنه يأتيه ملَك من السماء فيخبره بها .

قال : وسئل أعرابي عن والٍ لهم فقال : ومَن مثل فلان ؟ كان والله لا يطابق بين جفونه ، ويرسل العُيون على عيونه ، فهو غائب عنهم كالشاهد ، فالمحسن آمن ، والمسيء خائف .

العادل يفتح أبوابه

والثامنة هي أن يسهل حجابه ويلين في الإذن جانبه ويتقدم إلى حجابه وبوابيه أن لا يمنع عنه صاحب خبر ولا متظلم ولا متنصح يرد الباب في وقت جلوسه حتى يأذنوا له ويرفعوا خبره من غير تأخير ، فإن من الأمور أموراً يكون في

تأخيرها فساد كبير وفتق عظيم ، ومنها ما يكون في تأخيره وفوته من الفوائت مالا يمكن تلافيه ولا يتهيأ تداركه . ومنها ما يجب في الدين تعهده وفعله واغتنامه في وقته ، فإن أعمال الدين أو عامتها مؤقتة[1] ، فإذا فات منه عمل فات به خير كثير وأجر كبير وثناء حسن وذكر جميل .

مع أن في هذا الباب خلة هي من كبار العدل والنظر للرعية وإصلاح الخاصة والعامة ، وهي أن الخاصة إذا علموا ذلك وشعروا به قلّت أطماعهم في الرعية واضطهادهم وظلمها واقتسارها ، ثم سلم الملك من مكايد الوزراء واستبدادهم بالسلطان دونه ، وتحرز من فلتات الحوادث وبغتات الأعداء ووقف على فنون الأعباء .

قالوا وكان مكتوباً على بساط زياد بن أبيه أن لا حجاب عن صاحب ثغر ولا طارق ليل ، ولذلك كانوا يقولون أخوف ما تكون الرعية آمن ما تكون الوزراء .

وليعلم الملك أن في شدّة الحجاب تنفيراً لذوي الفضائل الجليلة والهمم البعيدة ، وتكديراً للصنيعة ، واستفساداً للرعية ودلالة على الريبة .

وقد وصف كل ما ذكرناه الفضلاء من الملوك والوزراء في كتبهم ، والشعراء في شعرهم .

حكى الهيثم بن عدي أن خالد بن عبد الله القسري قال لحاجبه لا تحجب عني أحداً إذا اخذت مجلسي ، فإن الوالي لا يحجب إلا عن أحد ثلاثة : عمن يكره أن يطلع منه أو ريبة ،أو بخل فيكره أن يدخل عليه من يسأله حاجة .فأخذ ذلك محمود الوراق فقال :

إذا اعتصم الوالي بإغلاق بابه ... وردّ ذوي الحاجات دون حجابِهِ
ظننت به إحدى ثلاث وربما ... نزعت بظن واقع بصوابِهِ
فقلت به مسٌّ من العي ظاهر ... ففي إذنه للناس إظهار ما به
فإن لم يكن عي اللسان فغالب ... من الشح يحمي ما له عن طلابه
فأن لم يكن هذا ولا ذا فريبة ... يصرّ عليها عند إغلاق بابه

(١) مؤقتة : الى أن لها أوقاتا محددة ، كالصلاة والحج

وفي كتاب ابيرنامه : لا ينبغي للملك أن يشتد حجابه ، فإنه يدل على الكِبْر وسوء الملكة ، ويورث المقت وينغص المعروف وينسى الحسنات ويذكر السيئات ، مع ما ينقطع عن السلطان بذلك من منافع من يرد بابه ممن به إليهم أعظم الحاجة في وجوه العلم والعمل .

قالوا وحجب بعض ذوي الهمم البعيدة والأنفس الأبية عن بعض الملوك ، فرجع ، فأنشأ يقول :

سأترك هذا الباب مادام إذْنه ... على ما أرى حتى يلين قليلاً
فما خاب من لم يأته متضرعا ... ولا فاز من قد نال منه وصولاً
إذا لم أجد يوماً إلى الإذن سُلّما ... وجَدْتُ إلى ترك المجيء سبيلاً

وقال آخر في قريب من هذا المعنى :

ولقد رأيت بباب دارك جفوةً ... فيها لحسن صنيعة تكديرُ
ما بال دارك حين تدخل جنةً ... وبباب دارك منكرٌ ونكيرُ

وقال بعض المجفوين بالحجاب :

سأترك باباً أنت مالك إذنه ... ولو كنتُ أعمى عن جميع المسالِكِ
ولو كنتَ بواب الجِنان بأسرْها ... لأعرضْتُ عنها مسرعاً نحو مالِكِ(١)

وقال بعض ملوك الهند في عهد له : واعلم أنه لا يكمل عمل والٍ حتى يكمل علمه بالرعية ، ولا يكمل علمه بالرعية حتى تأتيه الرعية بذات أنفسها ، ويخبره أدناها عن أقصاها ، وليس ذلك كائناً إلا بفتح الأبواب ولين الجانب والنظر في المظالم ، فإن الملك إذا كان كذلك هابته العمال وتنوهي عن الظلم وتناصف الناس بينهم بالحق دون واليهم الأعظم ، فإذا الوالي مأخوذ فيما تولى من الحق بنفسه وفيما تعاطى الناس منه دونه .

(١) يريد بمالك خازن النار .

يقظة وحزم

والتاسعة هي أن لا يجعل بحثه عن الأمور واطلاعه عليها من هذه الجهات المذكورة وبهذه الأسباب المعدودة من خاصته وعامته وجنده ورعيته لعباً ولهواً وسلباً وهزلاً ، بل لمعرفة الحقائق وقضاء الحقوق وإثابة المحسن وعقوبة المسيء وتقريب الناصح البعيد ، وتبعيد الغاش القريب ، وإقامة الأود ،[1] وسد الخلل وانتهاز الفرص ومبادرة ما يخاف فوته ، ومعاجلة ما يضر تأخيره .

ثم رفع الولي وقمع العدو ، وتدبير أمر العدو الكامن في غمار الرعية ، فإن الرعية لا تخلو من عاقل محروم ، ومخاصم مخصوم ، ومحقّ مظلوم ، ومبتدع يخالف رأيه رأي العامة والمِلِك ، لا يألو المُلْك والمِلِك خبالاً ، وكريم محدود ، وحسيب مطرود ، وشريف مجفو ، وحكيم مجهول قدره ، وفاضل ممنوع حظه من الإجلال والتعظيم ، وناسك يرى في دينه إزالة بعض ما يراه ويسمعه من المناكير في الراعي والرعية ، وفاتك يبتغي لخبث سيرته وشرار طبيعته للملك عادية ويتربص به دائرة ليتهيأ له بعض ما يريده ويؤمله ويميل إليه بطبعه وسوء سيرته .

ثم ذوي نعمة ورفعة وسلطان ومنعة قد زالت على يدي الملك نعمتهم ، وبدولته[2] دولتهم ، وكل هؤلاء أعداء المِلِك والمملكة والراعي والرعية ، وهم إذا كانوا في ضمن المملكة وقلب البيضة كانوا أشد اهتداء إلى مهالكه وتمكناً في مقاتله من أعدائه الخارجين ومخالفيه النائين عن داره وضمن قراره .

فالوجه في إصلاح ذلك أن ينظر في العلة التي دعت إلى ما يرتكبه من مخالفة ويضمره من مكيدة ، ويبعثه من غائلة ويلفقه من خديعة ، ويجري إليه من عداوة .

فإن كان ذلك من ظُلْم ناله أو عدوان حل به فالوجه أن يُنفَى عنه ويُكفاه ، ليعود إلى ما كان عليه ويزول عنه ما خامره .

(١) الأود : الاعوجاج .
(٢) أي أن دولتهم زالت بقيام دولته .

وإن كان ذلك من حرمان وجفوة فالوجه أن يُعطوا حقوقهم ويحسن إليهم .

وإن كان ذلك استزادة مبرّة أو طمعاً في رفع مرتبة يجوز في رسوم المملكة وأحكام الشريعة إيصالهم إليها وتبليغ آمالهم منها فالوجه فيه إسعافهم وترك الضن بها عليهم .

وإن كان ذلك مدفوعاً في هذه الجهات ، وكان عارض من شهوة كاذبة وآمال غارّة فالوجه أن يعرف ويقرر عنده استحالته من وجوه لطيفة وأبواب خفية ويوقف على مقداره ، وهدى إلى ما يزيل ذلك عن قلبه .

وإن كان ذلك لعداوة قديمة ودولة زائلة عمل في تداركها بالبر والإيناس والتقريب والإحسان ، وتقليد من يصلح تقليده منهم ، فإن القلوب قد جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

وإن كان ذلك من مخالفة في الدين فالوجه أن ينظر الملك في دينه ومذهبه ورأيه ومقالته ، فإن كان حقاً فالصواب موافقته وترك المعاندة فيه ، فإن ذلك من اجزل حظ يناله نائل ، وأعظم قسط يفوز به فائز ، وهو أولى الأشياء بالملِك الفاضل والسائس العادل وكل مدبر عاقل ، فإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

وإن كانت دعواه باطلاً ومذهبه فاسداً فالوجه أن يدعوه إلى الحق سرّاً ، ويدس إليه جماعة يبصرونه الدين ويعرفونه الحق فلعل ذلك مما يردّه ويردعه ويكفي مؤنتة ويصلح به .

فإن لم يصلحه ذلك فالوجه أن يحضره مجلسه ويشهده محفله ويأمره بمناظرته فيه ومحاجته عليه ، ويشهره به ليتبين للخاص والعام بطلان مذهبه وضعف مقالته ، ويشيع ذلك في الجمهور ليقفوا عليه ويحذروه .

ثم ينظر في مقدار بدعته ومبلغ فحش مقالته ، فإن استحق على مذهبه قتلاً قتله بعد استتابته منه واستدامته به وإصراره عليه ، وأراح منه .

وإن استحق تأديباً أدبه ، وإن استحق حبساً حبسه ، ولا يقع هذا الباب إلا في أصول الديانة وأم الشريعة دون الفروع والأحكام والمسائل الفقهية التي يجوز أن يتعبد الله به وبخلافه ، فإنه إذا فعل ذلك رجوت أن يدفع مضرته ويكفي المملكة وأهلها معرته ، ويرفع عنهم فتنته .

وإن كان ما ذكرناه من حسد أو بغي وعداوة أورثه تقارب الأحوال من جهة وتباينها من أخرى عرف أن ذلك من خلق مذموم وفعل مكروه في الدين والمروءة مضر بصاحبه فاضح له لا فائدة فيه .

فإن لم ينفع ذلك فالوجه أن يحتال أن لا تجتمع له جماعة ولا يصير لشرذمته شوكة وعدة ، ويفرق بين نياتهم وضمائرهم وأبدانهم فيشغل جماعة ويقلد طائفة ، ويعطي أخرى على ما يقع في أمورهم وقديم أسبابهم من التدبير والتقدير بالرفق والمداراة ومطالعة الأسباب والأحداث ، والبحث عنها في كل وقت ومدة ويوم وساعة .

فإن لم يصلحوا فالوجه فيه وعظهم وتحذيرهم ، فإن لم ينفع حتى تفاقم الأمر وظهر الشر وبرح الخفاء عن مكنون السر ، كان سبيلهم سبيل الأعداء الخارجين عن الملة أو الباغين فيها .

وسنبين في تدبير الأعداء من هذا الباب ما فيه كفاية بمشيئة الله . وكل هذا الذي ذكرناه من تدبير الله الذي دبر عليه أمور خلقه ، وآدابه التي أدبهم بها ، ومأخوذ من دلائله التي أقامها ، إذ كان القديم ـ جل ذكره ـ لم يزل عالماً بمن يعاديه من خليقته ، ويخالف أمره من بريته ، ويمرق من طاعته ويعصيه من عباده ، فلم يمنعه ذلك من خلقهم واتخاذهم وإحداثهم وابتداعهم والامتنان عليهم بالحياة

والعقول السليمة والأعضاء القوية ، والإفضال على كل واحد منهم بما علمه أصلح له وادعى إلى طاعته .

ثم أراهم ـ بعد إبداء العداوة وإظهار المخالفة واتخاذ الآلهة دونه وعبادة الأصنام معه وإجراء كثير منهم إلى ضروب من العنود والكنود ـ دلائله ،[1] وأحضرهم شواهده ، وبعث إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبشرهم وأنذرهم ، ووعدهم وأوعدهم ودعاهم إلى ما فيه نجاتهم ، وأمهلهم المدة التي يمكنهم فيها التبين والتدبر والمراجعة والتفكر ، ولم يعاجلهم بالمؤاخذة إلا بعد تحقق الكلمة والاياس من المراجعة .

ثم لا يجوز في الحزم ولا يسوغ في التدبير أن يستخف الملك ـ وإن جل شأنه وعظم سلطانه ـ بهذا الباب ويغفل عنه اغتراراً باقتداره على من في رعيته وضمن مملكته ، فإن الشر تبدو صغاره ، ورب مطر بدؤه مُطير .

المنافقون

وقد حذر الله ـ جل وعز ـ نبيّه ﷺ هذا الضرب من الأعداء أشد من تحذيره إياه الأعداء النائين الخارجين ، ووصفهم بالحنق والغيظ بما لم يصف به أهل الحرب من المشركين ، فقال : ﴿ **وإذا رأيتَهم تُعْجِبُك أجسامُهم وإن يقولوا تسمَعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسنّدة يَحسَبون كل صَيْحةٍ عليهم هم العدوُّ فاحذَرهم قاتَلَهم الله أنّي يُؤفَكون** ﴾ .[2]

وقال : ﴿ **ها أنتم هؤلاء تُحِبونهم ولا يُحبونكم وتُؤْمِنون بالكتاب كلِّه وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خَلَوْا عَضّوا عليكم الأناملَ مَن الغَيْظِ** ﴾ .[3]

وقال : ﴿ **وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمناً وإذا خَلَوْا إلى شياطِينهم**

---

(١) مفعول للفعل أراهم المتقدم في أول الفقرة .
(٢) آية ٤ المنافقون .
(٣) آية ١١٩ آل عمران .

قالوا إنّا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ﴾ .[1]

وقال : ﴿ وسيَحْلفون باللهِ لو استطعْنا لخرَجْنا مَعكم يُهْلِكون أنفسَهم واللهُ يعْلمُ إنهم لكاذبونَ﴾ .[2]

وقال : ﴿ لئن أُخرجوا لا يَخْرجونَ معهم ولئن قوتلوا لا ينْصرونهم ولئن نَصَروهم ليُوَلُّنَّ الأَدْبار ثم لا يُنْصَرونَ ﴾ .[3]

وقال : ﴿ يَنظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشَى عليه من الموتِ فاذا ذَهَب الخوفُ سَلقوكم بألسنةٍ حِدادٍ ﴾[4]

في آي كثير من أمثالها وصف الله فيها حال المنافقين الذين كانوا في جملة مسالمي النبي ﷺ ومظهري الإيمان به والطاعة له ، وقد عرف ذلك من قال :

لا تحقِرنَّ من الأمور صغارها إن الصغار غداً تكون تَباراً
واعلم بأن كبارها اللاتي ترى قد كنَّ حيناً قبل ذاك صغاراً

وقد قال القائل في أول نجوم[5] دعوة بني العباس :

أرى خلَلَ الرمادِ وميضَ جَمْرٍ ويوشك أن يكون له ضرامُ
فإنّ النار بالعُودين تُذْكى وإنّ الحربَ يَقْدُمُها الكلامُ
فإنْ لم تطفئوها تجْنِ حَرْباً مُشَمِّرةً يَشيبُ لها الغُلامُ
مُشمرة يكشف عن سناها يكون وقودها قَصرٌ وهامُ
أقول من التعجب ليت شعري أأيقاظٌ أميّةُ أم نَيامُ
نأيتم عن بلادٍ عَزَّ فيها لئامُ الناسِ واضْطُهِدَ الكِرامُ

فناموا ولم ينتبهوا فكان الأمر على ما قال .

---

(١) آية ١٤ و ١٥ البقرة .
(٢) آية ٤٢ التوبة .
(٣) آية ١٢ الحشر .
(٤) آية ١٩ الأحزاب
(٥) نجوم : حدوث وظهور . وهذه الأبيات لأبي مريم كما ذكر اللسان ـ ضرم .

وكانوا يقولون : أصغر الأعداء أحماهم مكيدة وأمضهم على القلب ظفرا .

وقال ارسطاطاليس للاسكندر فيما كتب إليه : جدد العناية والتفقد لأمورك ، وعامِل ضعيف أعدائك على أنه في الدرجة العليا من القوة .

وقال : عامل الضعيف من أعدائك على أنه أقوى منك ، وتفقدْ جندك تفقدَ من نزلت به الآفة فاضطرته إلى مدافعتهم ، ودارِ الرعية مداراة من قد انتهكت عليه مملكته وكثرت الفتوق عليه من أعدائه .

ثم لم يكن في العالم نبوّة ولا ديانة ولا مملكة ولا عمارة إلا كان بدؤها ضعيفاً ثم قوي .

ولا يجب أن يظن الملك المقتدر المعجب بقدرته واعوانه وجماعاته وخزائنه وعدته وعتاده - أنه يقيم الأود ويسد الخلل في مثل هذه الأمور بالشدة والعنف والغلظة والضرب والقتل البحت ،فإن ذلك ربما يزيد النائرة[1] قوة ، والشر شدة والعداوة إحكاماً ، فإن السياسة بين اللين والعنف ، والرفق أبلغ من الخرق .

والصواب في التدبير والحكمة والمصلحة والسياسة أن يقدم اللين على الشدة ، والدعوة على العقوبة ، وأن لا يعاجل بالمناجزة ما وجد سبيلاً إلى المحاجزة ، قال الله - تبارك وتعالى - في كتابه : ﴿ وبَلَوْناهم بالحَسناتِ والسيِّئاتِ لعلّهم يَرْجِعون ﴾ .[2]

وقال : ﴿ ونَبلُوكُمْ بالشّرِّ والخيْرِ فِتْنَةً ﴾ .[3]

---

(١) النائرة : العداوة والشحناء : مختار الصحاح

(٢) آية ١٦٨ الأعراف

(٣) آية ٣٥ الأنبياء

وكانوا يقولون : الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف .

وقال اردشير في عهده : اعلموا أنّا على فضل قوّتنا وإجابة الأمور إيانا ، وقوة دولتنا وشدة بأس أنصارنا ، وحسن نية وزرائنا ، لم نستطع إحكام تفتيش الرعية حتى نبلغ من الرعية مكروهها ومن أنفسنا محبوبها .

وكتب ابراهيم بن العباس إلى أهل حمص : أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه فيما يقوّم من وقع ويقيم من أود ـ استعمال خلال ثلاث يقدم بعضها أمام بعض : أولاهُن الوعظ والتنبيه ، ثم الايعاد والتحذير ، ثم التواقع إذا لم يحسم الداءَ غيرُه . [قال الشاعر] :

أنـاةً فإنْ لم تُغْـنِ أعقـب بعدها وَعيداً فإن لم تُغْنِ أَغْنَـتْ عزائِمه[1]

قال الله في أول هذه القضية : ﴿ فبما رَحْمةٍ مِنَ الله لِنْتَ لهم ولو كُنْتَ فَظّاً غليظَ القلْـبِ لا نفَضُّـوا مِنْ حوْلَك فاعْفُ عنهـم واستغفِرْ لهـم وشاوِرْهم في الأمْر فإذا عَزَمْتَ فتوكّلْ على اللهِ[2] ﴾ .

وقال : ﴿ ادْفع بالتي هي أحْسَنُ ﴾ . ثم قال : ﴿ فإذا الذي بَينَك وَبينَه عَداوة كأنه ولي حميم ﴾ .[3] .

وأمر بإعطاء المؤلفة قلوبهم .

وقال النبي ﷺ : نصف العقل بعد الإيمان مداراة الناس .

فعلى هذا الترتيب يجب أن يكون استعطاف الأعداء واستجلاب قلوب أهل البغضاء .

مباشرة الحكم

والعاشرة هي ألاّ يسلط الرعية والعامة بعضهـا على بعض ، ولا يجعـل في

(١) جاء هذا البيت في الأصل بشكل نثر .
(٢) آية ١٥٩ آل عمران .
(٣) آية ٣٤ فصلت .

المملكة آمراً غيره وغير خلفائه ، فإنه لا أحد آلم طفرا ولا أسوأ رعاية ولا أجفى مقدرة من العامي إذا نال رياسة أو ولي ولاية ، وربما إذا نال ذلك حسده من هو مثله ، وطمع في مرتبته من هو شكله ، وصار لكل تبعٌ فأدى ذلك إلى مؤونة على السلطان عظيمة ، وجناية على المملكة جسيمة . بل يجب على الملك أن يكون ـ في بُعد همته وتمام قوته وشدة صولته وطهارة أخلاقه ومحاسن عاداته وصواب تدبيره وكريم آرائه ـ ملكاً ، وفي تواضعه لله ولين جانبه واستقامة دينه ومخافته لربه ومراقبة زوال دولته والتفكر في عاقبته ناسكاً .

وفي قربه من رعيته ورأفته بأهل مملكته ورفقه بأهل ولايته عامياً . وفي حدة فكره ودقة نظره في أسباب ملكه سوقياً . وفي معرفته بما فوّض إليه وعصب به من العدل بين رعيته عالماً فقيهاً .

فهذه خصال رجوت أنّ من أحذى عليها سيرته ، وساس بها رعيته كان قد نال فضيلة السياسة ، وأدّى حق المملكة ، واستحق من الله المثوبة ، ومن العقلاء على مر الأيام حسن الثناء والمديح بعون الله وقوته .

ثم يجب على الملك أن ينوى بذلك كله إقامة الدين والائتمار بأمر الله في التأدب بأدبه والرغبة فيما عنده ، فإنه إن فعل ذلك سدّده ووفقه للصواب وأرشده للسداد ، وما عند الله خير للذين آمنوا والذين هم محسنون .

***

البَابُ الثَّامِن

التّدبيرُ في الأموَال

فنقول وبالله التوفيق إذ فرغنا من مُلَح التدبير في أبواب السياسات الثلاث ، أوجب حق الترتيب أن نتبعه باب التدبير في الأموال ، لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ جعلها قواماً للأبدان ، وتلوا للأنفس ، وسبباً لبقاء الأجسام ، وحياة للبشر ، وآلة لطلب المعالي ، وأداة لنيل الأماني ، وزينة للحياة الدنيا ، وطريقاً إلى النجاة في الآخرة والأولى .

وأكد[1] فيها الأحكام وبينّ فيها الحلال من الحرام ، وجعل فيها من التعبد حظاً وافراً وقسطاً كاملاً ، فقد قال في تعظيم منزلته[2] وإعلاء درجته وما بان من حاجة الجميع إليه وانتفاعهم به : ﴿ **ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أمْوالَكم التي جَعَل اللهُ لكم قِياماً** ﴾ .[3]

وقال : ﴿ **وإنه لِحُبِّ الخيرِ لشديدٌ** ﴾ .[4]

وقال : ﴿ **المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا** ﴾ .[5]

وقال : ﴿ **لتُبْلَوُنَّ في أَمْوالِكم وأَنْفُسِكمْ** ﴾ .[6]

---

(١) أكدّ : أي الله تعالى .
(٢) منزلته : أي المال .
(٣) آية ٥ النساء .
(٤) آية ٨ العاديات .
(٥) آية ٤٦ الكهف .
(٦) آية ١٨٦ آل عمران .

ثم بينّ أن المال وإن كان هذا محله فليس مما يجب أن يباع به الدين ولا تشرى[1] به الآخرة ، بل يجب أن تكتسب به ويُطلب لها ويقدم إليها ، قال تعالي : ﴿ إنّ اللهَ اشْتَرى مِن المُؤْمِنين أنفسَهم وأمْوالَهم بأنَّ لهم الجنّةَ ﴾ .[2]

وقال : ﴿ زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرة مِن الذّهَبِ والفِضّةِ والخيْلِ المُسَوَّمةِ والأنْعامِ والحَرْث ذلك مَتاعُ الحياةِ الدنيا واللهُ عِنده حُسْنُ المآبِ ﴾ .[3]

وقال : ﴿ أؤنبّئكم بخيرٍ مِن ذلكم للذين اتّقَوْا عِند رَبِّهم جنّاتٌ تَجْري مِنْ تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها وأزواجٌ مطهَّرَةٌ ورِضْوانٌ مِن اللهِ واللهُ بصيرٌ بالعبادِ ﴾ .[4]

وقال : ﴿ أَرَضِيتُم بالحياةِ الدنيا مِن الآخرةِ فما مَتاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرةِ إلاّ قليلٌ ﴾ .[5]

وقال : ﴿ المالُ والبَنونَ زينةُ الحياةِ الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند رَبِّك ثَواباً وخيرٌ أَمَلاً ﴾ .[6]

وقال لنبيه ﷺ حين أراد رفع منزلته واختصاصه بفضيلته وكرامته : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عيْنَيْكَ إلى ما مَتّعْنا به أَزْواجاً منهم زَهْرةَ الحياةِ الدنيا لنَفْتِنَهم فيه ورِزْقُ رَبِّك خَيْرٌ وأَبْقى ﴾ .[7]

ولا يجوز لمن أخذ في الدنيا بالحزم ، وحكّم في أموره العقل أن يبيع دينه

---

(١) تشرى : أي تباع .
(٢) آية ١١١ التوبة .
(٣) آية ١٤ آل عمران .
(٤) آية ١٥ آل عمران .
(٥) آية ٣٨ التوبة .
(٦) آية ٤٦ الكهف .
(٧) آية ١٣١ طه .

بدنياه ، وآخرته بأولاه ، إذ لا مقدار للدنيا في الآخرة ، ولا خطـر لهـا في جنـب الدين .

ولا يأخذ المال إلا من حقه ولا يضعه إلا في موضعه ، فإن الله ـ جلّ وعزّ ـ قد أغلظ الوعيد على مُستحلّه ، وأكد النهي عن الظلم فيه فقال : ﴿ ولا تَأْكُلـوا أموالَكم بيْنكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحُكّام لتأْكُلوا فَريقاً من أمْوالِ الناس بالإثم وأَنتم تَعْلَمونَ﴾ .[١]

وقال : ﴿ ولا تَقْربوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالتي هي أحْسَنُ حتى يَبْلُـغَ أشُدَّهُ ﴾ .[٢]

وقال : ﴿ إنّ الذين يأْكلون أموالَ اليتامى ظُلْماً إنما يأْكلونَ في بطونِهم ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعيراً ﴾ .[٣]

وقـال : ﴿ ولا تأْكلـوا أمْوالَهـم إلـى أموالِـكم إنّه كان حُوبـاً كَبيراً ﴾ .[٤]

وروي عن النبيﷺ انه قال : « مَن لـم يُبال من حيث كسب المال لم يبال الله من حيث أدخله النار »[٥] .

وقال: «لن تبرح قدما عبد يوم القيامة حتى يُسْأل عن اربـع. شبابه فيم أبلاه، وعمره فيم أفناه، وماله من اين كسبه وفيم أنفقه، وعن علمه فيم عمـل به» .[٦]

---

(١) آية ١٨٨ البقرة .
(٢) آية ٣٤ الإسراء .
(٣) آية ١٠ النساء .
(٤) آية ٢ النساء .
(٥) رواه النسائي والبخاري في البيوع .
(٦) رواه الترمذي في القيامة .

ثم قد حرّم الله ـ جل وعز ـ من صنوف المكاسب والمطالب الربا والرشا والغصْب والغلول والغش والخيانة والسرقة وكل مال أخذ من غير طيب نفس أو حق يجب عليه أو ميراث يورث من بعده سوى ما أوجبه الله على أهل الملة من حق في أموالهم فيأخذه الإمام من أغنيائهم فيردّه في فقرائهم .

فالواجب على الملك الذي أحلّه الله المحل الجليل ، وأنزله المنزلة الرفيعة أن يتوقى ما نهاه الله عنه ، فإن فيه ما بيّنا في غير موضع من المأثم والمذام والملاوم .

وقد كره الحكماءُ والعلماءُ والفضلاءُ من أهل كل صنف وشريعة وجيل وديانة المكاسب الدنيئة والمطالب التي تُكْسِب العار والفضيحة وتبقي قبح الأحدوثة ، ولا شيء أوْلى بهذه الصفة من الكسب مما حرم الله ، فإن الله لم يحرم إلا القبيح ، ولم يحظر على عباده إلا الدنيّ الخسيس .

ولم يزل الملوك الفضلاءُ والأئمة الحكماءُ يتنظفون عن ظلم الرعية والطمع في أموالها إلاّ ما وظفتْ عليهم سُنتهم وأباحتْه لهم مِلتهم وشريعتهم مِن أخْذ فضول أموالهم ثم ردّها عليهم في عوامّ مصالحهم من تحصين دمائهم وتثمير أموالهم وإيمان سبلهم ودفع معرّة أعدائهم ، وقمع ذعارهم .

وقد بين ذلك أرسطاطاليس في رسالته إلى الاسكندر حيث قال : لا تلح في أخذ أموال رعيتك فتضعفهم وتتبغض إليهم ، واصرف ما تناله من أموالهم في مصلحة عامتهم ، واشتهر بذلك تسعد به .

التوسط في الانفاق

ثم نهى الله جل وعز فيما أحلّه لهم من الأموال عن التبذير والتقتير جميعاً فقال لنبيّه ﷺ : ﴿ **ولا تُبذّر تَبْذيراً . إنّ المُبَذّرينَ كانوا إخْوانَ الشياطينِ وكان الشيطا ن لربّه كَفوراً** ﴾ .(1)

وقال مثنياً على القاصدين : ﴿ **والذينَ إذا أنْفَقوا لم يُسْرِفوا ولم**

(1) آية ٢٦ وآية ٢٧ الإسراء .

يَقْتُروا وكان بَيْن ذلك قَواماً ﴾ .(١)

وقال لنبيّه ﷺ : ﴿ ولا تجعـلْ يَدَكَ مَغلولةً إلـى عُنُقِـك ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسوراً ﴾ .(٢)

ولم يزل فُضلاء الملوك وحكماءُ أهل الأديان وعلماءُ الأمم يذمّون التبـذير ذمّهم التقتير ويرون رأياً حقاً أن التبذير مُؤدٍ إلى التقتير ، وأنّ بذل ما فوق الطاقة من المال ووضعه في غير موضعه قطعٌ لمادة الجود وخروج من الحدود ، وتعجيز عن القيام بالحقوق .

وكانوا يقولون : ما في الأرض مالٌ وُضع في غير موضعه إلاّ وإلى جانبه حقٌّ مُضيَّع .

وكان بعض مشايخنا يقول : ما في الدنيا أبخل مِن مُفْسِد .

وحَدَّ أرسطاطاليس الجودَ فقال: هو بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة وإيصاله إلى من يستحقه بقدر الطاقة ، فمن جاوز هذا الحد إفراطاً وإسرافاً فقد خرج مِن حدِّ السخاء والجود إلى حدّ التبذير ، والتبذير يؤدي إلى التقتير .

ثم قد ذمَّ الله الباخلين بأموالهم فقال : ﴿ الذين يَبْخَلـونَ ويأْمُـرونَ الناسَ بالبُخْلِ ويكْتُمون ما آتاهم اللهُ مِن فَضْلِه وأَعْتَدْنا للكافرينَ عَذاباً مُهيناً ﴾ .(٣)

وقال : ﴿ ولا يحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلون بما آتاهم اللهُ مِن فَضْلِه هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطَوَّقونَ ما بَخِلوا به يوم القيامة ﴾ .(٤)

(١) آية ٦٧ الفرقان .
(٢) آية ٢٩ الإسراء .
(٣) آية ٣٧ النساء .
(٤) آية ١٨٠ آل عمران .

فيجب على الملك الفاضل الذي يعرف حقَّ نعمة الله عليه فيما خوّله منه وآتاه ومهّد له واعطاه أن لا يبخل بمال الله على عباده فيما فيه صلاحهم ، ولا يدخل نفسه نار الأبد بما يستحق به عليه ذم الأمد .

فقد بان بما ذكرناه ما عرضناه من جلالة قدر المال وعظم امتنان الله وفضله به ، وبان مذمة التقتير والتبذير فيه ومحمدة الجود به وحقيقة الجود ، وبان به أن البخل هو منع المال من مستحقه ، والتبذير هو مجاوزة الحد فيه ، بالوجيز من القول .

ونحن نبسط معنى البخل والتبذير بسطاً ، ونجري فيهما على عادتنا في الاستشهاد بقول الله جل ذكره ، وبشواهده ودلائله الظاهرة ، وبقول الرسول ـ ﷺ وآثار الحكماء والملوك فنقول : إن من أدنى منازل البخل أن يمنع المال عن سبل الحق التي شرعها الدين ، واتفقت عليه كلمة المؤمنين ممن بينّ الله حقوقهم في كتابه وعلى لسان رسوله عليه السلام من الفقراء والمساكين وما في هذا الباب ، فإن بُخْله بذلك بخلٌ على نفسه ، يقول الله تعالى : ﴿ **ومَن يَبْخلْ فإنما يَبْخَلُ عن نَفْسِهِ** ﴾ .[1]

قالوا ومر بالنبي ﷺ أعرابي فقيل له إن هذا اكثر بدوي نعرفه مالاً ، إذا حل بواد لم يحلل ما معه من النعم ، فقال له النبي ﷺ : « إن في مالك شركاء ثلاثة ، دهر يأتي على أوله وآخره وأوسطه ، ووارث ينتظر موتك فيحويه ، فإن استطعت أن تكون أكيس الشركاء فافعل » .[2]

فأخذ هذا المعنى بعض الحكماء فأوجز فيه اللفظ فقال : إن لك في مالك شريكين الوارث والحدثان .

---

(١) آية ٣٨ محمد .
(٢) لم أجده بهذه الألفاظ .

وقال ابن المعتز : بشرّ مال البخيل بحادث أو وارث .

وقد قرر الله ـ جل ذكره ـ ذلك في عقول الحكماء قبل إيراد الخبر عليهم ، وأراهم ذلك عياناً قبل استدلالهم ، إن بخل البخيل بما له عماّ يكسبه في آخرته ثواباً وأجراً ، وفي دنياه شرفاً وذكراً ومحمدة وفخراً ونعمة وخيراً مثل الأجير الذي يكد في مال غيره ويشقى في ملك من سواه ، فيكون حظه لغيره وتعبه عليه .

ثم إنه إنْ جَمَعَه مِن غير حلّه ، وأخَذَه من غيرَ حقه ، ومَنَعَه مِن وجهه ، ثم خَلفه لأحب قرابته واقرب خاصته لديه ، كان اشقى الأشقياء واجهل الجهلاء وأخبث ذوي الحظوظ والأنصباء ، حيث باع آخرته بدنيا غيره ، وباقيه بفاني من سواه ، ولم يحصل منه إلا عابا قائماً وعذاباً دائماً وعاراً لازماً في حياته وبعد وفاته ، وخرج منها نادماً وعلى ما خلف سادماً .

ولقد بلغنا عن الحسن البصري أنه دخل على عبد الله بن الأهتم في مرضه الذي مات فيه ، قال فنظر إليه وعيناه تدوران في رأسه فقال له يا أبا سعيد(١) ما تقول في مائة ألف في جانب هذا الصندوق لم تؤد منه زكاة ولم يوصل منه رحم ؟

قال الحسن : فلأي شيء كنت تجمعها لا أبالك؟

قال لجفوة السلطان وروعة الزمان ومكاثرة العشيرة .

قال : فخرج الحسن من عنده فإذا الصراخ عليه ، فقال : إنا لله وإنا اليه راجعون ، انظروا كيف أتاه شيطانه فخوّفه جفوة سلطانه وروعة زمانه ومكاثرة عشيرته فيما استودعه الله إياه وعمّره فيه ، حتى أخرجه منه حزيناً سليباً لم يؤد منه زكاة ولم يوصل منه رحم ، دونك أيها الوارث أتاك هذا المال عفوا صفواً لم تكدح فيه بيمين ولم يعرق لك فيه جبين ، أتاك هذا المال ممن كان يقطع فيه لجج البحار

(١) أبو سعيد : كنية الحسن البصري .

والمفاوز ، جمعه فأوعاه ، وشدَّه فأوكاه ، من باطل جمعه ومن حق منعه ، إياك أن تُخْدَع كما خُدع صُوَيحبُك بالأمس ، اذكر يوم القيامة فإنه يوم حسرات وندامة ، وكيف ذاكم عبد آتاه الله مالاً فغل يده عما افترض الله عليه فيه فمات فورثه وارث فأنفقه في طاعة الله ، فإذا اجتمعا يوم القيامة نظر هذا فإذا هو يرى ماله في ميزان غيره ، أدخل الله به هذا الجنة ، وأدخل هذا به النار ، فيا لها حسرة لا تزال وعثرة لا تقال ، وأنشدونا فيما يلائم هذا الباب :

أَنَفْسُـك عِنـدك أولى النفوس ... فبـالبـؤس من غمّهـا جاهـدا
فإن قُلْـتَ أخشى صروفَ الزمـانِ ... فـكنْ من تصاريفـه واجـدا
وإن قُلْـتَ اجمعـه للبنـين ... فقـد يسـبقُ الـولـدُ الوالـدا

وأنشـد :

إذا كنـت جمّاعـاً لمالِكَ مُمْسِكا ... فأنـت عليه خازنٌ وأمينُ
تؤدّيه مذمومـاً إلى غـير حَامدٍ ... فيأكلـه عَفْـواً وأنـت دفينُ

وما أحسن ما وصف العطوي هذا المعنى في قوله :

يا جامعـا مانعـا والدهـر يرمقه ... مفـكراً أي باب منـه تغلقهُ
مقـدّراً كيف تأتيه منيّتُه ... أغـاديا ام لهـا يسري فتطرقُه
جمعْـتَ مالا فقـدّرْ هل جمعـت له ... يا جامـع المال أيامـاً تفرّقُه
المالُ عنـدك مخـزونٌ لوارثِه ... مـا المالُ مالك إلا حـين تنفقه
أرْفِـهْ ببـال فتـى يغـدو على ثقةٍ ... أن الـذي قسّـم الأرزاق يرزقُه
فالعِرضُ منـه مصـونٌ ليس يدنسه ... والوجـه منـه جديد ليس يخْلِقُهُ

وأجاد الخزيمي في هذا المعنى حيث قال :

إنْ كنـت ذا مالٍ فلا والذي ... خولّنـي المالَ وأغناني
ما قرّت العـين به ساعـةً ... إلا تذكرت فأبـكاني

أذكر أنـي صائـر للبـلى وفـاقـد أهـلي وإخـواني
وتـاركٌ مالي عـلى حالِـه نهبـاً لهيّـانِ بن[1] بيـان
لامـرأة ابنـي ولـزوْج ابنـتي يا لك من غَبْـن وخسـرانِ
إن انفقـوا كان لهـم أجْرُه وخَفَّ من ذلـك مـيزاني

ومن أفحش البخل وأقبح التقتير والمنع كثرة المال الذي يمنع به صاحبه ثمرة ماله ودرة نفسه وعبرة في حياته وبعد وفاته ولـذلك أغلـظ الله الـوعيد لكانـزي الأموال ، فقال : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضـة ولا يُنفقونهـا في سبيل اللّه فبشرهم بعذاب أليم . يوم يُحْمى عليها في نار جهنم فتكْوَى بها جباهُهم وجنوبهُـم وظهورهُـم هذا ما كنزتـم لأنفسكم فذوقـوا ما كنتم تكنزون** ﴾[2] .

وقال : ﴿ **الذي جَمَع مالاً وعَدَّدَه . يحسبُ أن ماله أخلَدَه . كلا لينبذن في الحُطَمه** ﴾[3] .

وقال أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه . أربع من الشقاء كنز العين[4] وقساوة القلب وبُعْد الأمل وحُبُّ الدنيا .

قالوا : وكتب بعض الحكماء إلى أخ له ، أما بعد فانْفِقْ مما آتاك الله فيما أمركَ اللهُ ، ولا تكن في مالك كالبخيل المتعجل للفقر الذي منه يهرب ، والتارك للسعة التي إياها يطلب ، ولعله يموت بين طلبه وهربه ، فيكون عيشُه في الـدنيا عيش الفقراء ، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء .

مع أنه لم يُر أحد أشقى بماله من البخيل ، لأنه في الدنيا مهتمّ بجمعه ، وفي الآخرة محاسَب على منعه ، وغير آمن في الدنيا من همه ، ولا ناج في الآخرة من

(١) هيان بن بيان : أي لا يعرف من هو ولا يعرف أبوه ، ومثله هيّ بن بي (اللسان ـ هيا)
(٢) الآيتان ٣٤ و٣٥ التوبة .
(٣) الآيات ٢ إلى ٥ الهمزة
(٤) كنز العين : كنز المال من الذهب والفضة .

إثمه ، وفي ذلك أقول:

إمِـن خوف فقـرٍ تعجَّلْته تؤَخـرُ إنفـاقَ ما تجْمَعُ
فصرتَ الفقـير وأنـت الغنيّ وهـل كان يعْـدو الـذي تصنعُ

ومن التبذير أن ينفق ماله فيما لا يجدي عليه نفعاً في دنياه ولا يكسبه أجراً في أُخراه ، بل يكسبه في دنياه ذماً ، ويحمل إلى آخرته إثماً كإنفاقه في المحرمات وشرب الخمور وإتيان الفـواحش، وإعطائـه السفهـاء الـذين نهى الله عن إتيانهـم من المخانيث والمغنّين والمُلْهين والمساخر والمضحكين والفاسقين الـذين يصـدّون عن سبيل الله وينسون ذكر الله ، ويدعون إلى خلاف ما أمر الله ، ويندبون إلى ما نهى الله عنه .

ولعل كثيراً ممن ينفق ماله على هؤلاء قد عرف وأبصر محاويج من أهل الشرف والفضل والدين والعقل ، ومن أولاد الرسول ـ عليهم السلام ـ وعترتـه وورثـةُ أصحابه وأنصاره ، ثم أهل العلم والأدب والحكمة والنسك والعبادة ، وهم بين عابد جائع ، ومضطر قانع ، ومستور متكفف ، ومحتاج متعفف .

وهو إن فكّر علـم أنّ الأجـر في هؤلاء أوجـب ، والـذكر فيهـم أشرف ، والصنيعة فيهم أبقى ، وهم بمال الله أحقّ وأوْلى .

ومن التبذير أن يشغل المال بفضول الدور التي لا يحتاج إليها ، وعساه لا يسكنها ، أو يبنيها لأعدائه ولخراب الدهر الذي هو قاتلُه وسالبُه .

ومن التبذير أن يجعل المال في الفُرُش الوثيرة والأواني الكثيرة الفضية والذهبية التي تقل أيامه ولا تتسع للارتفاق بها ، ولعلها يجمعها لعدوه ويتنوق[1] فيها لغيره ، ويضيع منها حظه ويثقل بها ظهره ، ويكثر بها وزره .

---

(١) تنوّق في الأمر: تأنق فيه .

وكل ما أنفقه الإنسان مما يكسبه عند الله أجراً ويرفع له إليه منزلة ، أو يكسبه عند العقلاء وأهل التمييز حمداً فهو جود وليس بتبذير وإنْ عظم وكثُر .

وكل ما أنفقه في معصية الله التي تكسبه عند الله إثماً وعند العقلاء ذمًّا فهو تبذير وإن قلّ ونزُر .

فإن رسول الله ﷺ كان يقول : ما أحب أن لي مثل أحُد ذهباً أُمسي ثالثة وعندي منه دينار ، إلاّ ديناراً أرصده لدين ، إلا أن أقول في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن يساره ومن خَلْفِه ، ثم قال : إن الأكثرين هم الأخسرون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا .

ولم يكن[1] مع هذا مبذراً ، ولم يأمره الله بالتبذير ، ولم ينفق في معصية الله درهماً ولا ديناراً ، ولم يكن بخيلاً .

وروي عن أمير المؤمنين علي أنه قال : الناس على أربعة أصناف : جواد ومسرف وبخيل ومقتصد ، فالجواد الذي يعطي دنياه لآخرته ، والمسرف الذي يجعل نصيب آخرته لدنياه ، والبخيل الذي لا يعطي كل واحدة منهن نصيبها ، والمقتصد هو الذي يعطي كل واحدة منهن نصيبها .

حسن تدبير المال

فأما جهة ترتيب المال وحسن التدبير في جمعه وتفريقه فنقول إن من حُسن التدبير في المال لمن سلك فيه المذهب القويم والطريق المستقيم أن لا يؤخذ أصل المال ولا يؤثل[2] ولا يثمر إلا من حِلّه ، وأن ينفق منه قدر ما يحتمله رأس المال ، فإن النفقة إذا جاوزت وفاقت التمييز لم تلبث أن تضر بيت المال وتنفده ، وكذلك إن ساوى الدخل الخرج .

ثم لا يجوز أن ينفق منه إلا في إحدى ثلاث : إما ذُخْر للمعاد ، أو نعمة ولذة

(١) ولم يكن : اي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) التأثـل : اتخاذ أصل المال .

في المعاش ، او ذكر حسن يبقى في الحياة وبعد المات .

وقد بيّنّا أن أشرف هذه الوجوه ما يجعله ذخراً لآخرته لأنه لا يعدم من قصدها هذه الوجوه كلها ، وقد بيّنّا ذلك فيما تقدم من كتابنا .

نصائح للمنفقين

فإن اختار منفق المال هذه السبيل فتمامه في أربعة أشياء : أولها ـ أن يتبع فيه أمر الله ، ولا يضع المال إلاّ حيث أمر بوضعه ، ويتحـرى من ذلك في كل حال الأوْلى والأحق .

والثانية ـ أن يبتغي بذلك القربة إلى الله ـ جل ذكره ـ والزلفة لديه لا إلى غيره دون عاجل المكافأة والجزاء والشكر والثناء ، وتَهَذُّبه من السمعة والـرياء ، فإن الله ـ تعالى ـ لا يقبل ما أُشرك فيه غيره ، لأنه يقول : ﴿ فَمَنْ كان يَرْجو لقاءَ ربه فلْيَعْملْ عَمَلاً صَالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربّه أَحَداً﴾ .(١)

وقال : ﴿ومثل الذين يُنفقون أَمْوالَهم ابتغاءَ مَرْضاةِ اللهِ وَتثْبيتاً مِن أنفسِهم كمَثَل جَنَةٍ بربْوَةٍ أَصابَها وابلٌ فآتتْ أُكلَها ضِعْفين فإنْ لم يُصبِهْا وابلٌ فطلٌّ﴾ .(٢)

وروى عن النبي ﷺ أن الله يقول : أنـا أَكْرَمُ الشركاءِ ، من أطاعنـي وأشرك في طاعتي غيري جعلتُ مالي لشريكي .(٣)

وقال النبي ﷺ إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلٍّ امْرىء ما نَوَى فمَنْ كانت هجْرتُه إلى اللهِ ورسولِه فهِجْرتُه إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجْرتُه لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجْرتُه إلى ما هاجر إليه .(٤)

(١) آية ١١٠ الكهف .
(٢) آية ٢٦٥ البقرة .
(٣) رواه مسلم في الزهد ببعض اختلاف في اللفظ .
(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد .

والثالثة ـ أن يزين إنفاقه بالسر والكتمان ، ويصونه من الأذى والامتنان ، فإن الله ـ جل وعز ـ يقول : ﴿ **وإن تُخفوها[1] وتُؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لَكُم** ﴾ .[2]

ويقول : ﴿ **قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صَدَقةٍ يَتْبعُها أذىً** ﴾ .[3]

ويقول : ﴿ **الذين يُنْفِقون أَمْوالَهم في سبيل اللهِ ثم لا يُتْبِعون ما أنْفَقوا مَنّاً ولا أذىً لهم أجرُهم عند رَبِّهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحْزنونَ** ﴾ .[4]

ويقول : ﴿ **يأيها الذين آمَنوا لا تُبْطِلوا صَدَقاتِكم بالمَنِّ والأذى كالذي يُنفِقُ مالَه رِئاءَ الناسِ ولا يُؤْمِنُ باللهِ واليوم الآخِرِ فمَثَلُه كمَثَلِ صَفْوانٍ عليه ترابٌ فأصابَهُ وابلٌ فتركَهُ صَلْداً لا يَقْدِرون على شيءٍ مما كَسَبوا** ﴾ .[5]

ففي هذه الخلال تزيين ما أُنفق في سبيل الله وتمامه وترتيبه .

فأما من أنفق المالَ واصطنع المعروف رغبة في شرف الذكر وطيّب النشر وعاجل الشكر فإنّ سبيله يقرب من هذه السبيل ولا يكاد يفرق بينهما إلا القصد والنية ، لأنه لا يحسُن ذلك إلا بمن عفّ عن المكاسب الدنيئة والمطالب الخسيسة ، ويتجنب فيها المظالم ويتقي المآثم ، فإذا فعل ذلك كان ما يتعجل من شكاية المتظلم وسوء ثناء المظلوم وفحش دعائه ونعته وحرقة قلبه أجل خطراً وأعظم قدراً في بابه من شكر المصطنع وحمد المنعم عليه وحسن ثناء المقصود بالعرف وفرحه به .

---

(١) أي الصدقات

(٢) آية ٢٧١ البقرة .

(٣) آية ٢٦٣ البقرة .

(٤) آية ٢٦٢ البقرة .

(٥) آية ٢٦٤ البقرة .

وإذا قايَسْتَ هذا بذاك لم يفِ الخير بالشر ، والنفع بالضر والشكر بالشكاية ، وما يخيف بعد ذلك من لعن رب العالمين وعباد الله الصالحين ، وذم الفضلاء من أهل الدين ، ثم عذاب الله الأليم أشد وابقى واقطع وأدهى ، نعوذ بالله منها .

وكذلك روي عن عمرو بن عبيد أنه ذكر عنده الأسخياء فأكثروا في عدّهم وأطنبوا في وصفهم وهو ساكت ، فقيل : كيف لا تتكلم في هذا الباب ؟ قال : ما عسى أن أقول وما ذكرتم منذ اليوم سخياً ؟! إنما السخي من جاد بماله وعف عن أموال الناس ، ولقد بالغ في الذم من هجا بعض الظلمَة الخونة ورآه بني سِقاية[1] يحتسب فيها ، فقال :

بَنَيْتَ بما خُنْتَ الأنام سِقايةً　　فلا شربوا إلاّ أمرٌ من الصبرِ
وما كنتَ إلاّ كبائعةِ اسْتِها　　تعودُ على المرضى بها طلب الأجرِ[2]

ثم يجب على العاقل أن يختار للمعروف أهله ، فإنه ليس في وُسْع البشر إغناءُ كل البشر ولا الإفضال على كل أحد ، فإذا لم يكن فيه مطمع فاصطناع ذوي الأخطار وأولي الأقدار والذين يصدقون في مدحهم إذا مدحوا ولا يُتّهمون في صِدقهم إذا شكروا ـ أوْلى بالاختيار وأحقُّ بذوي الأفضال . المعروف

وقد روي عن النبي ﷺ قوله : «لا تكون الصنيعة صنيعة إلا عند ذي حسب أو دين » . وقديماً قيل :

ومَنْ يَجْعلِ المعروفَ في غيرِ أَهْلِهِ　　يكُن حَمْدُه ذمّاً عليه ويندَم[3]

قالوا : وقال معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد لما بايع له : قد وطأت لك

---

(١) أي ماء سبيل من أجل الثواب .
(٢) أي كمن زنت متصدقة بزناها !!
(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته .

الأمور فانظر إلى كل ذي شرف من كل جنس فواجههم وقربهم وأحسِنْ إليهم فإنهم أشكر الناس إن أُعطوا وأصبرهم إن جُفوا .

وقد كان جماعة من الكرام الأسخياء المعروفين بكثرة العطاء من الملوك والفضلاء يفعلون المعروف شهوة وطباعاً فيلقونه في كل موضع ويصنعونه في كل مصنع ويبذرونه في كل مزرع ، وذلك مذهب قد ذهب إليه جماعة ، فقد قال قائلهم :

يدُ المعروف غُنْمٌ حيث كانت ... تحمّلها كفورٌ أو شكورُ
فعند الشاكرين لها جزاءٌ ... وعند الله ما كَفَر الكَفورُ

وقال آخر :

سأمنحُ مالي كلَّ مَنْ جاءَ طالباً ... وأجْعلُه وقفاً على الفَرْض والقَرْضِ
فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالمالِ عِرْضَهُ ... وإمّا لئيمٌ صُنْتُ مِن لؤْمِهِ عِرْضي

وروى جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس هو أهله ، فإن كان هو أهله فهو أهله ، وإن لم يكن هو أهله فأنت أهله» .

وإن قصد قاصد أو ذهب ذاهب في معروفه إلى طلب الشكر وبقاء الذّكر فإن تمامه في اربعة أشياء : تعجيله وتيسيره وستره وترتيبه . وقد روي الثلاث من هذه الأربع عن ابن عباس وجعفر بن محمد كلاهما .

روى سفيان الثوري عن جعفر أنه قال له : علمت أني نظرت في المعروف فوجدته لا يتم إلا بثلاث . قلت : وما هي جُعلْتُ فداك ؟ قال : تعجيله وتصغيره وتيسيره ، فإنك إن عجلته هنأته ، وإذا يسرته اتممته ، وإذا صَغَّرْتَه عظّمْته ، وإذا مطلت وأخّرته وسوّفته كدّرْته ونغّصْته وأفسدْته .

وجعل ابن عباس بدل التيسير من هذا الكلام[1] الستر ، وكان يقال : ستر رجل ما أوْلى وشكر ما أولي .

ثم قال جعفر بن محمد : والمعروف أوثق الحصون وأشرف الأمور ، وهو كنز من الكنوز فلا يزهدنك فيه كفْر من كَفَر ولا جُحود من جَحَد ، فقد يشكرك عليه من لا يستمتع منه بشيء .

قالوا : وكتب الحسن بن سهل إلى المأمون في شيء طلبه لبعض المتصلين به : إنّ داعي نداك ومنادي جدواك جمعاً ببابك الوفود يرجون نائلك العتيد ، منهم من يمتّ بحرمة ، ومنهم من يُدلّ بخدمة ، وقد أجحف بهم وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسببه ، ويحقق ظنهم بطوْله فعل إن شاء الله .

قال : فوقع المأمون : الخير متبع ، وأبواب الملوك مواطن لطلاب الحوائج ، فاكتب أسماءَهم واخبُر مراتبهم ليصير إلى كل امرىء استحقاقه ولا يكَدِّرُ معروفَه بالمطل والحجاب .

وقد قال الشاعر :

فإنك لن ترى طرداً لحرٍّ ... كإلصاقٍ به طرف الهوانِ
ولم تحرز مودة ذي وفاءٍ ... بمثل البذل أو لطف اللسانِ

قالوا : وقال خالد بن عبد الله القسري على منبره أول ما صعد بالعراق :

أيها الناس ، تنافسوا في المكارم وسارعوا إلى المغانم واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذمّاً ، ولا تعِدوا بمعروف لم تعجلوه ، واعلموا أن حوائج الناس نعمة من الله عليكم فلا تملوا نعم الله عليكم فتحور نقماً .

وكذلك يجب على الكريم أن ينزه معروفه عن انتظار جزاء أو مكافأة عليه أو

(١) من هذا الكلام : اي من الكلام الوارد في قوله : وتمامه في اربعة اشياء . ومنها التيسير والستر .

شكر عاجل ، فإنه قد قيل في الكتب القديمة : من جعل المعروف لعاجل الجزاء فهو كملقي البذر ليصيد به الطير لا لينفعه .

ولا يكدّره بالذكر والتعيير والمنّ والأذى ، فقديماً قيل : إنّ المِنّة مفسدة للصنيعة .

وكذلك قال الحكماء : إذا اتخذتم عند حُرٍّ يداً فانسوها ، أي لا تذكروها .

فأما ترتيبه[1] فقلّ ما يفي به إلا الحازم الجزل ، ولا شيء أحسن منه بالملوك والأشراف ، وقد أكد ذلك الحكماء وذكره الأسخياء والفضلاء حتى قالوا : الابتداء بالمعروف نافلة ، ورده فريضة . وقالوا : الابتداء بالتفضل يد موفورة ، والبذل بعد الطلب يد منقوصة ، وأحسن أحوال الجود أن تكون إجابتك بعد السؤال ، وإنجازك بعد المطلب . ولقد مدح بذلك مادح الكرام فقال :

كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا ... لم يوهنوا لبنائهم آساساً
وإذا همو صنعوا الصنائع في الورى ... جعلوا لها طول البقاء لباساً

وقال قائل يمدح طلحة الطلحات :

أرى الناس قد ملّوا الثواءَ ولا أرى ... بني خلفٍ إلا رواةَ المواردِ
إذا نفعوا عادوا لمن ينفعونه ... وكائن ترى من نافع غير عائدِ

وقال آخر :

وأحْسَنَ ثم أحْسَنَ ثم عُدْنا ... فأحْسن ثم عدْت له فعادا
مراراً ما دنوْتُ إليه إلاّ ... تبسّم ضاحكاً وثنى الوِسادا
سألناه الجزيل فما تأبّى ... وأعطى فوق مُنْيتنا وزادا

---

(١) أي المعروف .

وأما من أنفق ماله في منال لذة أو قضاء شهوة أو إظهار جمال وزينة فلا يتم ذلك له ولا يحسن به إلا إذا كان أخذ المال من حيث يحسن في الدين ويجمل ، وتمتع به فيما يطيب ويحل ، وتجنب فيه المحارم والمذام ، فإنه إن لم يفعل ذلك كان كفَراش النار الذي يتهافت فيها اغتراراً بضوئها فيحرق نفسه ، وكالذباب الذي يُلقى نفسه شرها فيما يموت فيه سريعاً .

فلا خير في منال شهوة تفني لذته وتقضي شهوته وتبقى تبعته ، وتسيء في الناس قالته ، وتنقص آخرته ، ويدوم على مرتكبها عقوبته .

فإنك إذا قايست بين حرص النفوس على منالها وميل الطباع إليها والتذاذها عند الظفر بها وبين نهي العقل والدين عنها وتأبى النفس الفاضلة بما يتعقبه من هذه المكاره عليها علمت أن النفع فيها أقل من الضر ، والشر فيها أدهى من الخير .

وكذلك ما اشترط كل من أدخل هذا القسم في القسم الثالث من أقسام مساعي اللذة من غير محرم .

قالوا وجدت في حكمة آل داود : ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يخلو فيها بأهل ثقته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه ، [وساعة يخلي فيها بين نفسه][1] وبين لذاتها فيما يحلّ ويجمل ، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات واستجماماً للقلوب وفضْل بُلغة .

قالوا : وعلى العاقل أن لا يرى ظاعناً إلا في إحدى ثلاث : مرمّة[2] لمعاشه ، أو خطوة لمعاده ، أو طلب لذة في غير محرَّم .

(١) في الكلام سقوط هنا ، ويستقيم المعنى بإضافة ما بين المربعين .
(٢) مرمة المعاش : ما يصلحه ، والماضي منه رمّ بمعنى أصلح ومنه ترميم البناء أي إصلاحه .

وقد قال في صدق هذه القضية بعض الشعراء :

تفنى اللذاذةُ ممن نال شهوتها ... من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقب سُوءٍ من مغبتها ... لا خير في لذة مِن بعدها النارُ

فهذه الأبواب الثلاثة هي التي يجوز لمميز عاقل أو عالم فاضل صرفُ شيء من الأموال وإنفاقه فيها ، وما خرج منها فإنما هو تبذير وفساد وذهاب عن سبيل الرشاد في القول العام المطلق والرأي الأصوب الأرفق .

الإنفاق في الأموال العامة

فأما أموال الله التي في أيدي الملوك والأمراء من حقوق بيوت الأموال التي تدخل على المسلمين من فيئهم وغنائمهم وأخرجتهم وأعشارهم وجزية أهل ذمتهم فإن الله قد بينّ سُبلها وأبان عن طرُقِها ، ووضعها مواضعها فقال : ﴿ **إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمُؤَلَّفةِ قلوبُهم وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبِيل اللهِ وابنِ السبيلِ** ﴾ .[1]

وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن «وأَعْلِمْهم أنّ الله قد أوجب عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم » .

وقال [تعالى] في الفيء : ﴿ **ما أفاء الله على رسولِه مِنْ أَهْلِ القُرَى فللهِ وللرسولِ ولذي القُرْبَى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ** ﴾ .[2]

فالسنّة في صدقات السوائم والعشور والأخماس وكل ما في باب الصدقات أن تقسم على هذه السهام المذكورة إلاّ سهم المؤلفة قلوبهم ، لأن الله قد أغنى عنهم ورفعهم بعز الاسلام وظهور الحق ، ويعطي العاملون على مقدار الكفاية ، ولا يحل من الصدقات لآل الرسول ﷺ ولا لغني موسر ولا ملِك مقتدر .

---

(١) آية ٦٠ التوبة .
(٢) آية ٧ الحشر .

وأما الغنيمة والفيء فقد كان على عهد النبي ﷺ فيآن : أحدهما للنبي ﷺ خاصة ، لم يوجف المسلمون عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلّط رُسُله على من يشاء من بني النضير وأهل فدك ، فكان ذلك لرسول الله خاصة ، إلاّ أن النبي عليه السلام لم يبْن به داراً ولم يشتر به عقاراً ولم يتمتع به في الدنيا فضْل تمَتع ، بل كان يأخذ منه قُوته وقُوت عياله ، ويجعل الباقي منها في نوائب المسلمين وحوادث أمر الدين .

والآخر هو ما يفيء من أموال الكفار على المسلمين من غنيمة أو جزية أو خراج بني تغلب ، فإنه يُعطي منه ذوي القربى ، وهم عندنا قرابة النبي ﷺ مقدار كفايتهم ، ويصرف الباقي في نوائب المسلمين من السلاح والكراع[1] وأعطيات الجيوش التي تغزو أرض العدوّ ، ويعطون مقدار كفايتهم ، فإن فضل شيء من ذلك صرف إلى اليتامى والمساكين وأبن السبيل ، وإن نقص مال من صنوف الأموال عن هذه الوجوه فلا بأس على الأمام أن يجعله كله في باب واحد إذا مسّت الحاجة ودعت الضرورة إليه ، والله أعلم .

وليس للعاملين عليها إلاّ مقدار القُوت ، فهكذا كان النبي ﷺ يصنع وينفق على نفسه .

وكان عمر يقول لعماله : قد انزلتكم من هذا المال ونفسي منزلة وصي اليتيم ، من كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

وروي عن عمر [بن عبد العزيز] أنه كان إذا سهر بالليل لعمل نفسه أسرج[2] من ماله ، وإذا سهر لأمر العامة أسرج من بيت مال المسلمين .

وروي مجمع بن أبي رجاء قال : خرج الينا عليّ بن أبي طالب رحمه الله

---

(١) الكراع : الخيل ، وقيل يشمل البغال والحمير كذلك .
(٢) أسرج : أوقد السراج .

بسيف يبيعه فقال : من يشتري مني هذا ؟ ولو كان عندي ثمن إزار ما بِعْتُه ، قال : فقلت أنا أبيعك وانسئك[1] ثمنه ، قال : فلما خرج عطاؤه قضاني .

ثم لما فتح الله على المسلمين البلاد ومكّنهم من خزائن الملـوك وكثـر فيهـا الجيوش جعل أمير المؤمنين عمر لطبقات الناس ديواناً وأجمعت الأمة عليه ، فجعل أهل بيت الرسول ﷺ في أول الدواوين ، ثم المهاجرين ثم الأنصار ثم أحياء العرب بعضهم بعد بعض .

وكان يأمر بقسم ما يجتمع في بيت المال من هذه الأموال بعد إخراج المؤن وإزاحة العلل على ما بيّنه الله لرسوله فيما فضل عنده من خمس الفيء وما في بابه قسمه بين المسلمين على ما أمره الله به .

سد الحاجات

وسُنّه أخرى في هذا الباب هي أنّ ما اجتمع من هذه الوجـوه في بلـد من البلدان لا ينقل منه إلى غيره حتى تزاح عِلَلُهم ويعطي فقراؤهم كفايتهم ، ويحمل أبناء السبيل منها إلى بيوتهم ، وتفك رقابهم التي أُسرِت في عدوّهم ، ويؤدى عن غارمهم ، فإنّ النبي ﷺ قد بينّ ذلك في سُنّته حيث قال : لا يترك في الاسلام مقدح .

وقال : من ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك ديْنا أو ضياعاً فإليّ وعليّ .

فإن استغنى عنه أهل بلد في وقت من الأوقات فاحتاج إليه بلدان أخر حُمل إلى أقرب البلدان اليه فتزاح عِلَلُهم ثَمّ على هذا الترتيب حتى تزاح العلل التي في ذلك الوجه كلها ويسد الخلل . فإن فضلت فضلة تحمل إلى بيت المال الذي عند الامام .

وروى عيسى بن رستم قال : قرىء علينا كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد

---

(١) انسئك : أي أؤجل لك الثمن ، ومنه بيع النسيئة .

الحميد بن عبد الرحمن وكان عامله على الكوفة وفيه: أيما رجل كان عليه ديْن لا يقدر على قضائه فاعطوه من مال الله. أيما رجل تزوج امرأة ولم يقدر على صداقها فاعطوه من مال الله. وأمر للمؤدبين والزمنى.

وسَنّ رسول الله ﷺ التفضيل في العطاء مرة، والتسوية تارة، على ما أوجبته الحال.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يرى التسوية.

وكان عمر وعثمان يفضلان على مقدار البلاء في الاسلام والغَناء عنه ومواجب الأحوال.

ثم كان عليٌّ يرى التسوية.

والتفضيل عندنا هو الأختيار، وهو أشبه بكتاب الله عز وجلّ، لأن الله يقول: ﴿ وفضّل اللهُ المُجاهدينَ على القاعدين أَجْراً عَظيماً درجاتٍ مِنْه[1] ﴾.

وقال: ﴿ قُلْ هل يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمونَ والذِين لا يَعْلَمونَ ﴾[2] في أبواب قد تلوناها فيما تقدم من كتابنا.

فهذه جمل السنن التي أوجبها الله - جلّ وعز - في هذه الأموال فليعلم الملك المسلط ذلك ولينظر لنفسه في هذه الأمور، وليعلم أن كل فقير في الاسلام وغارم وابن سبيل وأسير وغاز في سبيل الله ومسكين - خصماؤه عند من لا يظلم مثقال ذرّة وما هو بظلاّم للعبيد.

ولا ينبغي أن يضيق صدر ملك عن إخراج هذه الأموال إلى أربابها، والله

(١) الآيتان ٩٥ و ٩٦ النساء.
(٢) آية ٩ الزمر.

تعالى يأجره عليها ويعوضه عنها الجنة ، فإنه إن صرفها عن جهاتها وضن بها على مستحقيها تركها لغير حامد وخرج منها غير مشكور ، وورد على غير عاذر ، ولم يحصل له إلاّ الإثم والعار وعذاب النار وسوء الدار ، وليس بينهما إلاّ الحمد والذم والأجر والإثم . فإن رغب الملك في المال الكثير فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد جعل لطلب الأموال سُبُلاً معلومة وأسباباً معروفة هي أطيب مأخذاً وأحمد عاقبة ، فلا يعوزه المال من تلك الجهات إن طلبه ، ولا يتعذر عليه إن اكتسبه من تميز القليل وإدراك الجليل مما قدّره الله له ، وهو وليُّ التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *

الباب التاسع

في تدبير الأعداء وأهل الجنايات

إن الله ـ جلّ وعز ـ حرّم نفس الفطرة ، وأوّلُ التعبد دماء الخليقة والبشر بأشعارهم وأبشارهم بعضهم على بعض ، فلم يبح إهراق دم ولا إزهاق نفس ولا نقص نفس ، ولا إيلام أحد من الناس إلاّ لحاضر من الفساد يُتّقَى ، أو لمتخوف منه يُتَوَقّى ، أو إصلاح عامّ يرتجى ، أو لعائدة يؤمل عوْدها على عامة المسلمين وجماعة المؤمنين أو يكون فيه تأييد للدين وانتقام من المذنبين واعتبار للمتفكرين المعتبرين كالطبيب الحاذق الرفيق والوالد البر الشفيق الذي يقطع من ولده الجارحة الدُّونة[1] إبقاء على البقية ، ويجرّعه الأدوية البشعة الكريهة تأميلاً لرفع علة أو إعادة صحة أو إبقاء سلامة وعافية .

وكالبستاني الحاذق الحريص على عمارة بستانه ، وتعهد ريحانه يقلع منه الحشيش الضار ليحيا به الريحان النافع ، ويقطع منه الشجر الذي يضر بظله ولا ينفع ثمره لينشيء وينمي المثمر الذي يجدي ثمره ويطيب جناه .

وكالحريص على توفير ماله وتدبير قُنيانه[2] يغذي ببعضها بعضاً ، وينفق كثيراً

---

(١) الدُّونَة : المراد العضو التالف . قال في اللسان : لا أعرف « دون» تؤنث بعلامة تأنيث ولا بغير علامة .

(٢) القُنيان : مصدر قنى بمعنى كسب المال ، ومنه قوله تعالى : وأنه هو أغنى وأقنى آية ٤٨ النجم (اللسان ـ قنى) .

من أجزائها قصداً لتوفير ما بقى منها قال الله ـ جلّ وعز ـ في صحة جملة هذه القضية : ﴿ ولا تَقتُلوا أنفسكم إنّ اللهَ كان بكم رَحيماً[1] ﴾ .

وقال : ﴿ ولا تُلْقُوا بأَيديكم إلى التَّهْلُكَةِ[2] ﴾ .

وقال : ﴿ ولا تَقْتُلوا النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ[3] ﴾ .

وقال : ﴿ فلا يُسْرِفْ في القَتل إنه كانَ منْصوراً[3] ﴾ .

نفوس مهدرة

ثـم قال من بعـد ذلك : ﴿ ولـكم في القِصـاصِ حَياةٌ يا أُولـي الأَلْبابِ[4] ﴾ .

وقال : ﴿ كُتِبَ عليكم القتالُ وهو كُرْهٌ لكم وعَسـى أن تَكْرَهـوا شيئاً وهو خَيْرٌ لكم وعسى أن تُحِبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم[5] ﴾ .

فأباح الله ـ جل ثناؤه ـ على هذه القضية وصحـة هذه الدلالـة دماء ثلاثـة أصناف ، بل أمر بإهراقها إعـزاز للـدين ونصرة للأنبياء والمرسلـين وأوليائـه من المؤمنين ، وإرادة منه لحياة العباد وعمارة البلاد .

أولهم المشركون الذين يُقاتلون على أصل التوحيد والنبوّة والشريعة التي هي أُسّ المملكة ورأس العمارة والطريق إلى تمام السعادة ، وهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة ، نصَّ الله على قتالهم في كتابه فقال : ﴿ وقاتلوا المُشْرِكينَ كافَّةً كما يُقاتِلونكم كافّةً[6] ﴾ .

---

(١) آية ٢٩ النساء .
(٢) آية ١٩٥ البقرة .
(٣) آية ٣٣ الاسراء .
(٤) آية ١٧٩ البقرة .
(٥) آية ٢١٦ البقرة .
(٦) آية ٣٦ التوبة .

وقـال : ﴿ واقْتُلوهـم حيْث ثَقِفتُمُوهـم واخْرِجوهـم مِن حَيْثُ أَخْرَجوكم[1] ﴾ .

وبينّ عند ذلك العلة فيه حيث قال : ﴿ والفِتْنَةُ أشدُّ مِن القتلِ[1] ﴾ .

وقـال : ﴿ فاقتلـوا المشـركين حيث وجدتموهـم وخُذوهـم واحصُروهم واقعُدوا لهم كلَّ مرْصَدٍ ﴾[2].

وقال : ﴿ قاتِلوا الـذين لا يُؤْمِنـونَ باللـهِ ولا باليومِ الآخـر ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولهُ ولا يَدِينون دِينَ الحقِّ مِن الذين أُوتُـوا الكتابَ حتى يُعْطُوا الجِزية عن يدٍ وهم صاغِرون[3] ﴾ .

ثم خص اللهُ أهل العهد والذمّة من هؤلاء فأمـر بالوفـاء لهـم بمـا وقعـت شرائطهم عليه فقال : ﴿ وإنْ أحدٌ مِن المشركين استجارك فأجِرْه حتى يَسْمَع كلامَ اللهِ ثم أبْلغْهُ مأمَنَه[4] ﴾ . .

وقال : ﴿ كيف يكونُ للمشركين عَهْدٌ عند الله وعند رسوله إلاّ الذين عاهْدتُم عِنْد المسجدِ الحرامِ فما استقاموا لكم فاسْتَقيموا لهم إنّ اللهَ يُحبُّ المتّقين[5] ﴾ .

وقال : ﴿ وأَوْفُوا بعهد اللهِ إذا عاهَدْتُم[6] ﴾ .

وقال النبي ﷺ « أنا أحق من وفى بذمته » وقال: « لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده »[7] .

(١) آية ١٩١ البقرة .
(٢) آية ٥ التوبة .
(٣) آية ٢٩ التوبة .
(٤) آية ٦ التوبة .
(٥) آية ٧ التوبة .
(٦) آية ٩١ النحل.
(٧) رواه أبو داود في الديات رقم ٤٥٣١

فهؤلاء صنف .

قتال البغاة

والصنف الثاني وهم الباغون الذين يخرجون على المسلمين والأئمة العادلين متغلبين أو متأولين من أهل الملة ، أمر الله ـ جلّ وعز ـ بقتالهم بعد دعوتهم إلى السلم والفيء والصلح ، ومناظرتهم فيه وبيان الحق لهم ، فقال : ﴿ وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تَبغي حتى تفيء إلى أمرِ الله فإن فاءتْ فأَصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحب المقسطين ﴾[1]

وقال : ﴿ إنما المؤْمِنون إخْوَة فأصلِحوا بيْن أخَوَيْكُم[2] ﴾ .

وروي عن أمير المؤمنين عليّ رضوان الله عليه أنه قال : أُمِرْتُ بقتال القاسطين والناكثين والمارقين .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «للشهيد نوران ولمن قَتَلَهُ الخوارج عشرة أنوار » .

وذكر بين يدي أمير المؤمنين عليّ أيام صِفّين أصحاب معاوية ، فكفّرهم بعضهم ، فقال : لا تكفّروهم فإنهم زعموا أننا بغيْنا عليهم ، وزعمنا أنهم بغوا علينا فقاتلناهم على ذلك .

وقال النبي ﷺ لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار » .[3]

وقال أمير المؤمنين إن قاتلوا إماماً عدلاً فقاتلوهم ، وإن قاتلوا إماماً جائراً فلا تقاتلوهم فإن لهم بذلك مقالاً .

---

(١) آية ٩ الحجرات .
(٢) آية ١٠ الحجرات .
(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي : جامع الأصول ٤٢/٩

فالسُّنّة في قتال هؤلاء أن يُدعَوْا إلى الرجوع والصلح ويناظروا فيما أدّاهم إلى البغي ، فإن وُجدوا محقّينَ في دعواهم حمل الباقون على الخروج من حقوقهم وتسليم مالهم إليهم وتوفيره عليهم .

وإن وجدوا مُبطلين بين لهم بطلان دعواهم وأُلزموا الحجة على ذلك . فإن أبوا إلاّ إصراراً على البغي وتمادياً في الغي قوتلوا عليه حتى يفيئوا إلى أمر الله . فإن فاءوا كف عنهم وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

فإن استحقوا القتال وقوتلوا فالسُّنّة في قتالهم أن يتربص بهم حتى يكون منهم أو يظهر على فساد من قتْلٍ أو أخْذ مال ، فإذا فعلوا شيئاً من ذلك طولبوا برد المال وبذل القود[1] ، فإن أبوا حل قتالهم .

هكذا فعل أمير المؤمنين عليٌّ يوم الجمل ويوم صِفّين ويوم النهروان على ما جاءت به الروايات .

وإن لم يكن ذلك ففي إبائهم[2] أكفى كفاية في إيجاب قتالهم .

ثم السُّنّة الأخرى فيهم ألاّ يجهز على جريحهم ولا يتبع موليهم ولا تسبى ذراريهم ولا يكون شيء من أموالهم مغنماً للمؤمنين بل هو ميراث لورثتهم ، فإنهم كانوا على جملة الدين ، وكان لهم ولاءٌ قبل القتال فرّقت السُّنّة به بينهم وبين المشركين .

فهؤلاء صنف .

قطاع الطرق

والصنف الثالث قطّاع الطرق ومخيفو السبيل الذين لا يستحلون دماءهم بتأويل ولا يعتقدونه بتنزيل ، بين الله أحكامهم وفرض عقابهم ، وخالف بين

(١) القود : هو أن يقاد القاتل للقتل قصاصاً .
(٢) إبائهم : أي رفضهم الطاعة للإمام.

أحوالهم نصاً في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فقال : ﴿ إنما جَزاءُ الذينَ يُحارِبونَ اللهَ ورسولَه ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فَساداً أنْ يُقتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّع أيْدِيهم وأرجُلُهم مِن خِلافٍ أو يُنْفَوْا مِن الأَرْضِ[1] ﴾ .

فاختلف العلماء في إقامة هذه الحدود عليهم ، فقال بعضهم الإمام مخير في هذه العقوبات فمن ظفر به منهم إن شاء قتله وصلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله من خِلاف[2] ، وإن شاء نفاه .

واختلفوا في النفي ، فقال بعضهم هو الحبس .

وقال بعضهم هو النفي عن أرضه التي أحدث فيها هذا الحدث وجنى فيها هذه الجناية ، إلى غيرها من الأرضين النائية عنها .

وقال بعضهم إن الله قد بين تأويل هذه الآية ورتب هذه العقوبات ، وخص كل طبقة وأهل كل مرتبة من ذوي الجنايات منهم بعقوبة خاصة به ملائمة لمقدار جنايته ، بما روى عن النبي ﷺ أن جبريل أتاه عن ربه فقال : من قتل وأخذ المال صُلِب ، ومن قَتَل ولم يأخذ المال قُتل ، ومن أخذ المال ولم يَقْتُل قُطع .

قالوا ومن سعى بعد ذلك في الأرض فساداً ، أو حمل سلاحاً فأخاف السبيل أو قطع الطريق ، ورأى الإمام نفيه أو حبسه كان له ذلك .

فأما أصحاب الجنايات الذين يأتون الإمام سلماً فقد حقنت ملة الإسلام دم كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر ، إلا بردّة بعد إسلام أو زنى بعد إحصان أو نفس بنفس .

---

(١) آية ٣٣ المائدة .
(٢) من خلاف : أي قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى .

ومن ارتكب دون ذلك من أبدان أهل الملة فالجروح قصاص .

ومن قتل مؤمناً خطأ فقد أوجب الله على عاقلته[1] الدية ، إلا أن يشاءوا أن يصدّقوا ، وتحرير رقبة مؤمنة ، ليس للسلطان فيه يد ولا معترض .

ومن ارتكب ما دون القصاص ففيه أرش قد بينت السُّنة أحكامها و شرعت الملة فروضها ومقاديرها ، قال الله ـ جل وعز ـ ﴿ وكَتَبْنا عليهم فيها أنَّ النفسَ بالنفْسِ والعَين بالعيْن والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّن بالسِّنَّ والجروحَ قِصاصٌ ﴾[2] .

وقال : ﴿ فَمَن اعْتَدى عليكم فاعْتَـدوا عليه بمِثْلِ ما اعْتَـدَى عليكم[3] ﴾ .

قتل الخطأ وقال : ﴿ وما كان لمؤْمنٍ أن يَقْتُلَ مُؤْمناً إلاَ خطأً ومن قَتَل مُؤْمناً خطأًُ فتحريرُ رقَبةٍ مُؤْمنة ودِيَةٌ مُسلَّمةٌ إلى أهْلِه إلاّ أنْ يَصدّقوا فإنْ كان مِن قومٍ عدوّ لكم وهو مؤْمن فتحريرُ رقبةٍ مؤْمنـةٍ و إنْ كان مِن قوْم بَيْنَـكم وبينهم ميثاقٌ فديةٌ مُسَلَّمةٌ إلى أهْلِه وتحريرُ رقبة مؤمنةٍ فمَن لم يَجِـدْ فصيامُ شهريْن متتابعيْن توبةً من الله وكان الله عليماً حكيماً[4] ﴾ .

الزنى وقال فيا دون الإحصان من الزنى : ﴿ الزانيةُ والزاني فاجْلِـدوا كُلَّ واحدٍ منهما مائة جلدةٍ[5] ﴾ .

قذف المحصنات وقال في القاذف : ﴿ والذين يَرْمونَ المُحْصَنَاتِ ثم لم يأْتوا بأربعةِ

(١) العاقلة : هم العصبة من الرجال أقارب القاتل . وقال الشافعية يستثنى الوالد والولد ، وقال المالكية لا يستثنون ، وهو أرجح .
(٢) آية ٤٥ المائدة .
(٣) آية ١٩٤ البقرة .
(٤) آية ٩٢ النساء .
(٥) آية ٢ النور . وهذه عقوبة الزاني الذي لم يسبق له الزواج رجلا كان أم امرأة

شهداءَ فاجْلِدوهم ثمانينَ جَلْدةًولا تَقْبَلوا لهم شهادةً أبداً[1] ﴾ .

وأجمعت الأمة على جلد السكران ثمانين .

السرقة

وفي السارق قال الله تبارك وتعالى : ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقْطَعوا أيدِيَهما جَزاءً بما كَسبَا نكالاً مِن الله[2] ﴾ .

التعزير

وفيما دون الحدود من ذلك من قذْع أو شتْم أو سوء أدب يعود بجرأة على السلطان ، أو استخفاف بالدين ـ تعزيرٌ على ما يراه السلطان في مذهبه إنْ كان من أهل العلم أو يفتي له المُفْتون ، فإنّ العلماء قد اختلفوا في ذلك فمنهم من جاوز بالتعزير الحد الى ثلاثمائة سوط وأقل وأكثر ، ومنهم من لا يرى بالتعزير بلوغ الحدود في العدد ويرى أن يجاوز به الحد في الشدة والإيلام .

ثم من أظهر في الدين بدعةً خَرَقَ بها إجماع الأُمة وناقَضَ بها التوحيد وأصول الشريعة ، أو خرج منه بشيء أو دخل فيه فعلى الإمام والسلطان أن يحضره مجلسه أو مجلس صاحبه ، ويأمر بمناظرته أو يناظره بنفسه بحضرة العلماء من المتكلمين والفقهاء العارفين بأصول الدين ، فيقيم عليه حُجة الله ، فإن قَبِلها ورجع عن البدعة التي أحدثها عفا عنه . وإن لم يقبلها[3] ولم يرجع عنها فعليه ما على المرتد بعد الاستتابة . وهكذا روي عن رسول الله ﷺ : من بدّل دينه فاقتلوه . واختلف العلماءُ في المرتدّة فأوجب بعضهم قتلها وبعضهم حبْسها وإجبارها على الدين .

درء الحدود بالشبهات

وسَنّ النبي ﷺ مع ذلك درء الحدود بالشبهات ، فمن شهد عليه الشهود بارتكاب حد من الحدود وأقر على نفسه به فإنّ السنة أن يُستأنى به إلى أن

---

(١) آية ٤ النور .
(٢) آية ٣٨ المائدة .
(٣) أي لم يقبل الحجة ولم يرجع عن البدعة .

يدفع عن نفسه بحجة أو شبهة ، فإن أتى بها درىء عنه الحد . وكذلك إن اختلف الشهود في الشهادة ، أو شهدوا بعد مدة ، أو رد الإمام المقر على نفسه فقال قد سهوتُ أو غلطتُ أو كذبتُ أو سرقتُ من داري أو دار من أخرجه من ملكي ، وما أشبه هذه الأمور .

ولا تقبل الشهادة بالزنى حتى يشهد أربعة من المسلمين بلا اختلاف ولا مرية على ما جاءت به السنة .

وكذلك السرقة لا يقطع فيها حتى يشهدوا أنه سرق ما تبلغ قيمته عشرة دراهم من حرزٍ .

فهذه جُمل ما أباح الله فيه القتال والقتل والحد وسفك الدم والجَلْد ، ولها فروع يطول ذكرها عما عرضناه في كتابنا وهي معروفة عند الفقهاء مسطورة في كتب العلماء .

وما سوى ذلك فهو داخل في قول الله : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ فخَلُّوا سبيلَهم**[1] ﴾ . وفي قول النبي ﷺ :

« أُمِرْتُ أنْ أُقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فإذا قالوها عصموا مِنّي دماءَهم وأموالهم إلا بحقها[2] » وهذه الأسباب والأبواب من حقوقها .

وفي قول النبي ﷺ « أنا أحَقُّ مَنْ وفى بذمته » لا يحل لإمام ولا لصاحب إمام شيء من أشعار أهل الملة والذمة تعضُّباً[3] ، إلا تأديباً وتثقيفاً .

ثم قيّد الإسلام القتلة والمثلة فحرّمها ، ليتق الله ملك قادر أو سلطان قاهر ، وليحذر أن تحمله قدرته الجزئية القليلة على

(١) آية ٥ التوبة .
(٢) رواه الستة وأحمد والدرامي .
(٣) تعضُّباً : استضعافاً (اللسان ـ عضب) .

ظلم الرعية ولؤم المقدرة والإشراف في المعاقبة وإذا دَعتْه قدرتُه إلى ظلم عباد الله فليذكر قدرة الله حيث يفارق ما هو فيه ويتعرى مما هو بسبيله ، ويرد على ما مهد لنفسه وقدّم لها أيام مهلته فعسى أن يكون قريباً .

وقد أغلظ الله الوعيد على قاتل النفس المؤمنة بغير حقها ، فقال : ﴿ ومَنْ يَقتُلْ مؤْمناً متعمّداً فجزاؤه جَهَنَمُ خالداً فيها وغَضِبَ اللهُ عليه ولَعَنَهُ وأعَدَّ له عذاباً عظيماً ﴾[1]

فهذا ما أوجب اللهُ في الدين من قتال الأعداء والمخالفين وقتْلِهم وقتل أهل الجنايات وتأديبهم . فإذا حقت الكلمة وظهرت العداوة ووجب في السياسة والشريعة منابذة بعض المخالفين أو مناجزتهم فالوجه أن يستعمل فيها ويستعان عليها بخصال عشر من خصال السياسة وتدابير المناجزة والمقارعة :

عشر خصال لمعالجة المخالفين

أولها : المداراة والمسالمة وعرض السلم والصلح على العدّو ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ولم يخفْ أن يزداد العدو بالمطاولة وفوراً وقوة وعَدَداً وعُدة ، ويهتدي إلى ما لم يهتد إليه من خديعة ومكيدة ، فقد قدّمنا أن ذلك من أدب الله - جل وعز - الذي أدب به نبيه ، وآياته التي أقامها في خلقه ، وأن في المناجزة الخطار[2] بالأملاك والمهج والأبدان والقُنيان ، وما منها إلا مضنون به ومشحوح عليه في العقل والدين ، وإلى حمايتها ما[3] يسعى العقلاء ، وإلى صيانتها ما يجري الملوك . فما وجد الملك إلى توقيها ومنعها سبيلاً ، وإلى فداء بعضها ببعض طريقاً فالوجه فيه أن يفعل .

ثم لا يجوز للعاقل أن يخاطر بشيء حتى يتيقن أنّ ما يخاطر له أجلّ مما يخاطر

---

(١) آية ٩٣ النساء .
(٢) الخطار : المخاطرة ، كدفاع ومدافعة وزنا واشتقاقاً .
(٣) ما : زائدة وكثيرا ما تأتي كذلك في كلام المؤلف .

به ، ولا يقدم على المحاربة والمقاتلة حتى يكون في أكثر رأيه أنه إن قاتل أو قتل نال به إحدى الثلاث من المحامد والمحاب أو عامتها أو أكثرها ، وانتفى به من أضدادها من المكاره والمثالب .

أولها ـ ثواب الله الذي أعدّه لأوليائه .

والثانية ـ تحصيل الملك الذي هو أجلّ مراتب الدنيا وأعلاها درجة ، الملك الذي هو مدبره وسائسه وحاميه وحارسه عليه ، وإن تركه زال عنه كله وقل طمعه في مثله .

والثالثة ـ محمدة تبقى على غابر الأيام يحيا بها ذكره ويطيب بها بعد فنائه نشره ، وإن تركها خاف لزوم عار وبقاء شنار في الأخلاق والأعقاب .

فإن الله ـ جل وعز ـ لما قرر في أنفس المتدينين أن عيش الجنة ونعيم الأبد أفضل من نعيم الأمد أضعافاً لا يحصيها إلا الله ـ حثهم[1] على الجود بأنفسهم وأموالهم في جنب ما يأملونه من عظيم ثواب الله الذي أعده لأوليائه وأهل طاعته ، فقال : ﴿ **إنَّ اللهَ اشتَرَى من المؤْمنين أنفسَهم وأَموالَهم بأَنّ لهم الجَنّةَ يُقاتِلون في سبيلِ الله فيَقْتُلونَ ويُقْتَلونَ وعْداً عليه حقّاً في التوراةِ والإِنجيلِ والقرآن**[2] ﴾ .

وكذلك القول في اصطفاء المحامد واقتناء الممادح وحسن الذكر وطيب النشر ، فقد قدّمنا من رغبة أولي العزم من رسل الله وأنبيائه عليهم السلام وذوي الفضل من أوليائه فيه بعد رفضهم الدنيا واستخفافهم بزخرفها وزبرجها[3] واحتقارهم لما فيها .

---

(١) خبر إن في قوله « فإن الله » .

(٢) آية ١١١ التوبة .

(٣) زبرج : بكسر الزاي والراء وتسكين الباء : الزينة وكل شيء حسن ، وهو غير الزبرجد الذي هو من الأحجار الكريمة .

وكذلك نفيا للعار الذي لم تزل أنفس الكرام تعافه وطبائع الفضلاء تأباه ، وذوو الهمم البعيدة والأنفس القوية ينفرون عنه ويحتالون في غسل أنفسهم منه ، ويجدون من العقل والحزم والكرم والفضل أن لا يشتروا حياة سريعة الفناء بعار طويل البقاء ، ولذة وشيكة الانقضاء بقبح أحدوثة تذكر على غابر الأيام وباقي الدهور والأعوام .

ولقد أوجز العبارة عنه[1] الحسن البصري حيث قال : إنما أنت أحاديث فان استطعت أن تكون حديثا حسنا فافعل .

وأحسن أرسطاطاليس في مواعظه للاسكندر حيث قال : واعمل على أنهم في عقبك وان مديحهم أطول عمرا منك .

وقد قال في ذلك بعض الجلّة من الملوك :

سأغسل عني العار بالسيف جالباً　　عليّ قضاء الله ما كان جالباً

وقد قال بعض المفرطين فيه[1] وهو الليث بن رافع بن الليث بن نصر بن سنان :

نارٌ ولا عارٌ فكن سيّداً　　فرّ من العار إلى النارِ

وقد قال فيه[1] الحسين بن علي ـ رضي الله عنه ـ فأنصف وأتى بما يشبهه :

الموت خير من ركوب العار　　والعار خير من دخول النار

وقال الزبير بن العوام حين ولى عن أمير المؤمنين علي بعد مناظرته إياه وقيام الحجة عليه :

تركُ الأمورِ التي يخشى عواقبها　　للهِ أَرْوَحُ في دُنيا وفي دين
آثرتُ عاراً على نارٍ مؤجَّجةٍ　　أنى يقوم لها خَلْقٌ من الطين

(١) الضمير يعود على نفي العار الذي ذكر في أول الصفحة

وهذا هو حد الإنصاف في هذا الباب ، إذ ليس ينبغي أن يكون شيء أشد على المتدين الموقن من عذاب النار ثم لا يكون شيء من مصائب الدنيا عليه أشد من ركوب العار .

ولا يحتمل العار في موضع من المواضع ولشيء من الأشياء إلا عند مخافة عذاب النار . وما أقبح ما هجا به من[1] يقول :

وكنْتَ إذا حَلَلْتَ بدار قوم   رحَلْتَ بخزية وتركْتَ عاراً

والشعر الحسن والحديث الجيد في هذا الباب كثير ، وفيما ذكرنا ما يبين عن الغرض ويوضح عن محض الحق .

الانذار

والثانية[2] ـ تقديم الوعيد والإيعاد والتحذير والإنذار ، وإقامة الحجة وإبلاغ المعذرة ، فقد ذكرنا أن ذلك من أدب الله الذي أدب به عباده ، وسننه التي استعملها فيهم ، فإنه بعدما ابتدأهم به من الإفضال والإنعام والمنن الجسام ، ودعاهم إلى ما هو أكثر منه وأفضل وأبقى وأجزل ، ثم أراهم دلائله وأحضرهم شواهده ، حذّرهم وأنذرهم ، ووعدهم وأوعدهم بالكتب الواضحة والأعلام اللائحة والأنبياء المرسلين والأئمة الراشدين المهديين .

ثم أمهلهم المدة التي يمكن فيها التذكير والتفكير ، وتنقطع فيها مواد المعاذير ، كما ذكر ـ جل وعز ـ ذلك في كتابه حيث يقول : ﴿ **بل الإِنسانُ على نفْسِه بصيرةٌ . ولو أَلْقَى مَعاذيرَه**[3] ﴾ .

وقال : ﴿ **أفلا يَنْظُرون إلى الإبلِ كيف خُلِقتْ وإلى السماءِ كيف**

(١) هو جرير يهجو الفرزدق .
(٢) من الخصال العشر من خصال السياسة وتدابير المناجزة والمقارعة .
(٣) الأيتان ١٤ و ١٥ القيامة .

رُفِعَتْ و إلى الجبال كيف نُصِبَتْ و إلى الأرض كيف سُطِحتْ فذَكِّرْ إنما أنت مُذكِّرٌ[1] ﴾ .

في آيات كثيرة ذكّرهم بها ما يلزمهم من حجج العقول التي إن فكروا فيها عرفوا الله وأوجبوا شكره عليهم .

ثم قال : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ لئلا يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسُلِ[2] ﴾ .

وقال : ﴿ ولو أنَّا أَهلكْناهم بعذاب مِن قَبْلِه لقالوا ربَّنا لولا أَرْسلْتَ إلينا رسولاً فنتَّبعَ آياتِك مِنْ قبْلِ أنْ نَذِلَّ ونَخْزَى[3] ﴾ .

وقال : ﴿ أَو لم نُعمِّرْكم ما يتَذَكَّرُ فيه مَنْ تَذَكَّرَ وجاءَكم النذيرُ[4] ﴾ .

فقطع من جميع الوجوه عذرهم وألزمهم في كل ذلك وِزْرهم ثم قال النبي ﷺ إن الله بعثني بين يدي الساعة رحمة لمن تبعني وحجة على مَن خالفني[5] .

ثم إن ذلك لم يزل من عادة الملوك الحزمة والأئمة الكملة فكم من جيش مجتمع قد شتت جمعهم ظهورُ الحجة عليهم ، وفرق بين نيّاتهم وعزائمهم انقلاب الدلائل عليهم ، وأضعف مُنتّهم[6] بيان باطلهم لهم .

وكم من خطيب مِصْقَع وبليغ مُفَوَّه صوّر الباطل عند أصحابه في صورة

---

(١) الآيات من ١٧ الى ٢١ الغاشية .
(٢) آية ١٦٥ النساء .
(٣) آية ١٣٤ طه .
(٤) آية ٣٧ فاطر
(٥) رواه البخاري ومسلم بلفظ : بعثت أنا والساعة كهاتين .
(٦) المنة : بضم الميم ، القوة .

الحق وأراهم الشبهة في لباس الحجة ، فاستغواهم حتى قاتلوا وهم عند أنفسهم مُحِقُّون ، فكان فيه هلاكهم .

ولذلك ما قال أرسطاطاليس للاسكندر : اذكر احتجاجك عليهم من كتبك ، ودَعْ من كتبهم ما يجب ستره من العامة .

وقد قال الله - تبارك وتعالى : ﴿ **يأيها النبيُّ حَرِّضِ المؤْمنين على القتالِ** ﴾ . (١)

ولن يُؤَيَّد صاحب جيش وقائد عسكر بصابر أصحابه ولن يُقَوّى منهم بشيء هو أحرى وأوْلى ببلوغ الغاية منهم - من أن يريهم أن حجة الله معهم ، ويقرر عندهم أنهم إن قَتَلوا أُجِروا وأثيبوا ، وإن قُتِلوا انقلبوا إلى خير مما بهم منقلباً وأحسن مما يؤملونه مكتسباً .

وكذلك فعل أمير المؤمنين [عليٌّ] في حروبه ووقائعه ، فما فرّق بين طلحة والزبير وبين عسكرهما إلا بالحجة والمناظرة . وكذلك فعل بالخوارج حتى خالف بين كلمتهم وفرّق بين آرائهم وشتت بين المجتمِع من أهوائهم وغَلَبَهَم .

ومن جهتها احتال معاوية حين أحسّ مِن أصحابه بالوهن والضعف حيث رفع المصاحف على أطراف القنا ودعا إلى كتاب الله الذي كان يدعى إليه فيأبى .

وهذا باب لو أخذنا نتتبع ما يحضرنا منه لطال الكتاب .

اليقظة وترك اللهو

والثالثة - هي استعمال اليقظة وترك التناوم والغفلة والاشتغال باللذات والملاهي والملاعب والمطارب ما لم يفرغ من الحرب وما يشغله من هذه الأمور .

ولا يرضى حتى يجعل على العدو في كل أحواله عيوناً راقبة وآذاناً واعية ، فإنه

---

(١) آية ٦٥ الأنفال .

يجمع بذلك خصالاً جليلة هي أزمّة تدابير الحروب :

منها أن يطلع على ما يحدثه العدو من مكيدة أو يضمره من خديعة أو يجمعه من مبايته ، فيأخذ من ذلك حذره ويعدّ له عُدته ، فلا ينال منه غِرة ولا يصاب منه غفلة ، فيهلك .

ومنها أن ينتهز منه الفرصة ويراقب منهم النهزة ، فإن ذلك أبلغ ما يستعمله المحارب في حروبه ، فإن الفرص تمر مَرّ السحاب وقلّ ما فات منها فائت فأُدْرِكَ على غابر الأيام ، وربما ضيع منها شيئاً فمات عليه حسرة .

وفي كتب الأولين : من استمكن من الجسيم فأضاعه لم ينلْه بعدُ ، ومن طلب فرصة فأمكنته فتركها فاته العمل ولم ترجع إليه الفرصة .

وفيما كتب ارسطاطاليس إلى الاسكندر : افترصْ من عدوّك الفرصة واعلم أن الدنيا دُوَل .

ومن بليغ الهجاء قول القائل :

وعاجِــز الــرأي مِضيــاعٌ لفرصته حتــى إذا فات أَمْــرٌ عاتــب القَدَرا

ومنها أن يقف على عدد العدو وعُدته وآلته التي حذق باستعمالها في حروبه من رمي أو طعن أو ضرب أو هذّ[1] فإنما هي جماع آلات الحروب . فمن العدو مَن الغالبُ عليه الطعن بالرماح والرايات والمزاريق والزوبينات[2] .ومنهم من الغالب عليه الضرب بالسيوف . ومنهم من الغالب عليه الكسر والهدّ بالعصي والأحجار ،

(١) الهذ : القطع السريع .
(٢) المزاريق : جمع مزراق وهو الرمح القصير .
(٣) الزوبينات: هكذا في الأصل ولم اعثر على المراد بها . والفعل زَبنَ بمعنى دفع يقال زبنت الناقة ولدها عن ضرعها اي دفعته . اللسان .

وهو الأمر الطبيعي الذي ربما يستعمله كثير من خرس الحيوان والناس في كثير من الأحياء والبلدان .

ومنها أن يقف على رسوم العدوّ في وقائعهم ، فمن الأعداء مَنْ رسمه في ذلك المغالبة بحملة أو حملتين وثلاث ثم يولي إذا لم ينقد له ما يريد . ومنهم من يغلب بالثبات والصبر على المكان حتى يعيا عدوّه بكثرة الحملات ويتعب بالحركات ثم يحمل عليه وادعاً مستريحاً . ومنهم من يفعل ذلك بالكمين والغدر وصنوف المعاني التي يخرجها والبدع التي يبتدعها في الحرب ، والكراديس التي يقيمها ، والمصاف التي يصفها .

فإذا وقف صاحب الجيش على ذلك من عدوّه أعد لكل باب من ذلك عُدّته وأخذ له أهبته وتهيأ له أن يبتدع عليه عند الوقعة بدعة لعله لا يعرفها فيكون ذلك أحد أسباب الغلبة ، فإن القليل من البدعة يدهش ويحيرّ ويرعب ويهول .

وبلغنا أن ملوك الأعاجم كانت سيرتهم أو سيرة عامتهم إذا دهمهم أمر جليل وظهر لهم عدوّ قوي أمروا بالموائد التي كانت توضع لهم فترفع وظائفها ، واقتصرت على مائدة ، ويحضرها ثلاثة : الموبذان[1] وموبذ والدبيريد بدو وزير الحرب ، ولا يوضع عليها إلا الخبز والبقل والخل والملح ، فيأكل منه شيئاً ومن معه ، ثم يأتيه الخباز بالزُّماوَرْد[2] فيأكل منه شيئاً ، ثم ترفع المائدة ، واشتغل الملك بتدبير حربه وتجهيز سراياه وجنوده ، فلا يزال هذا حاله حتى يفتح عليه ويرتق فتقه ويأتيه من النصر ما يحبه . فإذا أتاه ذلك أمر بإعادة الموائد إلى حالتها والمراتب عليها على ما كانت عليه .

وكانوا يقولون : من حق النعمة أن يرى أثرها ويؤدي شكرها .

---

(١) الموبذان كبير رجال النار عند المجوس ، والموبذ : أحد رجال النار . والدبيريد بدو : فسره المؤلف بأنه وزير الحرب .

(٢) الزُّماوَرْد : الرقاق المحشو باللحم ، وهو معرب، وتسميه العامة بزماورد (اللسان ـ متك) .

وكذلك حكي عن غير واحد من الملوك الإسلاميين ، فحكي عن معاوية أنه كان يقول : ما ذقتُ أيام صِفّين لحماً ولا شحماً ولا حلواً ولا حامضاً ، ما كان إلا الخبز والجبن وجريش الملح حتى نصر الله وليه وخذل عدوه .

وحكي عن مروان بن محمد أنه أقام ثلاثين شهراً لا يطأ جارية حتى قُتل . وكان إذا استهدفت له جارية يقول : إليك عني فوالله لا دنتْ مني ولا حللت لها عقداً وخراسان ترجف بنصر بن سيار وأبو[1] مجرم قد أخذ منه بالمخنق .

ولذلك ما قالوا : إن احزم بيت قالته العرب قول القائل :[2]

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم دُونَ النساءِ ولو باتت بأطهارِ

تعهد العسكر

والرابعة ـ هي أن يتعهد أمر عسكره في الحل والترحال والإنهاض والإنزال ، ومن محكم التدبير في ذلك أن لا ينزل عسكره إلا في أحسن المواقع وأوثقها وأخفها لمؤنهم وأرفقها بهم في نقل العلوفة والماء والسقي والاستسقاء ، وأنزهها بقعة وأوسعها رقعة ، فإن لكل شيء من هذه المعاني نفعاً بيّناً وعوناً ظاهراً ، فإن لم يتفق هذا فأحصنها وأرفقها بهم في ابتياع حوائجهم ووجود ما لا بدّ لهم منه من مرافقهم . فإن لم يتفق فأرفقها بهم ، فإن الملك الشهم حصن من لا حصن له .

وفي تفرق الجيوش في طلب الحوائج واضطرارهم إليها شقٌّ عظيم وضرر جسيم ، فإذا دبر ذلك فالتدبير في إنزال العسكر أن يتعهد منه خِلالاً عدة :

منها أن لا ينزل منزلاً ولا ينيخ بمعسكر حتى يعرف طرقه ومناهجه وسبله ومبايته كلها حتى لا يخفى عليه شيء منها .

والثانية ـ أن يأمر بضرب أخبيتهم وفساطيطهم متلاصقة متدانية متشابكة

---

(١) ابو مجرم : هكذا في الأصل ويبدو أن المراد أبو مسلم أي الخراساني داعية العباسيين بخراسان ضد الأمويين

(٢) هو الأخطل ، وهو في ديوانه ٨٤ وفي المغني ١/ ٢٩٢ .

الأطناب والأوتاد ، ويصفّها صفاً يشبه شكله شكل مدينة مجتمعة البنيان عامرة السور والحيطان ، وأوثقها أن تكون مدورة الشكل أو ما يقرب من الدائرة ، ويجعل ابوابها أقل ما يحتمل حال ذلك العسكر في مقداره وعدده من واحد أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة منها ، وإليها يدخل ويخرج من أراد الدخول والخروج .

والثالثة ـ أن يقيم لها سوقاً يجدون فيه عامّة ما لا بدّ لهم منه من مرافقهم وحوائجهم ، ويتقدم إليهم في إنصاف أهل السوق وتحقيق معاملتهم ، وينهى عن معاسرتهم[1] ومضايقتهم والحيف عليهم في المعاملة والمبايعة ليرغب فيه أهل الصناعة فيعمر سوقهم ويكون للعسكر فيه رفق كثير وخير عظيم .

والرابعة ـ أن يرتب على كل باب من أبواب المعسكر قائداً جَلْداً ورجلاً شهماً يكون في عدة من أصحابه وجماعة لهم شوكة تكون حفظة الأبواب والموكلين بعهدتها وضبطها .

وخامسة ـ أن يأمر بحفر خندق يحيط بمعسكره أو على أبوابه ، على مقدار ما يوجبه الحال من الاحتياط ، ولاسيا إذا كان العدو قريباً والمقام طويلاً .

وسادسة ـ وهي أن يتقدم إلى أهل معسكره بالتزام الأسلحة في كل حال حتى يكونوا كأنهم قد أظلهم العدو واضطرهم للمقارعة والمدافعة .

وسابعة ـ أن يبث طلائعه في الطرق التي يتوهم منها مفاجأة العدو نائياً ودانياً ، ويرسم لذلك غير واحد من جَلْدة[2] أصحابه ومتيقظيهم يتناوبون ويطوفون عليهم ويأمرونهم بالتزام الأسلحة وأخذ الأهبة .

وثامنة ـ هي أن ينزل خاصّته الذين يعوّل على دفاعهم عنه ووزراءه الذين

---

(١) المعاسرة : المعاملة بعسر وسوء .

(٢) جَلْدة : جمع جَلْد وهم الأشداء الأقوياء .

يعتمدون في الإشارة عليه ـ قريباً منه وبحيث إذا دعاهم أجابوه وإن أرادهم بلغوا إليه وجاءوه في أقرب مدة وأوحى[1] لمعة ، وإن فاجأهم أمر كانوا أقرب الناس منه .

وتاسعة ـ أن ينهى أهل العسكر عن إنشاء فسْقٍ أو فجور أو شرب أو سكر ، فإن فيه فساداً كثيراً قد أتينا على ذكر بعضه فيما تقدم من كتابنا وسبق من كلامنا ، وحكينا عن غيرنا وخبرنا أن ذلك من علامات البوار والهلاك وأمارات الزوال .

وعاشرة ـ هي من تمام الحزم في هذا الباب ، وهي أن لا ينزل الملك حتى ينزل أهل عسكره ، ويطوف حوالي عسكره فيأمر بسد ما يراه من الخلل ، ورمّ[2] ما يشاهده من الثلم وإصلاح ما يجب إصلاحه . فإن لم يقع ذلك منه كذلك فليوكل الأمين الثقة الذي يقوم مقامه ويكون مكانه ويسدّ مسدّه من اليقظة والشفقة والرأي والشهامة والمعرفة والتجربة .

وكذلك القول في الترحال فإن من تمام الحزم فيه أن يسير بهم على حالة يصلح أن يلقوا فيها العدو ويناجزوه فيها اللقاء من العتاد والعدة وأخذ السلاح والأهبة ، ويجعل على مقدمته من يصلح أن يكون عند اللقاء ويوم الوقعة ، وكذلك على ساقته . ويكون بين يديه ووراءه من يصلح أن يكونوا معه في القلب عند القراع والحرب . ويكون في اقباله عدد يمكنهم الدفع والمنع إن دهمهم أمر أو عرض لهم عارض .

وأن تكون جنده وجماعته متفقة غير مختلفة ، ومجتمعة غير متفرقة .

وأن يقارب بين مراحله ما أمكنه ، فإن ذلك أبلغ في جمامهم[3] وأقرب من تقوية أبدانهم ودوابهم ، وأدل على استخفافهم بعدوّهم ، وأشبه بآداب الله التي

---

(١) أوحى لمعة : أي أسرع إشارة خفية .
(٢) الرم : الإصلاح ، ومنه ترميم البناء أي إصلاحه .
(٣) الجمام : الراحة .

أدّب بها خلقه وأجرى عليه تدبيره .

فهذه خلال من تعهدها رجوت أن يكون قد أدّى حق الحل والترحال في عسكره ، وأخذ بالثقة والاحتياط لجنده وجماعته .

قياس قوة الأمة بما عند عدوها

والخامسة -[1] أن يقايس بينه وبين عدوه في أربعة أشياء قد ذكرها العلماء بالحرب في مواضع كثيرة من الكتب الحديثة والقديمة ، وهي المكان والأمة والعدد والعُدة .

أما الأمة فمعناه أن بعض أمم الناس أشجع من بعض وأكثر ممارسة للحروب ودربة بالوقائع ، وأكثر ظفراً بمساعدة الدول في بعض الزمان .

ولذلك ما حكي في سير العجم أن ملوكهم كانوا إذا أنفذوا جيشاً إلى الهند انفذوا بإزاء كل رجلين رجلاً ، وإذا أنفذوا إلى الترك انفذوا بإزاء كل رجل رجلاً ، وإذا انفذوا إلى الديلم انفذوا إلى كل رجل رجلين . فكان مقدار الرجل من الديلم عندهم مقدار أربعة من الهند .

وقد أمر الله الرجل من المؤمنين لما تكفل بنصرهم وامدادهم وتفرد بتأييدهم - بأن يخرج إلى كل عشرة من المشركين رجل واحد ، فقال : ﴿ **إن يكُنْ مِنكم عشرون صابرون يَغْلِبوا مائتين وإن يكُنْ منكم مائةٌ يغلِبوا ألْفاً مِن الذين كَفَروا** ﴾ .[2]

ووعدهم النصر والغلبة على ذلك ، فلما كان من المؤمنين من جزع من ذلك وضعُف قلبه ولم يف بالشرط الذي شرطه الله عليه من الصبر لقلة جرْي العادة به خفف ذلك عنهم وأمرهم أن يبرز إلى كل رجلين رجلٌ منهم ففعلوا .

---

(١) الخامسة من الخصال العشر التي هي من خصال السياسة .
(٢) آية ٦٥ الأنفال .

وقد كان من المؤمنين من انتصر بالدين وبالنبي ﷺ قبل ذلك وبعده ، فبرز الرجل منهم إلى عشرة من المشركين فغلبوا وهزموا ونصروا وانتقموا .

وقد كان في أول خروج النبي ﷺ واقعة بكر بن وائل وهم أربعة آلاف على ما جاءت به الآثار ، والعجم ستون ألفاً ، فغلبوا وقتلوا هامون زعيمهم .

وكان المسلمون يوم القادسية ـ وهو اعظم يوم بين العرب والعجم ـ اثني عشر ألفاً ، والعجم على ما جاءت به الكتب ثمانون ألفاً ، وهم أشد الأعداء ، فغلبوهم وهزموهم وقتلوا رستم وكان في ذلك اليوم ملكهم وزعيمهم ، وهم أولو البأس الشديد الذي ذكر الله في القرآن على ما جاءت به التفاسير .

فأما الروم فقد اتفق غير مرة أن لقي الفئةُ القليلةُ من المؤمنين الفئة الكثيرة منهم فغلبوا وظفروا ، إلاّ أن هذا ليس في القياس ولا في العام ، ولكن وعد من الله ـ جل وعز ـ لرسوله وللمؤمنين انجزه لهم حيث يقول : ﴿ **هو الذي أَرْسَلَ رسولَه بالهُدَى ودِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كلّه ولو كَرِه المشركونَ** ﴾ .(١)

ويقول : ﴿ **وجَعَلَ كلمةَ الذين كَفَروا السفلَى وكلمةُ اللهِ هي العُلْيا** ﴾ .(٢)

وأما المكان فإن بعض الأمكنة والملاجيء أحصن واصعب من بعض ، وقد اتفق غير مرة أنْ مَنَعَ ودفَعَ العددُ القليلُ الجيشَ العظيم عن انفسهم بحصانة المعقل ووثاقة أركان الموئل من عمارات طبيعية ، فلم يتهيأ للجيش العظيم فيهم شيء .

ولقد بلغني أن أحد أصحاب الجيوش المحدثين في عصرنا هذا نازله العدو

---

(١) آية ٣٣ التوبة .
(٢) آية ٤٠ التوبة .

وحاذاه في أضعاف عدده ، وكان معسكره يحاذي عين الشمس من مشرقها إذا طلعت ، وعسكر عدوه يدابرها ، فأمر صاحبه أن يبادر العدو بتعبئة الجيوش وتحويلهم إلى موضع تدابرهم عين الشمس إذا طلعت ، ففعل ذلك ، فاضطر العدو إلى التحول عن مكانه ومقابلة قرص الشمس بعيونهم ، ثم ركب وواقف القوم حتى بزغت الشمس في وجوههم ، ثم حمل عليهم وجالدهم ، فكان ذلك أحد أسباب ظفره بهم .

وكذلك فقد ظهر غير واحد من العساكر بالمكامن [بأرض] فيها من الكمين ما لم يتهيأ لصاحبه ، فكان ذلك سبب غلبته .

وكان منهم من احتال للسبق إلى ماء نهر كان بينهما فأخذه على العدو فأعطشه ، فكان ذلك سبب هلاكه .

فيجب على الملك السائس أن يعرف أمور الأمكنة التي يلاقي فيها عدوه ، فإن الأمر في ذلك عظيم ، والخطب فيه جليل .

فإن كان مكان العدو أصعب من مكانه وأمنع احتال في جذبه عنه وإخراجه منه بحيلة أو مكيدة ليصير بحيث يتهيأ له موازاته في المكان ، فإن لم يكن ذلك بالمسارعة فبالمطاولة حتى يضطره بالمجاعة وسد الطرق عنه إلى الانقياد للصلح والسلم والطاعة بوجوه كثيرة من الحيل .

فإن لم يكن شيء من ذلك فترْكُ المناجزة خير من ركوب الغرر وتسليم النفس والعسكر للعطب والقاء النفس في التهلكة .

وأما العدد والعُدة فإنه لا يجب أن يقاتل العددُ القليلُ العددَ الكثيرَ من جنسه وأمته الذي لم تجر العادة أن يغلب مثله بمثله ، وكذلك لا يجب أن يقاتل العراةُ

العزلُ الدارعينَ[1] المستلئمين إلا عند انتهاز فرصة أو مصادفة غِرّة ، وإلا كانَ القتال قتال غرر وتهوُّر ، إن غلب لم يُحمد ولم يُشكر ، وإن غُلب لم يُعذر ولم يُؤجر ، فإن الله قد نهى عن الإلقاء في التهلكة .

ولم تزل الملوك الحزمة تذم هذه الخلة وتعدّها تهوّراً لا تجلّداً ، وتجاهلا لا تيقّظاً . وما أحسن ما قال فيه عبد الله بن طاهر حيث يقول :

ركوبُكَ الهوْلَ ما لم تَبْدُ فُرْصتُه ... جهلٌ وأمرك بالإقدام تغريرُ
فكن مصيباً وخذ بالحزم مأثرةً ... فلن يُذَمَّ لأهل الحزم تدبيرُ
فإنْ ظَفِرْتَ بجهل ثم فزْتَ به ... قالوا جهولٌ أعانَتْه المقاديرُ
وإن ظَفِرْتَ بعزم أو هلكْتَ به ... فأنت عند ذوي الألباب معذور
أنْكِدْ بدنيا ينال المخطئون بها ... حَظَّ المصيبين والمغرورُ مغرور

فهذه الخلال[2] الأربع التي ذكرنا أنه يجب أن يقايس بها بينه وبين عدوّه ، ويراقبها من محاربه .

كتمان السر

والسادسة من هذه الخصال ـ تحصين الأسرار من أن يقف العدو منه على مثل ما ذكرت أنه يجب[3] أن يقف عليها منه ، فإنه لا شيء أبلغ في تنفيذ الحيل وأعون على بلوغ الفرص من كتمان السر ، والملوك أحوج الناس إلى ذلك وأولاهم بالضن به والشح عليه .

وقد ذكرنا أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفراً ورى بغيره . وكان يقول : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود .

---

(١) الدارعين المستلئمين أي لابسي الدروع وعدة الحرب .
(٢) الخلال الأربع هي المكان والأمة والعدد والعدة ، وقد ذكرها في أول الخصلة الخامسة من الخصال العشر .
(٣) أي ألاّ يعرف العدو من أسرار الملك ما يجب أن يعرفه الملك من أسرار العدوّ .

وقال أرسطاطاليس : أيّ ملك جاوز سرُّه وزيره فهو في حد ضعيفي السوقة .

وقد ذكرنا ما في هذه الخلّة من الفضل والحزم فيما تقدم من كتابنا .

والسابعة ـ أن يقدّم الحيلة على القوة فقديماً ما قيل إن الحيلة أبلغ من القوة . وهي خاصة الإنسان لأن الله إنما فضّله بالعقل وخصّه بالتمييز إبانة له عن سائر الحيوان المباشر بالأبدان من البهائم الراعية والسباع الضارية ، فكل ما بعد عن المباشرة من الفتوح كان أروح وأحسن وأهنأ وأزين .

وقد قال النبي ﷺ «الحرب خدعة» .[1]

الحيل والخداع

وقال أمير المؤمنين عليّ : مهما حدثتكم بشيء عن رسول الله فلأن أخِرّ من السماء أحب إليّ من أن اكذب على رسول الله ومهما حدثتكم بشيء فإن الحرب خدعة .

وكتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر : لا تطلب الغلبة بالمباشرة ولكن بالمكايدة ، استعمل المكايد فإنّ فتوحها اهنأ الفتوح وأسلمها .

وفي حكم الأولين عن بعض الملوك المتقدمين : صرعة اللين بالمكر والحيلة أبلغ من صرعة الشدة بالمكابرة ، كالماء بلينه وبرده يتغلغل إلى عروق الشجر فيضبط أصلها ، والنار بحدّتها وحرّها لا تحرق إلا ما فوق الأرض .

وقالوا النجد إذا اجتهد قتل عشرة ، والمدبِّر بحيلته يهلك العسكر بأسره .

قالوا : وأهدى ملك الروم إلى هارون الرشيد هدايا فيها سيوف مكتوب على سيف منها أيها المقاتل احْتَلْ تغنم ولا تفكر في العاقبة فتهزم . وعلى الثاني إذا لم يصل سيفك فصِلْه بإلقاء خوفك .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم

ومما وجد في دفائن الأولين وكنوز الملوك المتقدمين : ثلاث تبطل مع ثلاث ، الشدة مع الحيلة ، والعجلة مع التأني ، والإسراف مع القصد .

قالوا ووجد حجر مكتوب عليه بالحميرية أيها الشديد احذر الحيلة ، أيها العجول احذر المتأني .

قال وأوصى حكيم مسلكاً أراد سفراً فقال : إجعل تأنيّك زمام عجلتك ، وحيلتك رسول شِدّتك ، وعَفْوَكَ مالِكَ قُدْرتك .

قالوا وكانت ملوك الأعاجم تقول : ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيلة ، فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال ، والنفقة في الحروب إنما هي من الأنفس ، فإن كان للحيل عاقبة محمودة فذلك بسعادة الملك إذ ربح ماله وحقن دماء جيوشه ، وإن اعيت المكايدة والحيل كانت المحاربة من وراء ذلك .

وللملوك العجم في هذا تدبير وتقدم على سائر الملوك ولذلك ما كتب ارسطاطاليس إلى الاسكندر : احذر مكايد الفرس فإن المُلْك فيهم منذ دهر غير قصير .

اختيار الرسل إلى العدو

والثامنة ـ أن يتفقد أمر رسله وكتبه إلى العدوّ فلا يرسل إلاّ من يرضى أن يكون صورته الممثلة عند عدوه ، ولسانه الناطق بحضرته ، فلا يختار لرسالته إلا رائع المنظر كامل المخبر ، صحيح العقل حاضر البديهة ذكي الفطنة فصيح اللهجة جيد العبارة ، ظاهر النصيحة ، موثوقاً بدينه وأمانته ، مجرباً منه حسن الاستماع والتأدية ، كتوماً للأسرار ، عفيفاً عن الأطماع ، غير منهمك في الفواحش والسكر والشرب ، فإن في كل هذه الخِلال عوائد يعود نفعها على المِلِك والمملكة إذا وجدت في الرسول . وفي أضدادها ضرر عليهما .

واختيار الرسل على ما بينا اولا مأخوذ عن الله ـ جل وعز ـ لأن الله لم يبعث

رسولاً من الملائكة إلاّ أفضلهم ، ومن الأنس إلاّ الفاضل المختار الذي يستجمع عامّة هذه الخلال وأضعافها من الفضائل والمناقب .

وجملته أن الله لم يبعث مهتوكاً ولا فاسقاً ولا ضنيناً ولا ماجناً ولا متهماً ، بل اختار لكل رسالة أفضل أهل زمانه وآمنهم وأعفهم وأقواهم قلباً وأصبرهم نفساً وأكرمهم خلقاً . كما أقسم بخلُق نبّيه فقال : ﴿ وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ[1] ﴾ .

وبذلك جرت السنّة من النبي ﷺ في اختيار الرسل من نخبة أصحابه وبني عمومته وقرابته .

وكان للملوك الأولين من العرب والعجم في هذا الباب استقصاء عجيب ونظر دقيق وامتحان كبير ؛ فقد حكي عن أردشير أنه كان يقول : كم من دم قد سفكه الرسول بغير حِلّه ، وكم من جيوش قد قتلتْ وعساكر قد هزمتْ وحرمة قد انتهكت وعهد قد نُقِض بخيانة الرسول وأكاذيبه . وكان يقول : على الملك إذا وجّه رسولاً أن يردفه بآخر ، فإنْ وجّه رسولين اتبعهما باثنين ، وإن أمكنه أنْ لا يجمع بين رسولين في طريق فلا يلتقيان ولا يتعارفان فيتواطآن فعل .

ثم عليه إن أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملِك في خير أو شر ـ أن لا يحدث فيه حدثاً حتى يكتب إليه مع رسول آخر يحكي له كتابه أوّلاً ، حرفاً حرفاً ومعنى معنى ، فإن الرسول ربما حُرِم ما أمّل فافتعل على الملك وحرّض المرسِل على المرسَل إليه وأغراه به وكذب عليه .

ولقد بلغنا عن الاسكندر أنه وجّه رسولاً إلى بعض ملوك المشرق برسالة شك الاسكندر في حرف منها ، فقال له ويحك إن أبواب الملوك لا تخلو من مقوّم ومسدد

(١) آية ٤ القلم .

إذا مالت ، وقد جئتني برسالة صحيحة الألفاظ بيِّنه العبارة غير أن فيها حرفاً ينقضها ، أفعلى يقين أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه ؟

فقال الرسول : بل على يقين أنه قاله . فأمر الأسكندر أن تكتب الفاظه حرفاً حرفاً ويعاد إلى الملك مع رسول آخر فيقرأ عليه ويترجم له ؛ فلما قرىء على الملك مرّ بذلك الحرف فأنكره ، فقال للمترجم : ضع يدي على هذا الحرف فوضعها ، فأمر بقطع ذلك الحرف بسكين فقطع ، وكتب الى الاسكندر : إن أُس المملكة صحة فطنة الملِك ، وأُس الملِك صحة لهجة رسوله إذ كان عن لسانه ينطق وإلى أذنه يؤدي ، وقد قطعت بسكيني ما لم يكن من كلامي إذ لم أجد إلى قطع لسان رسولك سبيلاً .

فلما جاء الرسول إلى الاسكندر دعا رسوله الأول فقال : ما حملك على كلمة أردتَ بها فساد مُلكي ؟ فأقرّ الرسول إن ذلك لتقصير رآه من الموجَّه إليه ، فقال الاسكندر : فأراك لنفسك سعيتَ لا لنا ، فلما فاتك بعض ما أمَّلْتَ أشعلْتَ ناراً في الأنفس الخطيرة الرفيعة ، فأمر بلسانه فنزع من قفاه .

وقد كان من الملوك الأولين من يرسل على رسله العيون ثم يقابل ما يأتي به العيون بما تأتي به الرسل ، فإن وجد بينهما خللاً عاقبَ المرسَل . وهذا باب عظيم نفعه ، كبير ضرره .

الاعتماد على القادة المخلصين

والتاسعة ـ أنه ما وجد الملكُ إلى إنفاذ السريّة وتوجيه جيش يتولى عنه اللقاء ويكفيه الحرب سبيلاً ـ فلا ينبغي له أن يلقى حرباً بنفسه ، لأن كل فائت مع بقاء الملك في قرار مُلكِه مرجوٌّ تداركه ، وكل ذاهب سواه مؤمل تلافيه .

ولم تزل هذه العادة من سُنن الملوك المتقدمين والأنبياء المرسلين والخلفاء الراشدين .

فقد كان النبي ﷺ بعدما قوي شأنه وكشف جمعه وأعوانه يعوّل على هذا الباب ، وكان يبعث رجالاً من أصحابه على سرايا معروفة ، مثل خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وعمرو بن العاص ، وخرج من الدنيا وكان قد أمر أسامة بن زيد على جيش ، فكان يجود بنفسه عليه السلام ويقول : أنفِذوا جيش أسامة .

وكذلك فعل أبو بكر وعمر وعثمان رحمهم الله .

وباشر أمير المؤمنين عليٌّ ـ رحمه الله ـ الحروب والوقائع بنفسه فلم يتم له ما أراد .

واعتاد ذلك اكثر الملوك والخلفاء مِن بعدهم ، فأضر الأفراط فيه بكثير منهم ، وبهذا كان امير المؤمنين عليٌّ أشار على عمر رحمهما الله حيث أستشاره في المسير إلى العدوّ ، إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك لم يكن للمسلمين طائفة دون أقصى بلادهم ، وليس بعدك من جمع يرجعون إليه ، ومتى تعلم العجم أنك المتولي لقتالهم بنفسك يكن ذلك أشد لشوكتهم واحتشادهم طمعاً في أنك إن نُكيْتَ لم يكن وراءك غاية ولا للمسلمين فئة .

ولقد كتب ارسطاطاليس بذلك إلى الاسكندر : إياك واللقاء ببدنك فإنك إن سلمْتَ كنت مخطئاً مخاطراً ، وإن ظُفِر بك كنت قتيل خرق . وقال : لا تلق حرباً إن قدرْت وإن ضعُف محاربُك .

فإن لم يتهيأ له ذلك وأعياه كل هذه المقدمات ولم ير وجهاً دون اللقاء ببدنه فوجه الصواب أن يستعين على اللقاء بسبع خلال :

أولها ـ أن يكون متوكلاً على الله ومتبرئاً إليه من الحول والقوة إلاّ به ، وأن لا يقاتل إلاّ وهو عند نفسه محقّ متقرب إلى الله متيقن أنه إن فاته جميع ما هو فيه من بدنه وأملاكه وفتيانه فإنه يستعيض منه ما هو أجل قدراً وأعظم خطراً ، ويقرر ذلك لأصحابه عند تحريضهم على القتال وحثهم على اللقاء .

والثانية ـ تأليف أصحابه وجمع كلمتهم على معاونته بالبذل والإحسان قديماً ، والوعد والأطماع حديثاً ، وتوفير الأرزاق والعطايا وإقامة الجرايات والوظائف في الحال ، فإن لقاء العدو بقلوب مختلفة وأيد متعادية وآراء متباينة وأهواء متفرقة صعب شديد ، واغترار عتيد ، وقل ما يسْلَم معه جيش ويظفر به ملك .

والثالثة ـ إن يستعد للقاء بأوفر عُدة ، ويتخذ له أتمّ أهبة وأجمع آلة يستعان بها على مثل تلك الحال ؛ فإن أحوال اللقاء تختلف في المكان والجنس والوقت ، على ما بيّنا منه أطرافاً ، فلا يدع شيئاً مما فيه الحزم إلاّ جمعه واستوثق به واحتاط من جهته .

والرابعة ـ أن يجعل شُغله وشغل وزرائه مطالعة الفئتين ومراقبة أحوال الجيش دون الاشتغال بالقتال ببدنه وبالطعان بنفسه ، بل فيما يحدثه العدو من بدعة في الحرب ، أو يُبدعه من مكيدة أو يلفّقه من خديعة أو يجدده من حملة أو يخرجه من كمين في ناحية ، أو يحدث في عسكره من وهن أو انكشاف من نواحي مصافه ، لينتهز من عدوّه الفرصة ويسد من أنصاره الخلة بالامداد والتأييد والتقديم والتأخير والتحريض والتحيز من فئة إلى فئة ، والإراحة من شدة التعب ودوام النصب .

فإن اشتد القتال وتفاقم الأمر واحتاج الى تولي ذلك بنفسه فالواجب أن يكون قتاله قتال المحرج الذي يعلم أنه إن هرب وأدبر قتل لا محالة وذم وأثم ، وإذا قبل وصبر ربما غلب وظفر وحمد وأجر .

ويضرب عن ذكر كل ما خلفه من نعمة وقنية ودار ومملكة وأهل وقرابة وخدم وحرمة ، ويتوهم أنه فائت بائد إن لم يستفده بالصبر والثبات .

ثم يتذكر ويذكر أصحابه عند التحريض أنّ مَن قُتِل مُدبراً أكثرُ ممن قُتل

مقبلاً ، وليس الإدبار بمنج مما سبقت به الأقدار، ولا الإقبال بمقرّب من الآجال.
ويذكر الآيات التي أنزلها الله في هذا الباب مثل قوله تعالى : ﴿ **قل لو كنتم في بُيوتكم لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجِعِهم وليبتليَ اللهُ ما في صدوركم**[1] ﴾ .

وقوله : ﴿ **أينما تكونوا يُدْرِكْكُم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مُشيّدةٍ**[2] ﴾ .

وقوله : ﴿ **إنْ يَنْصُرْكم اللهُ فلا غالبَ لكم وإنْ يَخْذُلْكم فمَنْ ذا الذي ينصرُكم مِن بَعْدِه**[3] ﴾ .

ومثل قول النبي ﷺ ضربة بالسيف أهون من موت على فراش . وقوله : أكرمُ الموتِ الشهادة .

ثم الأبيات التي تذكر عن أهل القدوة في الدين والشجاعة مثل أبيات علي ـ رضي الله عنه ـ :

أيَّ يومَيَّ مِن الموت أفِرْ يومَ لا يقدر أمْ يومَ قُدِر

ومثل بيتي معاوية :

كأنَّ الجبانَ يرى أنه سيُقتل قَبْل انقضاء الأجَلْ
فقد تدرك الحادثاتُ الجبانَ ويسْلَمُ منها الشجاعُ البطلْ

وأبيات الشجعان والأبطال التي ذكرنا شيئاً منها فيما تقدم من كتابنا .

---

(١) آية ١٥٤ آل عمران.
(٢) آية ٧٨ النساء .
(٣) آية ١٦٠ آل عمران .

ويذكر الآيات التي حث الله بها المؤمنين على القتال وأوجبه بها عليهم ، وما أوعد به الفارّ من الزحف مثل قوله : ﴿ **إنّ الله يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بُنيانٌ مَرْصوصٌ**[1] ﴾ .

وقوله : ﴿ **قاتِلوهم يُعذّبْهم اللهُ بأيْديكُم ويُخْزِهم ويَنْصرْكم عليهم ويشْفِ صُدورَ قوم مؤمنين**[2] ﴾ .

فإن في تذكر هذه الآيات في المعارك والمواقف الصعبة تأييداً للقلوب على مباشرة القتال ، وضرباً من الفأل ، والفأل تحريك للجدود[3]، وبشارة للنفوس ، وتقوية للقلوب .

وربما خطر ببال الملوك وأصحاب الجيوش وجرى على ألسنتهم في تلك المواقف وغيرها من أوقات المخاوف والأخطار آية أو بيت أو كلام يتطير بها ، فتنكسر بذلك قلوب السامعين وتضعف به مُنّتهم ويكون سبباً للضعف والخور والخذلان والفشل .

ولقد ذكر المدائني أن أبا مسلم صاحب الدعوة بينما هو يسير مع عيسى بن موسى مُنْصرَفَه إلى أبي جعفر المنصور في اليوم الذي قتل فيه إذ جرى على لسان عيسى فقال :

سيأتيك ما أفنى القرونَ التي مضتْ ... وما حلّ في أكنافِ عادٍ وجُرْهُمِ
ومَن كان أربى منك عزا ومفخرا ... وأنْهَدَ[4] بالجيش اللّهام[5] العرمرمِ

فقال أبو مسلم : ويحك هذا مع الأمان الذي أعطيتني فحلف عيسى واعتق ما يملكه من رقيق إن كان هذا الشيء مِن أمرِك ، وما هو إلاّ خاطر أبداه لساني ؛

(١) آية ٤ الصف
(٢) آية ١٤ التوبة .
(٣) الجدود : الحظوظ
(٤) وأنهد : أي أكثر قياما ونهوضا
(٥) اللُهام : بضم اللام كأنه يلتهم كل شيء .

فقال : بئس والله الخاطر إذن ، وظن أنه هالك ، وكان على ما ظنَّ .

ولقد ذكر أن دعبل بن علي الخزاعي ورد علي محمد بن طاهر بن عبد الله فطال عليه حجابه ، فجعل يسأل على بابه عن أحواله وأوقاته حتى بلغه أنه يريد التفرغ للّهو يوماً في بعض بساتينه ، وهناك نهر على شَفاه مجلسه فأخذ بطة وعلق على جناحها رقعة مكتوب فيها :

يا أيها الملك المسرْبلُ هيبةً   لا تأمَننَّ بوائق الحَدَثانِ
صاحَ الزمانُ بآل برمك صيْحةً   خرّوا لوجبتها على الأذْقَانِ
وثنى عليهم فاستباح حريمهم   وأتى الزمان على بني هامانِ
هذا لعمرُكَ قد شهدتُ وقوعه   والدهر رقب عن بني ساسانِ

وأرسلها في الماء فأخذت وقرئت الرقعة ، فتنغص عليه سروره وتمكن ذلك من نفسه فما نسيه حتى حلّ به ما حلّ وطلب كاتبها فلم يقدر عليه ولا شعر به إلاّ بعد حين .

ولقد أخبرت أن يحيي بن خالد لمّا قرُب زوال دولته رأى في منامه كأن هاتفاً يهتف به ويقول :

كأنْ لم يكنْ بين الحجون إلى الصفا   أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامر(١)

فأجابه يحيي وهو في منامه :

بلى نحن كُنّا أهْلَها فأبادَنا   صروفُ الليالي والجدودُ الواترُ

(١) قائل هذا البيت والذي بعده عمرو بن الحارث الجرهمي ، وهما من قصيدة يتوجع فيها على اخراج جرهم من مكة . أنظر سيره ابن هشام ١/ ١٢٠ .

وجعل هذا البيت يتردد على لسانه حتى صار الأمر إلى ما قال .

وبلغنا أن أبا خالد الأعور لما لقي العرب من جيوش بني أمية على قنطرة السرحان ببلخ ، وكان قدر من لقيه منهم أربعين ألف فارس من قواد العرب وانجادها ووجوههم وأعيانهم وأبطالهم وفرسانهم ، وأبو داود في عدد قليل ، فلما التقت الفئتان صاح منهم صائح ﴿ نحن جميعٌ مُنتصر[1] ﴾ ، فسمع ذلك أبو داود فقال مجيبا بما اجاب الله به أهل هذه الدعوة : ﴿ سيُهزم الجمعُ ويُوَلّون الدُبُر[2] ﴾ ، فكان كما قال .

وهذا باب محكم والأخبار فيه كثيرة . فيجب على صاحب الجيش أن يتعهده فلا يجري على لسانه ولا يفعل ما يتطير به ، ويتعمد لما يتفاءل به .

فإن النبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة[3] .

ولقد كتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر واكد عليه وأخبره أن الفُرس أصحاب فأل فاستعمله معهم ، ووصف له من ذلك أبواباً عدة وفنوناً مذكورة .

والخامسة ـ أن يراقب حال جيشه ويتعهد أمر أصحابه فإن رأى منهم لا محالة ضعفاً لا يمكن تقويته ، وخوراً لا يستطيع تداركه بإصلاح ، أو علتهم هزيمة لا حيلة في ردها ـ احتال في الرجوع سالماً ، ولا يهلك نفسه لجاجاً بعد خروج الأمر من اليد ، فإن الحرب سجال ، والدنيا إدبار وإقبال ، والأيام دول ، وإلقاء النفس إلى التهلكة خطأٌ ، وكم من ملِك غُلب ثم غَلَبَ ، وظُفر به ثم ظَفِرَ ، وهُزم ثم هَزَمَ ، وليس مع فقد الحياة رجاء الظفر ، ولا مع بقائها يأس من تقلب الأحوال .

والسادسة ـ هي حسن الظفر إن فتح الله عليه ، وكرم المقدرة إن نصره الله ، وبذل العفو إن غَلَبَ ، واستعمال السُّنَّة في أهل القبلة حتى لا يُغْرِق في

---

(١) آية ٤٤ القمر .
(٢) آية ٤٥ القمر
(٣) رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٣٢ .

اتباع المنهزمين ولا الإجهاز على جرحاهم إن وُجدوا ، إلاّ أن يكون كافر لا يرجى إيمانه ولا يؤمل خير في إبقائه ، فإن هذا من أدب الله الذي أدب به نبيّه ﷺ حيث قال : ﴿ خُذ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ واعرِضْ عن الجاهلينَ[1] ﴾ .

وقال : ﴿ فإمّا مَنّاً بَعْدُ وإما فِداءً حتى تَضَعَ الحربُ أوْزارَها ذلك ولو يشاءُ الله لانْتَصَرَ منهم[2] ﴾ .

واحتال النبيﷺ يوم فتح مكة بكل حيلة ليعفو فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمِن . ومنّ على عمه العباس .

وكذلك فعل الخلفاء بمن قدروا عليه حيّاً ، كفعل أبي بكر رحمه الله بقيس ابن معدي كرب حين قوتل على الردة فأخذ . وكذلك كانت السنة .

وبشر أمير المؤمنين عليٌّ أبنَ جرموز بالنار لما قتل الزبير مدبراً .

وقد قال أرسطاطاليس للاسكندر : لا تقتل صريعاً ولا تطلب منهزماً أكثر من ليلة .

والسابعة ـ أن يحذر كل الحذر كرّة العدوّ عليه بعد الهزيمة بغدرة أو انتهاز فرصة ، وليجعل حذره من ذلك في ثلاثة أبواب :

منها : أن لا يفرق جيشه في اتباع المنهزمين ،وينفرد عنهم أو يبقى في عدد قليل لا منعة لهم .

ومنها ـ أن لا يدع أصحابه يشتغلون بأخذ الغنائم عن مكرة تكون للعدو ساعة الهزيمة ، فإنها إحدى حيل الملوك وأصحاب الجيوش ، فكثيراً ما سمعنا من أمثال ذلك في قديم الأيام وحديثها أن اشتغل عسكر غالب هازم بأخذ الغنائم فكان

---

(١) آية ١٩٩ الأعراف .
(٢) آية ٤ من سورة محمد .

فيه هلاكه ؛ وكم من صاحب جيش احتال بتسليم معسكره وخزائنه العامرة الوافرة وأمواله الجمة الكثيرة إلى العدو ، وصير كثيراً مما معه من الصفراء[1] والبيضاء والصوامت[2] والقيمات المضنون بها على طريق العدو الذي في أثره ، فكان ذلك سببا لقوته او ظفره .

ومنها ـ أن لا يبادر بالنزول ووضع السلاح قبل الإمعان بأخذ الحذر من العدو أو قتله أو بُعده عنه بُعْداً لا يخاف كروره عليه وسرعة رجوعه إليه ؛ وإقامة الطلائع على الطرق التي يخاف رجوعه منها.

فهذه الخلال السبع التي ذكرناها مما يجب أن يستعملها الملك إذا دفع الى القتال بنفسه ، ويتقدم بها إلى صاحب جيشه إن تولىّ عنه الحرب .

شكر الله على النصر

ثم العاشرة من التقسيم الأول هي أن يشكر الله عز وجل إذ فتح عليه ونصره ، سرًّا وعلانية وفي الخلاء والملأ ، ويفوض الأمر كله إليه ويتبرأ من الحول والقوة إلا بالله ، ويحمده في كتبه إلى الأولياء والأعداء ، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ لئن شكَرتُم لأَزِيدَنّكم ولئن كفَرْتُم إنّ عذابي لشديدٌ ﴾[3] .

وقديماً ما قيل : الشكور يزاد.

وقال الله : ﴿ وبدّلناهم بجنّتيهم جنّتَيْن ذَواتيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ مِن سِدْرٍ قليلٍ . ذلك جَزَيْناهم بما كَفَروا وهل نُجازِي إلاَّ الكَفورَ ﴾[4] .

على أن ذلك لم يزل من عادة الأنبياء والمؤمنين والملوك الأوّلين عند تجديد الله

(١) الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة
(٢) الصوامت: الأموال كالذهب والفضة
(٣) آية ٧ من سورة ابراهيم
(٤) آية ١٦ و١٧ من سورة سبأ

عز وجل لهم الفتوح وإظهارهم على العدو.

ويشكر أهل البلاء والكفاية والغَناء والبسالة من أصحابه وخاصته وعامة أوليائه ، ويمدحهم في مغيبهم ومشهدهم ، ويشهر باسم من صدق الوقعة واللقاء ، وبارز الأقران وانكمش[1] في القراع ؛ ويجدد لهم العطايا والجوائز والمبار[2] ورفع المراتب لمن استحقها منهم ، فإن الله قد أدّب بذلك خلقه وحث عليه في قوله: ﴿ **ذلك بأنهم لا يُصيبُهم ظَمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ اللهِ ولا يطأُونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الكُفَّارَ ولا ينالون مِنْ عَدوٍّ نَيلاً إلاّ كُتِبَ لهم بهِ عَمَلٌ صالحٌ إنّ اللهَ لا يُضيعُ أَجْر المحسنين . ولا يُنْفِقونَ نَفَقَةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يَقْطَعون وادياً إلاّ كُتِبَ لهم ليَجْزِيَهم اللهُ أَحْسَنَ ما كانوا يَعْمَلون** ﴾[3] .

وقال الله ـ جل وعزّ ـ ﴿ **وفَضَّلَ اللهُ المُجاهدينَ على القاعدينَ أَجْراً عظيماً دَرَجاتٍ منه ومَغْفرةً ورَحْمةً** ﴾[4] .

وقال الله في عامّ من يتقرب إليه بطاعة أو يعصيه معصية قَلّتْ أو كثرتْ: ﴿ **مَن جاءَ بالحسنةِ فله عَشْر أَمثالها** ﴾[5] .

وقال: ﴿ **فَمَنْ يَعْملْ مثقال ذرّةٍ خيراً يَرَهْ** ﴾[6] .

وجعل من دلائل عدله وحكمته ورأفته أن من تَقَرّبَ إليه بطاعته أوجب له جزاءين عاجلاً وآجلاً ، فالعاجل أن أَمَرَ المؤمنين بتعظيمه وتبجيله والثناء عليه والدعاء له وقبول شهادته والصلاة خلفه ؛ ثم أمدّه بتوفيقه وعصمته وتسديده ،

(١) انكمش: أسرع وشمّر وجد، ورجل كمْش وكميش عزوم ماض سريع في أموره (اللسان ـ كمش)
(٢) المبارّ: جمع مبرة وهي أعمال الخير
(٣) آية ١٢٠ و١٢١ التوبة.
(٤) آية ٩٥ و٩٦ النساء.
(٥) آية ١٦٠ الأنعام.
(٦) آية ٧ الزلزلة

وحبب إليه طاعته وبغّض إليه معصيته ، كما ذكر ذلك في كتابه حيث خاطب به المطيعين من عباده ، فقال: ﴿ ولكنّ اللهَ حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيّنَهُ في قلوبِكم وكَرَّهَ إليكم الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ ﴾[١] .

في آيات كثيرة ودلائل حاضرة تشهد بما ذكرْنا وتبين عما قلنا .

ثم يتعهد جيوشه بتفقد أحوالهم فيأمر بمداواة جرحاهم وتمريض مرضاهم ودفن قتلاهم ، وإبدال ما ينفق[٢] من دوابّهم ويضيع ويفسد من كُراعهم وسلاحهم ، ويكفي ويعول ورثة قتلاهم وموتاهم ، فإن ذلك مما يحثهم على العود إلى مِثله من إظهار البلاء والغَناء وتحمل المشقة والعناء ، والاجتهاد في التقدم في المراتب .

فهذه الخلال تمام ما يستعان به على كسر الأعداء وإذلالهم ، وإعزاز الأولياء وإنعاشهم ، وهي كلها من أوامر الله تعالى في الدين ، وأفعال الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين . وبالله نستعين فإنه خير موفق ومُعين .

* * *

(١) آية ٧ الحجرات

(٢) نفقت الدابة . ماتت

البَابُ العَاشِرُ

في تقديم النيات وطلب التأويلات لكثير مما يجري في أيدي الملوك والأمراء مما اختلف فيه كثير من العلماء أو كرهه كثير من الفقهاء

نقول إن الله عز وجل خلق جميع ما في هذا العالم لخلْقه لا لنفسه ، فلم يحظر عليهم شيئاً منها بخلاً به عليهم ولا استئثاراً به دونهم ، ولذلك ما قال: ﴿ قل مَنْ حَرَّمَ زِينة اللهِ التي أخْرَجَ لعبادِه والطيّبات مِن الرِّزْق ﴾(١)

وقال: ﴿ يأيها الناس كلُوا ممّا في الأَرض حَلالاً طيّباً ﴾(٢)

وقال: ﴿ يأيها الرسُلُ كلوا من الطيّبات واعْمَلوا صالحاً ﴾(٣) .

ثم حظر عليهم أشياء نظراً منه لهم ورحمة بهم وإبقاء عليهم وتعويضاً لما هو أنفع لهم وأبقى وأزين وأبهى وأعم لصلاحهم وأولى ؛ فوقع الحظر والتحريم في كل ما وقعا فيه لجهات من العلل معلومة وأغراض للخلق عند العلماء مفهومة.

منها أنه قسم بينهم معايشهم مما في هذا العالم من أصناف نعيمها وزهرة دنياها ، فجعل لكل منهم حظاً على ما علمه أصلح له وأنفع ، ومن الفساد أمنع ، ونهى غيره من البشر عن أن يزاحمه في حظه ويكاثره على قسطه عدواناً وظلماً وقسراً

(١) آية ٣٢ الأعراف
(٢) آية ١٦٨ البقرة
(٣) آية ٥١ المؤمنون

وغشماً ؛ إلا بشرائط معلومة وحدود مضروبة من البيع والهبة والميراث والعوض من التعاون والتعاضد؛ لما علم في ذلك[1] من فساد العباد وهلاك البلاد.

ومنها أشياء خلقها لهم لضرب من ضروب المرافق، ونوع من أنواع المنافع، ونهاهم عن أن يعدلوا بها عن جهتها إلى غير ما خلقها الله له، جهلاً بموضع النفع فيه ومكان الرفق به، مثل السموم التي جعلها للأدوية، فربما جعلها بعضهم في الأغذية وكان فيه هلاكه وهلاك غيره.

ومنها أشياء حظرها عليهم اقتصاراً بهم على المقدار الذي يكون فيه كفايتهم، وتنسد به خلّتهم، ثم يكون أرفق بهم وأفرغ لقلوبهم من دواعي البغي والكفران والتعدي والطغيان، فنهاهم أن يتعدوا أطوارهم ويتجاوزوا أقدارهم.

ومنها أشياء جعلها لهم في أول الخلقة لضرب من الاستعمال ونهاهم عن استعمالها في غيره تأديباً لهم وتنظيفاً كالميتة التي حرّم عليهم أكلها وأباح لهم عند أكثر العلماء الانتفاع بإهابها وعظامها، وجعل لحمها غذاء للسباع الأرضية والهوائية من كلاب تحرسهم وتصطاد لهم وتؤنسهم، وسباع جعل لهم في عظام كثير منها وجلودها وأنيابها مرافق مختلفة.

فلم يحرم شيئاً منها من جهة إلا جعل عنه عوضاً هو انفع منه لهم وأرفق بهم، ثم أباحه لهم من جهة أخرى ليُتم به المنفعة والغرض، ويستحق به العبد على الطاعة من الله ـ تبارك اسمه ـ العوض.

فيجب على العبد إذا علم أن ذلك كذلك أن لا يتعدى حدود الله ولا ينتهك محارمه، فيحرم حظه من العوض دنيا، ويلتزم سمة الجهل ديناً، ويستحق من الله ـ جل وعز ـ العقوبة في العقبى، ومن العقلاء من المتدينين الذمّ في الأولى.

---

(١) ذلك: إشارة إلى المزاحمة والمكاثرة عدواناً وظلماً الخ.

الحلال والحرام والمشتبه

ثم إن الأشياء تنقسم في بابي التحليل والتحريم إلى ثلاثة أقسام : حرام بينّ ، وحلال بينّ ، ومشتبه مكروه.

فأقل ما يجب من حق الله على المرء المسلم أن يتجنب الحرام ، ومن حق الورع أن يتجنب الشبهة ، فمن لم يفعل ذلك طلب في الشبهة موضع تأويل يتأوّله وحجة يعتمدها.

ثم ينقسم هذا الباب قسمة ثانية ، وهي أن منها أشياء حرّمها الله بالإجماع والإطلاق ؛ وأشياء أحلها وأباحها بالاتفاق ؛ وأشياء قد اختلف العلماء فيها.

فالواجب على المقر بالله وبالشريعة ، والمعترف بحق التنزيل والديانة أن يجتنب الحرام المطلق بالاتفاق ، وينظر في موضع الاختلاف ؛ فمن لم يفعل واقتصر على أحد أقاويل الأمة وأئمة أهل الملة كان أوسع طريقاً وأقرب إلى الحق سبيلاً.

ثم جعل الله ـ وله الحمد ـ إلى استبانة المشكل واستيضاح المشتبه منها طرقاً لائحة ، وسبلاً واضحة ، وجعل للهارب من الحرام إلى الحلال سبلاً معلومة ، وعن كل محرّم بدلاً يسكن إليه المتدين ، ويقنع به المستخرج.

والناس في هذا الباب على طبقات ثلاث:

فمنهم الناسك الورع الذي يدع كثيراً مما أحلّ الله له ويقنع من الدنيا بالقوت الذي يزجي به يومه ، رغبة عنها وزهداً فيها إذ عرف وعاين سرعة زوال ما في هذه الدار ووشك انتقالها من حال إلى حال ، وكثرة غدرها بأهلها ، وإذلالها لمن أعزّها ، وقتلها لمن عمرها.

سُموّاً بهمّته البعيدة ونفسه الزكية إلى نعيم لا زوال له ، ودارٍ لا انتقال

عنها ، فصار في الدنيا ملكاً بطيب الحياة ، وفي الآخرة ملكاً بنيل المثوبات والمكرمات.

وبهذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له : إن أمكنك أن تدع مما أحلّ الله لك ما يكون حاجزاً بينك وبين ما حرّم الله عليك فافعل ، فإن من استوعب الحلال كله تاقت نفسه إلى الحرام.

ومنهم المتهتك بمحارم الله ، الذي لا يفكر في عاقبة ولا ينظر في آخرة ، ولا يترفع في الدنيا عن لؤم الأحدوثة وقبح المقالة ، ولا يعتبر بالعقوبات المؤلمة المعجلة ؛ فمن كانت هذه سبيله وطريقه فبُعْداً له وسحقاً .

ومنهم من يرغب من الدنيا في لذة العيش وطيب الحياة ، ومن الآخرة في نيل الأجر والثواب ، فتوخّى فيه الحلال واجتنب الحرام وتمتع بالدنيا وقام بوظائف الدين ، وأمّل أن يكون من الذين آتاهم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ومن الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فعسى الله أن يتوب عليهم إذا تابوا ، ويغفر لهم إذا أنابوا.

فمن الواجب على الملك العاقل الفاضل إذا عرف ما قلنا أنه إن لم تطاوعه نفسه على رفض الدنيا حتى يلحق بمنزلة الزهاد الأخيار ، أن لا يرضى بمنزلة الفسّاق الفُجار فيكتسب المآثم ويدخل النار فيخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

حكم تولي العمل للحاكم الظالم

ثم قد اختلف العلماء في تولّيّ العمل للملك الجائر والسلطان الظالم ، فحرّمه كثير منهم ، وكرهه طائفة ، وأجازه آخرون ، ما لم يأمر السلطان العامل بالجور ويجبره على الظلم ، فإذا أمره بذلك حرم عليه تولي عمله إلا مضطراً كارهاً خائفاً على نفسه القتل والضرب الذي لا صبر له عليه.

وخالف كثير منهم بين هذه الأعمال فحرم منها بعضاً وهو كل

عمل يدخل فيه أخذ مال من غير حِلّه ، وإهراق دم في غير حقه ، أو حبس أو تعذيب . وأباحوا الكتابة والقضاء والحسبة وأشباه هذه الأعمال .

واحتج المحرّمون بقول الله عز وجل: ﴿لا يَنالُ عَهْدي الظالمينَ﴾[1] . وقوله ﴿ وما كنتُ مُتّخِذَ المضِلِّينَ عضُداً ﴾[2] . وبقول الرسول ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[3] .

قالوا: فكيف تجوز مؤازرته ومعاضدته وليس له من الله ولاية ولا عهد؟

وقال آخرون : إذا لم يأمره بالمعصية وأباح له الحكم بما أمر الله به فالمستحب له أن يفعل ذلك ليقيم حقاً ويمضي حكماً ويرد باطلاً ويدفع ظلماً ، فقد قال الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضَلَّ إذا اهتديتم ﴾[4] .

قالوا : ولا قدوة أجلّ من يوسف نبي الله عليه السلام حيث تقلد العمل من تحت يد الريان بن الوليد وهو كافر وقومه كفار ، وأن ذلك جائز أو واجب لمن علم فيه صلاحاً ونوى فيه خيراً .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أحد أعظم أجراً من وزير مع سلطان يأمره بذات الله » .

فعلى المتقلد الصلاحُ والخير ، ويأمر بالإنصاف والعدل ، ولا يضره التقلد بين يدي ظالم ، وقد روى عن النبي ﷺ قوله : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن

---

(١) آية ١٢٤ البقرة
(٢) آية ٥١ الكهف
(٣) سبق تخريج الحديث
(٤) آية ١٠٥ المائدة

كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

وكره كثير من المسلمين ما أحدثه الملوك من إقامة الحجاب والغلمان وشدة الحجاب ، وقالوا إنه بدعة ودلالة على الخيلاء والتكبر ، وقد روي عن النبيﷺ أنه قال : « من أحب أن يمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار »[2] .

وأجازه آخرون إذا لم يقصد به هذه الأسباب وتوخى فيه الاحتياط لدينه والذب عن نفسه وحريمه ، وإعزاز مملكة الإسلام ، لا سيما عند فساد الزمان وأهله ، وإدبار الأمور وتهافت الناس في دور السلطان ، وتحارصهم على صحبته مرة والغدر به تارة.

ولذلك فلا بأس بشراء العبيد لينصر بهم الدين ويذب عن حوزة المسلمين ، من غير ميل إلى شهوة ، أو قصد الى محرّم ، إذا جعل ذلك من خاصة ماله فيكونوا عبيده .

ولا خير في الغلمان المزوقة وإلباسهم الملابس المكروهة في الدين من الديباج والحرير إلا ما رُخّص منه في الوقعة والحرب وعند الطعن والضرب ، فإن النبي ﷺ قد حرّمها على رجال أمته إلا في تلك الحال. ولا بأس بعد الحرير والديباج بلبس كل ثوب فاخر من الخزوز والبرود.

تحريم الحرير على الرجال

وكره كثير من العلماء قياساً على الحرير والديباج كل ثوب نسج من الابريسم الخالص ، ورجعوا[3] في الثياب التي سداها قطن ولحمتها أبريسم مثل المسمّط والملحم .

وكل ما لم يكن فيه ذب عن الحوزة ومعونة للأمة وصيانة للملة ولا عدة للحرب ونصر لسمعة فيه يثبت المال ـ فهو حرام ، إلا أن يفعل ذلك السلطان من خاصة ماله أو رزقه في الديوان .

---

(١) سبق تخريجه

(٢) رواه ابو داود والترمذي . انظر جامع الأصول ٦/ ٥٣٦

(٣) ورجعوا في : هكذا في الأصل وأظنه تحريفا وتستقيم العبارة إذا قلنا : وأباحوا الثياب الخ .

فأما سائر أنواع العدد والعتاد والسلاح من الطبول والأعلام ومعاون الإسلام فلا بأس به إذا نوى بها الخير الذي ذكرناه ؛ فقد كان للنبي ﷺ فرَسان ونعلان وراية ودرع وسيف مُحلىً وقضيب ورمح وترس ؛ وكان لأصحابه سلاح كثير ، وكان لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ولعبدالله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وغيرهم من الصحابة سيوف مُحلاّة .

تحريم أواني الذهب والفضة

وأما استعمال أواني الذهب والفضة والسرر المرصعة بالجوهر فإن الدين قد حرّمها كلها وأوعد النبي ﷺ على الشرب بآنية فضة أو ذهب وعيداً غليظاً ، فلا يجوز للسلطان في الإسلام ولا لغيره استعمالها أو صرف أمواله وأموال المسلمين وبيت مال المؤمنين إليها فإن فيها سرفاً وتبذيراً .

وقد جعل الله الزجاج النظيف وأنواع الجواهر التي خلقها للآلات بدلاً من الذهب والفضة اللذين لم يخلقا للأواني والشرب ؛ على ما في ذلك من إضاعة الجيوش وإفقار الجنود وفتنة الرعية والإجحاف بها ، وكل ذلك إيذان بزوال الملك والمملكة ، ودلالة على الخيلاء والشره والحرص المذموم في الدين والعقل ، ووضع الشيء في غير موضعه .

الزنى والخمر

فأما الفواحش المحرّمة في الدين بالاتفاق والتي يقع فيها قطع النسل وفساد الأنساب ، وإبطال المواريث والأحساب ـ فالمِلك أجلّ حالاً وأرفع منزلة من التدنس به والتقذر بعاره وشناره ، بل الواجب عليه في جلالة رتبته وشرف همته وعلو منزلته أن لا يخطره بباله فضلاً عن تناوله .

وليس يبعث عليه إلا الشيطان وسوء العادة التي يتعودها الإنسان ؛ وقد عوّض الله عنه وأبدل منه ما هو أرفع منه وأطيب وأحمد عاقبة وأصوب ، وأعمل في عمارة الدنيا وبقاء النسل وخيرة الذكر ، من تزوج النساء مثنى وثلاث ورباع ،

واستبدال زوج مكان زوج ، إلى ما لا غاية له ، وشراء الإماء وتسرّي الجواري إلى ما تبلغ إليه الطاقة وتنتهي إليه الهمّة .

وأما الشرب فقد أجمعت الأمة ونطقت الآية بتحريم الخمر وهو عند العرب عصير العنب غير مطبوخ ، فلم تختلف الأمة أن الله حرّمها قليلها وكثيرها ، وحرّم السُكْر من كل شراب لما ذكر الله فيه من أنواع الفساد من وقوع العداوة والبغضاء المؤديين إلى خراب العالم ، وتضييع الصلاة والدين المؤدي إلى أليم عذاب الله وشديد عقابه ، نعوذ بالله منه.

واختلفوا فيما دون السكر مما دون الخمر من الأشربة ،مثل الباذق[1] والنبيذ الزبيبي والتمري ، فمنهم من حرّم كل مسكر الجنس ، ومنهم من أباح بعضه دون بعض .

ووردت الرخصة والروايات عن النبي ﷺ وأهل القدوة من الصحابة والتابعين والعلماء المتقدمين دلالة وتصريحاً في إباحة بعضه والزبيبي خاصة .

والأحوط في الدين تركها بكليتها ، ومجانبتها بجملتها لما يتوقع فيها من الفساد .

ومن لم يسلك هذا المسلك فالمختلف فيه أقرب من الحق وأشبه من المتفق على تحريمه ، فيجب على الملك أن لا يختار أفحش المذاهب وأبعدها من الدين .

حكم سماع المزامير والمعازف والأغاني

وأما السماع من المزامير والطنابير والمعازف فإن الناس قد اختلفوا فيه ، فحرّمه كثير منهم ، وتحرج عنه عامة أهل الدين والورع والفضل ، قالوا وذلك لأنه لهو ولعب وصدّ عن سبيل الله ، وقد جاء الدين بتحريم هذه الأبواب جملة ، وقد قال الله : ﴿ وذَرِ الذين اتّخَذوا دينَهم لَعِباً ولَهْواً ﴾[2] .

وقال: ﴿ أفحسِبْتُم أنما خَلَقْناكم عبَثاً ﴾[3] .

---

(١) الباذق : ما طبخ من عصير العنب أدنى الطبخ . والكلمة فارسية

(٢) آية ٧٠ الأنعام

(٣) آية ١١٥ المؤمنون

وقال بعضهم إن ذلك مباح ما لم يُتغنَّ فيه بكلام قبيح من حث على زنى أو فاحشة أو كفر أو هجاء ، فإن النبي ﷺ سنّ في الدف[1] سُنّة عند العرس والزفاف ، ولقن فيه كلاماً صدقاً ، وهو مشهور بالحجاز ومكة إلى يومنا هذا . وقد كان مباحاً بل مأموراً به في الشرائع المتقدمة وعلى لسان داود عليه السلام ، على ما جاءت به الروايات .

ولجلالة حال السماع عند الأوائل وإباحته لهم بما ألف الفلاسفة فيه من كتب الموسيقى وعنوا به العناية الشديدة .

وأما العرب فقد كانت لهم ضروب من الأغاني في صدر الأمة وقبله وبعده قد عرفت بينهم ، فلم ينهوا عنه نهياً باتّاً ، وما ورد بالنهي الفاصل فيه كتاب محكم ولا خبر مجتمع عليه والوجه فيه أن يتحرج من كثير منه ويكتفي من جميع السماع والأغاني بالقرآن ، فقد روى عن النبي ﷺ « زيّنوا القرآن بأصواتكم »[2] .

وقال: « ما أذن الله بشيء كإذنه للذي يتغنى بالقرآن »[3] .

فإن جاوز ذلك فرواية الأشعار العربية وغيرها مما يفيد المعاني الشريفة ويبعث على مكارم الأخلاق من الجود والشجاعة والكرم والسماحة والحلم والعفة والعلم والديانة ؛ وينتقي منها أجودها وأفصحها وأبلغها وأحكمها ، وتكون النية في ذلك استفادتها واستعمالها .

واختلف الناس في الملة فيما يستعمله الملوك من الركوب الى الصيد والصولجان والطبطابة[4] وما أشبهها ، فحرمه قوم وكرهه قوم ، وزعموا أن ذلك من باب اللعب واللهو ، وفيه حمل على الدواب فوق طاقتها ، وإفناء للعمر فيما لا فائدة فيه ولا معنى له ؛ وأجازه آخرون واختاروا منها ما يخف على الدواب والأفراس ، وأجازوا الاصطياد على نية الانتفاع والنفع به ودفع ضرر الحيوانات المؤذية عن

(١) رواه البخاري في النكاح ، وأحمد في مسنده ٤/ ٢٥٩

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي والدرامي وابن ماجه وأحمد في المسند

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي : جامع الأصول / ٤٥٥

(٤) الطبطابة : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة

المسلمين ، ورياضة الدواب والأبدان بالفروسية للذب عن الملة وحماية الحوزة .

قالوا : فلا بأس به إذا قصد هذا القصد وذهب إلى هذا النحو وتجنب فيه الإفراط ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يسابق بناقته العضباء ،[1] وقلّما كانت تسبق . قالوا وكانوا يستبقون على الرُّكاب وعلى الخيل وعلى أقدامهم .

قالوا : وكتب عمر بن الخطاب رحمه الله إلى أهل حمص أن علموا أولادكم الفروسية والرمي واختلفوا بين الأغراض .

وروى النزال بن سبرة قال : أتانا كتاب عمر بن الخطاب رحمه الله بثلاث تعلموا الرمي واختفوا وارفعوا الازر .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الملائكة لا تحضر شيئاً من لهوكم إلا النضال والرهان»[2] .

وليس بين هذه الأبواب وبينها فرق .

وقد كان للنبي ﷺ من المهاجرين والأنصار فُرسان أشداء مذكورون أبطال مشهورون كالزبير بن العوام وخالد بن الوليد والعباس بن مرداس السلمي وعبدالله بن رواحه الأنصاري وكعب بن مالك ، ودونهم .

ومعلوم أن مثل تلك الفروسية لا يبلغها الإنسان إلا بالرياضة الكثيرة والعناية الشديدة .

حكم الصيد والألعاب

وأما الصيد فأصله مباح ، وهو حلال بالاتفاق ما لم يقع فيه نية فاسدة .

فهذه جمل ما أردنا أن نذكره من الخصال التي يشتغل بها الملوك والأمراء والرؤساء والخلفاء ، ويولعون بها ويستعملونها ، وقد شرحناها وبيناها وأوضحنا ما يجب أن يقدم فيها من نية صادقة ، ويتأول لها من تأويل صحيح . ورأينا أن نختم

(١) رواه البخاري وأبو داود والنسائي . جامع الاصول ٥/ ٤٠

(٢) النضال : إصابة الهدف . الرهان : يكون في مسابقة الخيل بشروط خاصة

الكتاب بخصال مأثورة وخلال مذكورة عن الملوك الأولين والخلفاء الراشدين والحكماء المتقدمين وذوي التجارب والحجى والأحلام والنهى مما مدحوا بها وامتدحوا ، وفاخروا وافتخروا ، وعدوها أعمدة السلطان وأركان الدول وأساس السياسة وجمال الملك والخلافة ، وإن كانت قد دخلت متفرقة في خلال الأبواب التي قدمناها .

آداب منثورة

روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أيما راعٍ بات ليلة واحدة غاشا رعيته حرمت عليه الجنة »[1] .

قالوا : وتخاير غلامان إلى الحسن بن علي في خط قد كتباه في لوح ، فقال عليٌّ تثبت فيه يا بني فإنه حكم الله سائلك عنه يوم القيامة .

قالوا : وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري بعد كلام له : باشرْ أمورهم بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً ، وقد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومركبك ومطعمك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب فلم يكن لها همة إلا السمن ، وإنما حتفها في السمن .

وقال عامل من عمال عمر بن الخطاب له : عظني ، قال : أوصيك بتقوى الله ودعوتين ترجو إحداهما وتخاف الأخرى ، دعوة لهفان تعينه بالشيء فيدعو لك ، ودعوة مظلوم وهي أوشك صعوداً إلى الله وأسرع كرة ، إن الله أمر بالطاعة وأعان عليها ولم يجعل في تركها عذراً ، ونهى عن المعصية وأغنى عنها ولم يجعل في ركوبها حجة .

قالوا : وكان عمر بن عبد العزيز يقول : والله لولا أني أُنْعِشُ سُنَّة أو أُميتُ

(٢) اخرجه البخاري ومسلم وأحمد . وليس في البخاري ومسلم .. ليلة واحدة . انظر جامع الأصول ٤/٥٣

بدعة لما سرّني أن أعيش في الدنيا فواقاً ، ولوددت أني كلما أنعشتُ سُنّة أو أمَتُّ بدعة أنّ عضواً من أعضائي سقط .

قالوا : وكتب عمر[١] إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر كل ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سُنّة ماضية أو حديث عم فاكتبه ، فإني قد خِفْتُ دروس[٢] العلم وأهله ، وقال : مَن عَمِلَ على غير علم كان ما يُفْسِد أكْثَرَ مما يُصْلِح ، ومَن لم يُعَدَّ كَلامه من عمله كثرت ذنوبه .

ورؤى عمر بن عبد العزيز وهو يقول : اللهم زد مُحْسِين أمة محمد إحساناً ، وأرجع بمسيئهم إلى التوبة ، وقال باصبعه اللهم حُطّ من أوزارهم برحمتك .

قالوا : ووفَدَ عمرو بن أمية الضمري على النجاشي ، فدخل عليه فقال : إنا وجدناك كأنك في الرقة علينا منا ، وكأنّا في الثقة بك منك ،[٣] لأنا لم نردك لأمر قط إلاّ نلناه ولم نخفك عليه إلا أمِنّاه .

قالوا : ووفد وفدٌ على سليمان بن عبد الملك ، فدنا متكلمهم فقال : يا أمير المؤمنين إنّا والله ما أتيناك رغبةً ولا رهبةً ، قال : فما جاء بك ؟ لا جاء الله بك . فقال أما الرغبة فقد وصلت إلينا في رحالنا ، وأما الرهبة فقد أمنّاها بعد ذلك ، ولقد حبّبْتَ إلينا الحياة وهونت علينا الموت ، فإنا نرجوك لمن نخلف من أعقابنا .

وكتب أرسطا طاليس إلى الإسكندر : مِن حُسْن التدبير أن يأمن أهلُ الورعِ والسلامةِ عقوبَتَكَ ، ويوطن أهل الريبة والذعارة أنفسهم على نزول نقمتك بهم .

ولقد أحسن في هذا المعنى صريع الغواني[٤] حيث يقول في يزيد بن مزيد :

الزائـــديون قَوْمٌ في رماحِهُمُ ... خَوْفُ المخوفِ وأَمْنُ الخـائفِ الوَجِلِ

(١) أي عمر بن عبد العزيز ، بدليل ما قبله .
(٢) دروس : مصدر الفعل دَرَس إي زال .
(٣) أي كأننا منك عندما نثق بك .
(٤) هو مسلم بن الوليد .

وفي كليلة ودمنة : إنما يؤتى السلطان من قِبَل ست : الحرمان والفتنة والفظاظة والهوى والزمان والخرق .

أما الحرمان فأن يحرم ست خصال أو يعطاها نواقص منها صلح الوزراء والحياة والمال والبلد والحصون والرسل .

وأما الفتنة فتهيج الأعوان وتشعب الجند وتحارب الناس .

وأما الفظاظة فافراط الخشونة بإرسال اللسان بالشتم ، واليد بالبسط في غير موضعها .

وأما الهوى فالإغرام بالنساء والشراب والملاهي والصيد ، حتى يستفرغ الفراغ فيه .

وأما الزمان فما يصيب الناس فيه من السنين والموتان ونقص الثمرات والآفات في الحرث والنسل .

وأما الخرق فسوء التدبير ، ومعاملة العدو في حال السلم بالحرب ، وفي حال الحرب بالهدنة ، وإعمال الشدة في موضع اللين ، واللين في موضع الشدة .

وقالوا إن الحازم يحذر عدوه على كل حال ، يرهب المواثبة إن قرب ، والغارة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولىّ ، والمكر إن أتاه وحيداً ، ويكره القتال ما وجد منه بُدّاً ، لأن النفقة فيه من الأنفُس ، والنفقة في غيره من المال .

وإذا كان الملك محصنا لسره ، بعيداً من أن يعرف ما في نفسه ، متخيراً للوزراء ، مهيباً في أنفُس العامة ، متكافياً بحسن البلاء ، لا يخافه البرىء ولا يأمنه المريب ، مقدراً لما ينفق كان خليقاً ببقاء ملكه .

قالوا : وقال الفضل بن مروان : كانت رسل الملوك ملوك الأطراف إذا جاءت بالهدايا يجعل اختلافها إليّ ، فيكون للجوابات ولما معهم من ذلك موضع من ديواني ، وكنت أسأل رجلاً رجلاً منهم عن سير ملوكهم وأخبار عظمائهم ، فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم ، فقال : بَذَلَ عُرْفَه وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة ، لا يبهظ جنده ولا يحرج رعيته سهل النوال حزن البطال ، فالرجاء والخوف معقودان في يده . قلت فكيف حُكْمه ؟ قال : يردع الظالم ويردّ الظلم ويعطي كل ذي حق حقه ، فهم اثنان راض ومغتبط . قلت وكيف هيبتهم له ؟ قال : يتصور في القلوب فتغضي له العيون . قال : فنظر رسول الحبشة إلى إصغائي إليه وإقبالي عليه ، فسأل ترجمانه ما الذي يقول ؟ قال : يصف ملكهم وسيرته .

قال فكلم الترجمان بشيء ، فقال لي الترجمان : إنه يسألك أن تصغي إليه وتقبل بعينك عليه ليحدثك عن ملكهم ، ففعلت . فكلم الترجمان طويلاً ، ثم قال الترجمان : إنه يقول إن مَلِكهم ذو أناة عند المقدرة ، وذو حلم عند الغضب ، وذو سطوة عند المغالبة ، وذو عقوبة عند الاجترام ، قد كسا رعيته جميل نعمته وقصد بهم تعنيف عقوبته ، يتراءونه ترائي الهلال جمالاً ، ويخافونه مخافة الموت نكالاً ، قد وسعهم عدلاً ، وردعهم سوطه وكبله ، لا تمتهنه مزحة ولا تؤنسه غفلة ، إذا أعطى أوسع وإذا عاقب أوجع ، فالناس اثنان راج وخائف ، فلا الراجي خائب الأمل ، ولا الخائف يفقد الأجل .

قلت فكيف هيبتهم له ؟ فقال : لا ترفع إليه العيون أجفانها ولا تتبعه الأبصار إنسانها ، كأن رعيته قطا فرقت عليه صقور .

قال فحدثت المأمون بهذين الحديثين ، فقال لي : كم قيمة مقالة الرجلين عندك ؟ قلت : ألفا درهم يا أمير المؤمنين . قال : الله يا فضل إن قيمتها عندي اكثر

من الخلافة ، أما عرفت حديث أمير المؤمنين عليّ رحمه الله وفيه كل إنسان وما يحسن ؟ أتعرف أحداً يحسن أن يصف بعض خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هاتين الصفتين ؟ قلت لا ، قال : فهذان قد أمرت لهما بعشرين ألف دينار وأنا مستزيد لهما فاخلع عليهما واجعل العذر سُدّة بيني وبينهما فلولا حقوق الإسلام وأهله لرأيت إعطاءهما ما في بيت المال الخاصة والعامة دون ما يستحقانه .

قال الواقدي : توفي بعض رسل الملوك بدمشق زمن عبد الملك بن مروان ، فوجد في جيبه لوح من ذهب فيه ثلاثة أسطر : إذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام ، وإذا ظهرت الخيانات استخفت البركات .

وذكر المدائني مما وجد في كتب الأولين من الخصال التي هي أعمدة السلطان هذه الأحرف : ما أزيل الملك بمثل الإهمال ، ولا جوهد بمثل الرأي ، ولا استنبط الرأي بمثل المشاورة ، ولا قلّ العدو بمثل العدل ، ولا استنزل النصر بمثل الكف ، ولا حصنت النعمة بمثل المواساة ، ولا كوفىء الإحسان بمثل النية ، ولا حليت الأشراف بمثل التواضع ولا اكتسبت البغضة بمثل الكبْر .

وقال عبد الله بن المقفع : ينبغي للسلطان العاقل أن يعلم أن عليه اربع خصال هن أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت ، الاجتهاد في التخير ، والمبالغة في التقدم ، والتعهد الشديد ، والجزاء العتيد . أما الاجتهاد للتخير فإنه التخير للعمال والوزراء ، فإنه نظام الأمور ، ووضع مؤونة البعيد المنتشر فإنه عسى أن يكون بتخيره رجلاً واحداً قد اختار ألفا ، لأنه من كان من العمال خيراً فيتخير كما اختير ، ولعل عمال العامل وعمال عماله يبلغون عدداً كثيراً ، فمن سَنّ التخيرّ فقد أخذ بركن وثيق ، ومن أسّس أمره على غير ذلك لم يجد لبنائه قواماً .

وأما التقدم والتوطيد فإنه ليس كل ذي لب وذي أصالة يعرف وجوه الأمور

والأعمال ، ولو كان بذلك عارفاً لم يكن صاحبه حقيقاً أن يكل ذلك إلى علمه دون توقيفه عليه وتنبيهه له والاحتجاج به عليه .

وأما التعهد الدائم فإن الوالي إذا فعل ذلك كان سميعاً بصيراً ، وإن العامل إذا فعل ذلك به كان متحصناً حريزاً . وأما الجزاء العتيد فإنه يثبت المحسن ، والراحة من المسيء . وقال : لا تستطاع الأعمال إلا بالوزراء والأعوان ، ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة ، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف .

قال : وكتب قيصر إلى أنو شروان يسأله عما ضبط به ملكه ، فكتب إليه : لم أهزل في أمر ولا نهي قط ، ولم أخلف وعداً ولا وعيداً ، ووليّتُ للغَناء لا للهوى ، وعاقبْتُ للأدب لا للغضب ، وأودعتُ الرعية الرهبة من غير صنيعة وأسكنتُ نفوسهم المحبة من غير جرأة ، وعممت بالقوت ، ومنعت الفضول .

وفي حكم الهند : لا ينبغي للسلطان إقصاء البعيد إذا نفع قربُه ، فلا شيء ينفع أقرب من الجسد ، وربما دووي فكان برؤه بالدواء يؤتي به من بعيد ، والجرذُ جارٌ مُدانٍ فلما ضر نفي ، والبازي بعيد وحشي فلما نفع أدني واقتني .

وفي كليلة ودمنة : وليس لصاحب الدنيا مال ولا صديق لعمل صالح ، فهو حقيق أن يجعل سعيه فيما يبقى ويعود نفعه ، ويرفض ما سواه ، وينزل المال بمنزلة المدر ، والنساء بمنزلة الأفاعي ، والناس فيما يحب لهم من الخير ويكره لهم من الشر بمنزلة نفسه .

قال : وتكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات في الحكم بين الكلام والسكوت ، فصارت أعمدة وحكماً : فقال كسرى أنا على ما لم أقل اقدرُ مني على رد ما قد قلت .

وقال قيصر : لا أندم على ما لم أقل ، ولكني أندم على ما قلت .

وقال ملك الصين : إذا تكلمتُ بالكلمة ملكتْني ولم أملكها .

وقال صاحب الهند : عجبت ممن يتكلم بالكلمة إن ذكرتْ عنه ضرّته ، وإن لم تذكر عنه لم تنفعه .

وكان يقال : خصال من طبائع الجهال : الغضب من غير شيء والإعطاء في غير حق ، وإتعاب البدن في الباطل ، وقلة معرفة الرجل بصديقه من عدوّه ، ووضعه السر في غير موضعه ، وثقته بمن لم يجربه ، وحسن ظنه بمن لا عقل له ولا وفاء ، وكثرة الكلام من غير نفع .

قال : وسأل معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص : مَن أبلغُ الناس ؟ قال : من ترك الفضول وأقبل على الإيجاز . قالَ : فمن أسخى الناس ؟ قال : من ترك دنياه في صلاح آخرته .

الأحنف بن قيس قال : قال لي عمر بن الخطاب يا احنف لا تضحك فإنّ من كثر ضحكه ذهبت هيبته ، ومن كثر مزاحه استُخِفّ به ، ومن اكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه قلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه مات قلبه .

وفيما كتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر : قد يجب على الملك أن يكون كما أصف عظيم الهمة ، واسع الفكرة ، جيد البحث ، مطلعاً على العواقب ، رؤوفاً رحيماً ، إذا غضب لم ينفذ غضبه ، وإذا تحركت الشهوة فيه ردّها بعقله ، وإذا وافق الصواب أنفذه ، غير لجوج ، وغير وقاح ولا بذخ ولا متهاون ، يعرف آثار من تقدمه ، وينزل الناس على أقدارهم واستحقاقهم ، ولا يضع مراتبهم ، ويتزين لهم بزينة محمودة وأخلاق جميلة ، ويكون متمسكاً بالدين راغباً في الخير والفضل .

وأجاب عن مسائل كتبها إليه الاسكندر يسأله عنها فقال : أي ملك تطاول على جنده وقواده لم يأمن الحيف . أي ملك ضيع الصغير من أمره لم يسلم عليه كبيره . أي ملك نظر في عواقب اموره عذُب على ذلك حديث الرعية بفضله وامتدحوه بعقله .

وقال : انظر لضعفاء أهل مملكتك يشكرك عليه أقوياء أصحابك وضعفاؤهم ، وتثاب عليه في العاقبة . ونظرك الأقوياء وتضييعك للضعفاء أمرٌ لا يحمدك عليه الضعفاء ولا يمدحك به أهل المعرفة بالسير ، بل حقاً أقول إنك تنال بالعقوبة ، ومثلك في الدنيا مثل صاحب البستان الذي يضيع أن يسقي الشجر المحتاج إلى الماء ، ويصرف الماء إلى ما لا حاجة به إليه .

وفي بعض سياسة الهند : واعلم أنك إن لم تفصل القضاء على من جارت عليه الخصوم ونكب ، حولت خصومته عليك ، ودخلْتَ بينه وبين خصمه الذي جُرْت عليه ، وإنّ عدْل الله بعد ذلك مِن ورائه وورائك حتى يستوفي له منك ، فلا تكتف بالعدل عليهم فيما بينهم دون أن تأخذ لهم من نفسك وتنصفهم منها ، وتعدل عليهم فيما ينوبهم من حقك وينوبك من حقهم قبلك ، فإذا أنت احرزت العَدْل بإذن الله فاجمع إلى عدلك على الرعية الرأفة بهم والمرحمة والعفو عن جاهلهم ، وبث الأموال في مساكينهم ، ولين الجانب بعامتهم فإن البد[1] قال لبعض ملوكنا حين سأله عن العدل : إذا أنزلت كل طفل من الولدان لك ولداً ، وكل كبير من الرجال لك أبا ، وكل كبيرة من النساء لك أُمّا ، وكل قِرن من الرجال لك أخاً ، وكل مثل ذلك من النساء أختاً ، ثم بَرَرْتَهم بِرَّ ذلك وجُدْت عليهم جود ذلك فقد عدلت .

وفي فصل له من هذا الكتاب آخر : ان الدنيا ربما أصيبت بغير حزم من الرأي ولا فضل في الدين ، فإن نلت حاجتك منها أو أدبرت عنك وأنت مصيب فلا

---

(١) البد : ملك الهند .

يستخفنك ذلك على معاودة الخطأ ومجانبة الصواب ، فإن صاحب الدنيا منها على غرور ، وصاحب الآخرة منها على يقين ، فلا يدري صاحب الدنيا أي رأييه أنجح له في حاجاته ، أرأيه الحازم أم رأيه العاجز ، فهو من أمره في لبس ، ومن رأيه على شبهة .

فلا أحد أروح قلباً ولا أقرب بأخذ رأي من امرىء عرف رضوان الله من سخطه ، ثم عمل بمعرفته ، فما أتاه من الدنيا وهو على ذلك أتاه والله عنه راضٍ ، وما أدبر عنه منها أدبر وهو إلى الله معذور .

وإن كنت عالماً برضوان الله من سخطه فامض رأيك وعلمك بذلك في نفسك وفيمن وليت أمره ، وإن كنت غير عالم بذلك فليكن أول أمرك ابتغاء علم ذلك أن تقيس الناس بنفسك فلا تضنّ عليهم بما ترغب فيه من رأيك ولا تأت إليهم بما تكره أن يؤتى لك .

وفي بعض حكم العرب حصّنْ عقلك من العُجب وحياءك من الرخاوة ، وحلمك من التهاون ، ومصابك[1] من العجلة ، وعقوبتك من الأفراط ، وعفوك من تعطيل الحدود ، وصمتك من العي ، واستماعك من سوء الفهم ، واستئناسك من البذاء ، وخلواتك من الاضاعة ، وتعاهدك من استفراغ القوة ، وعزماتك من اللجاجة ، ويأسك من القنوط ، ورضاك من الفوت ، وتأنيك من البلادة ، ومرحك من البطر ، وروغانك من الاستسلام ، وحذرك من الجبن .

وقرأنا في سير ملوك العجم أن الملك تطول مدته إذا كان فيه أربع خصال : إحداها ـ أن لا يرضى لرعيته بما لا يرضى لنفسه ، والأخرى أن لا يسوف ما يخاف عاقبته ، والثالثة ـ أن يجعل وليّ عهده من يرضاه لا من يهواه . والرابعة ـ أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضعة عن منام رضيعها .

---

(١) أي لا تصب أحدا في عقوبة على عجل ، لكن تثبت .

وقيل : لا يستغنى السلطان عن الكفاة ، ولا الكفاة عن الافضال ، ولا الافضال عن المادة ، ولا المادة عن العدل . فالسلطان بغير الكفاة عاجز ، والكفاة بغير الافضال مسلطون والافضال بغير المادة منقطع ، وإنما يقيم المواد ببسط العدل ، وفي العدل حياة الدين وبقاء الملك وصلاح العامة ، وصلاح العامة أعد من كثرة الجند .

وبلغنا أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين بينا هو يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو اليك ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع رسول الامام فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني ، فقال : يا أمير المؤمنين إن أمّنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها وإلاّ احتجزت منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل ، قال : فأنت آمن على نفسك . فقال : إن الذي داخله الطمع حتى حال بينه وبين صلاح ما ظهر من البغي والفساد لأنت . فقال : ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء[1] بيدي ، والحلو والحامض عندي ؟ فقال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك منهم فيها ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلاّ فلان وفلان نفر قد سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلاّ وله من هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استصلحتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت

---

(١) الصفراء والبيضاء : الذهب والفضة .

أن لا يحجبوا عنك ـ تجني الأموال وتجمعها ولا تقسمها قالـوا هذا قد خان اللـه ورسوله فما لنا لا نخونه وقد سخّر لنا نفسه فائتمروا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلاّ ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلاّ وصموه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم ، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقروهم على ظلم من دونهم فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء شركاءك في سلطانك وأنت غافل .

فإذا جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك ، فإذا أراد رفع قضية إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم ، فإذا جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك قالوا لصاحب المظالم أن لا يرفع مظالمه إليك ، فإن للمتظلم منه حرمة، فأجابهم خوفاً منهم ، فلا يزال المظلـوم يختلف إليه ويشـكو ويلوذ ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتلّ عليه ، فإذا جهد وأحرج وظهرتَ صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالاً لغيره .

وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى الصين فقدِمْتها مرة وقد أصيب ملكهـا بسمعه ، فبكى يوماً بكاء شديداً ، فحثه جلساؤه على الصبر ، فقال : أما أني لا أبكي للبلية النازلة ولكني أبكي لمظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته .

ثم قال : إنْ ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، نادوا في النـاس أن لا يلبس ثوبـاً أحمـر إلاّ متظلـم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهـاره ينظـر هل يرى مظلوماً .

فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين شح نفسه ، وأنت مؤمن بالله ثم من أهل بيت نبيه ﷺ لا يغلب بالمسلمين شح نفسك فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله عبرة في الطفل يسقط من بطن أمه وماله في الأرض

مالٌ ، وما من مالٍ إلاّ ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعْظُم رغبة الناس إليه .

ولست بالذي تعطي ، بل الله يعطي من يشاء ما يشاء .

وإن قلت إنما أجمع الأموال لتسديد السلطان فقد أراك الله عبراً في بني أمية ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد .

وإن قلت إنما أجمع الأموال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت عليها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلاّ منزلة لا تدرك إلاّ بخلاف ما أنت عليه .

يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ فقال المنصور : لا . قال : فكيف تصنع بالملك الذي خوّلك مُلك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الأليم .

قد رأى ما عقد عليه قلبك وعملته جوارحك ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه رجلاك ، هل يغني عنك ما شححت عليه من طلب الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب على ما خوّلك ؟ .

فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أخلق ، ويحك كيف احتال لنفسي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينك فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسددوك . قال : قد بعثت إليهم فهربوا مني . قال : خافوا أن تحملهم على طريقك ولكن افتح بابك وسهّل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عليهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد .

وهـذه موعظـة جامعـة تبـين عن كثـير من أصـول فسـاد المالك والأديان وصلاحها ، رأينا أن نختم به كتابنا هذا الذي جمعنا فيه جمل ما أوجب الله على ملوك أهل الملة وأمرائها وأئمتها وخلفائها .

وقد أسبغت لهم الموعظة وبذلت لهم النصيحة ،وأديت إليهم الأمانة دينـاً ودنيا وآخرة وأولى ، فلينظر ناظر وليتعظ متعظ ، وفقهم الله وإيانا للسداد ، وهدانا وإياهم سبل الرشاد .

تم كتاب نصيحة الملوك والحمد لله وحده ،
والصلاة والسلام على من لا نبي بعده